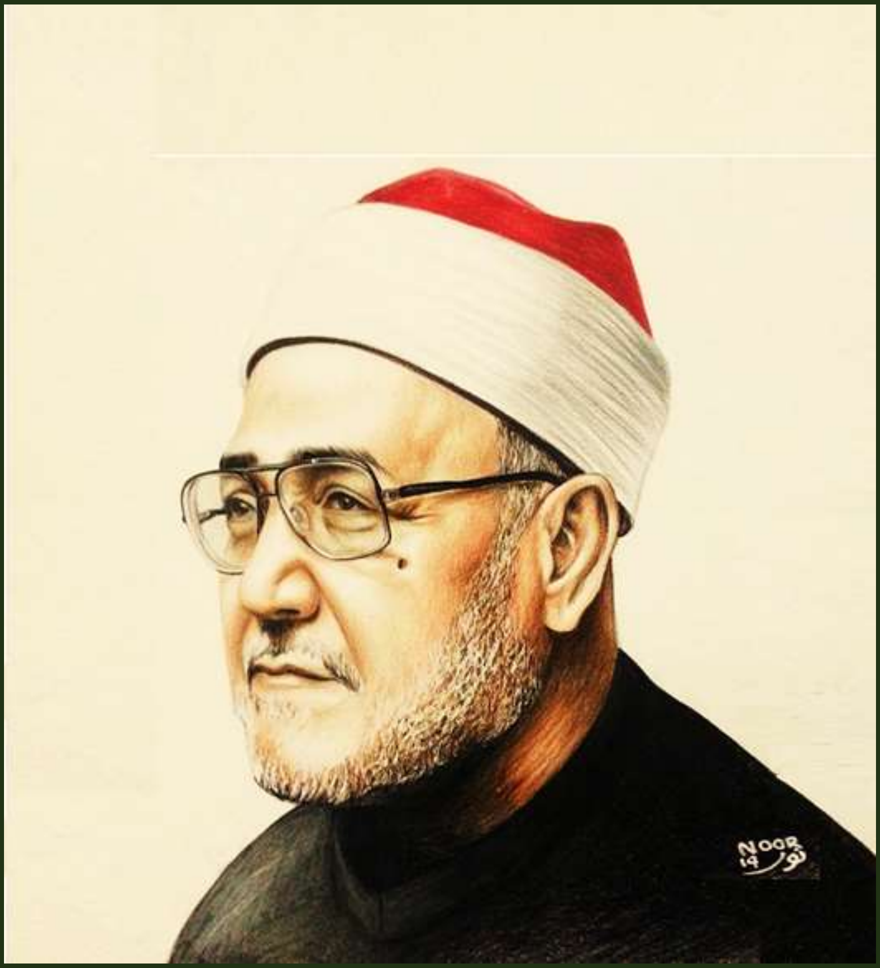

عبقرية الغزالي

رحمه الله

د. عبد السلام البسيوني

مع الشيخ رحمه الله تعالى قبل سبع وعشرين سنة

صورة الغلاف: الفنانة نور عبد السلام!

خط العنوان للمهندس عبيدة البنكي

الصور الداخلية: من مواقع شتى على الإنترنت.

إننا ندرس العقيدة ولسنا وهابية

ونهتم بالروحانيات والرقائق ولسنا صوفية

ونعمل العقل ولسنا معتزلة

محمد الغزالي

مقدمة

- اللهم ارحم عبدك محمد الغزالي، واجزه خير الجزاء عما غار لدينك، وحِمِي لشرعك، واحتمل وكتب، وعانى ونصب، ووقف وواجه!
- اللهم واجعل كتبه وأعماله ومواقفه وآراء محبيه فيه شفاعة له يوم القيامة!
- اللهم واجعل ميتته كرًّا على المبطلين، وإعلاءً لراية الدين، وجهادًا حتى آخر نفس في الأولين.
- اللهم واجعل مدفنه روضة من رياض الجنان، وشهادة له يوم تلقي الصحف بالشمائل والأيمان، وعلو كعب في العلماء المرضيين؛ اللهم آمين.

ثم أما بعد: فإني حين أكتب عن عبقرية الغزالي رحمه الله، الذي سبق وتفرد، وكان للأمة كالنذير العريان، منتبهًا أكثر من سواه لمواطن الخطل والزلل، حاملًا مشعل التنوير، رافضًا للظلم والقهر والتغرير، مستعصيًا على الانكسار والانحناء؛ حين أكتب عنه فإني فيه لست متعصبًا، أو ملقيًا للكلام دون تثبت، ولا تأمل.

كما أنني لست صاحب هوًى فيه؛ بل كنت في بداياتي نائيًا عنه، شموسًا عن منهجه؛ بسبب حدة لحظتها في بدايات معرفتي به: في كلامه إذا تكلم، وكتابته إذا كتب – وكنت آنذاك شابًّا مضغوطًا كغيري من الشباب بالإزعاجات الأمنية، وسخافات المخبرين غير المبررة، والشبان لا تعجبهم الحدة، ولا ينصاعون بيسر للشدة – وخصوصًا بعد أن نشرت مجلة العربي أوائل الثمانينيات ملفًا عن التطرف، شارك فيه نخبة مختلطة من العلماء والمفكرين (الغزالي، والقرضاوي والبشري، وعمارة، وفهمي هويدي، وفؤاد زكريا، ولم يعتبر بعض الشباب هذا الملف – تسرعًا – تشخيصًا للداء؛ بل زيادة في البلاء، وصبًّا للزيت على النار؛ حيث إن المؤامرة على الشباب المسلم كانت ثقيلة باهظة مكرثة ومحيرة!

وقد كان الشيخ رحمه الله في حدته شابًّا؛ رغم مناهزته الثمانين، ومن طبيعة الشباب الانفعال،

وبعض الخشونة، وهي خلة لم تفارقه رحمه الله في أطوار حياته، حتى إنني شكوت ذلك ذات مرة لوالدي وشيخي الفذ الدكتور عبد العظيم الديب عليه رحمات الله ورضوانه – وقد كنت أجرؤ عليه ما لا أجرؤ على غيره – فانفعل رحمه الله، وقال: كيف يلومكم معاشر الشباب؟ ألا يذكر ما كان يفعل في شبابه؟ ألا يذكر أنه كان أشد انفعالًا، وأحد حالًا؟! سامحه الله، ثم كان بعد يطيب خاطري بكلام رفيق، يضع الشيخ فيه في منزلته، ويلفتني إلى حجمي وحالي!

وشكوته مرة للرجل الهامة، الجليل صلاح أبو إسماعيل، فضحك ضحكته النقية، وقال – ليمتص حدتي وحزني –: أقول لك نكتة على صاحبك، وأضحكني، ثم تكلم عن الشيخ بما يليق بمثله عن مثله، رحمهما الله رحمة واسعة!

ثم أراد الله تبارك وتعالى أن أقترب من الشيخ، وأسمع له، وأقرأ، وأراه، وأجالسه، وأحاوره للصحافة، وللتلفزيون، وأزوره في بيته بالقاهرة، وفي مقره بفندق الواحة حيث ينزل كل زيارة للدوحة، التي كانت تحتفي به احتفاء يليق به، فانضبطت النظرة، واعتدلت الفكرة، خصوصًا بعدما رأيت من ثناء شيوخي الأجلة العلامة يوسف القرضاوي، والحيي عبد العظيم الديب، والرباني حسن عيسى عبد الظاهر، وصلاح أبو إسماعيل، وعبد القادر العماري، وغيرهم رحم الله تعالى حيهم وميتهم! ولمست ما له من مكانة في القلوب، وأثر في الدعوة، وجهاد طويل خاضه بقلبه وعقله ولسانه! يحدوه الصدق، والغيرة، والحب المفرط للإسلام، ونبيه العظيم صلى الله عليه وسلم.؛ أحسبه والله حسيبه، ولا أزكيه على الله تعالى ولا أحدًا!

عرفته إذن من أربعين سنة، منذ رأيته في المدينة المنورة، في المؤتمر العالمي الأول للدعوة والدعاة، سنة 1977، وكان هو مقرر المؤتمر! وجالسته من ثلاث وثلاثين سنة، وكنت متحمسًا، محتفظًا برأيي، وأنس إليّ بعد لقاءات، وبعد استرابة، فسمتي سمت سلفي، وطرحي ناقد ثوري، ثم حدث أن قلت له: يا شيخي إنني أكتب كتابًا أنتقد فيه بعض آرائك!

ففاجأني بقوله: اكتب يا بني، اكتب، أنا حفي بالخلاف. اكتب ولا تتحرج!

ولُمته صراحة؛ لأنه لم يرب تلاميذ على يديه كما فعل الأئمة، وخفي عليّ أن الله عز وجل ربى له مئات وألوف التلاميذ الذين قرؤوه، وفهموه، وافتتنوا به، وحاوروه، وكتبوا عنه المقالات والكتب، ومنهم من أخذ عنه الرسائل الجامعية، ومنهم من أعد البرامج التلفزيونية والإذاعية، وسيبقى بفضل الله تعالى أطول وأطول، وستقدر عطاءه الأجيال، رحمه الله ورفع درجاته في الصالحين.

وقد شرفني الله بأن صلى ورائي ذات مغرب – قبل ثلث قرن – في جمع لا يتكرر مثله من العلماء(كان منهم أصحاب الفضيلة الأساتذة الدكاترة: القرضاوي، وعبد العظيم الديب، وصلاح أبو إسماعيل، والسالوس، والقره داغي، والعماري، وغيرهم) وكنت أقرأ من سورة الغاشية، وأقف بعد الاستفهام التعجبي: أفلا ينظرون إلى الإبل؟! كيف خلقت؟ وإلى السماء؟! كيف رفعت؟ وإلى الجبال؟ كيف نصبت؟! وإلى الأرض؟! كيف سطحت!؟

ويبدو أنه تأثر بهذا الوقف والله أعلم، فلما انتهت الصلاة لم يتردد في أن يسلم علي، ويثني على قراءتي، وكانت مفاجأة ألجمتني، وأطارتني فرحة وحبورًا!

وها أنا وقد نهزتني الفرصة في مئوية الغزالي لأكتب عن العلامة المتفرد الشيخ محمد الغزالي، بعد اتصال من أخي الكريم الدكتور وصفي عاشور، يقول لي – بلسان الحال – إنني مقصر في حق الشيخ، ولما أكتب عنه، وكانت فرصة طيبة لأخرج هذا الكتاب المتواضع، ثم لأكتب في عمل ثانٍ (عقيدة الإمام الغزالي)، وكنت قد دققت من قبل فقه السيرة، ولعلي أكون قد وفيت الشيخ الجبل بعض حقه؛ عليه رحمات الله وورضوانه!

وإنني لأرجو ألا أكون قد قلت في هذا الورقات إلا حقًّا، وأن تكون نظراتي فيه توفيقًا وصدقًا، وأن يحقق فيه ظني، بلقياه ووالديَّ في فردوسه الأعلى، عند سيدنا المصطفى حبيبه وحبيبي

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، في مقعد صدق؛ عند مليك مقتدر؛ اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

عبد السلام البسيوني

12 من صفر 1439/ غرة نوفمبر 2017

ملحوظة هامة:

جل اعتمادي في هذا الكتاب على كتب الشيخ نفسه، ومذكراته، فهو أولى من يتكلم عن نفسه، بجانب لقاءاتي به، وقد لخصت منها ما يعكس عبقريته، ونواحي تفرده، وجلَّيت ما استطعت من جوانب شخصيته العظيمة، ولم أستوعب، ولعلي أتم هذا بعد، والحمد لله رب العالمين!

القرضاوي في رثاء النجم الذي هوى

...عرفت فيه العقل الذكي، والقلب النقي، والخلق الرضي، والعزم الأبي، والأنف الحمي!

عرفت الغزالي فما عرفت فيه إلا الصدق في الإيمان، والسداد في القول، والإخلاص في العمل، والرشد في الفكر، والطهارة في الخلق، والشجاعة في الحق، والمعاداة للباطل، والثبات في الدعوة، والمحبة للخير، والغيرة علي الدين، والحرص علي العدل، والبغض للظلم، والوقوف مع المستضعفين، والمنازلة للجبابرة والمستكبرين، مهما أوتوا من قوة.

عرفت الشيخ الغزالي فعرفت رجلًا يعيش للإسلام، وللإسلام وحده، لا يشرك به شيئًا، ولا يشرك به أحدًا: الإسلام لحمته وسداه، ومصبحه وممساه، ومبدؤه منتهاه. عاش له جنديًّا، وحارسًا يقظًا، شاهر السلاح، فأيما عدو اقترب من قلعة الإسلام يريد اختراقها، صرخ بأعلى صوته، يوقظ النائمين، وينبه الغافلين، أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكيه علي الله.

الغزالي مقدرًا مرتضًى:

في الصحيحين عن سيدي أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحببْه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)!

وأزعم – ولا أتألى على ربي سبحانه – أن هذا الرجل قد وضع له الحب في الأرض، كما وضعت له المهابة، ورفع له ذكره، ورزقه التوفيق ، والقبول، والإصابة!

- ويا كم سمعت من الثناء على الشيخ رحمه الله من علماء أجلة، وقامات سامقة، شهادتهم لهم – فيما أرجو– من عاجل بشرى المؤمن!
- ويا كم قرأت لكبار كثيرين كتبوا عنه؛ كالقرضاوي والندوي وعمارة البشري والعوا وعبد الحليم عويس وخالد محمد خالد، بجانب الرسائل العلمية، وعشرات؛ إن لم يكن مئات المقالات التي كتبت عنه عنه، وسيأتي من ذلك كثير، في أثناء هذا الكتاب!
- ويا كم اعتقدت أنه مؤتًّى له، في فكره، وعاطفته، ولسانه، وحميته!

وأسوق هنا قصتين لهما دلالاتهما، في تقديره، ونظرة الناس إليه، وقد شارك فيها علماء كبار، وهي من مذكرات الشيخ:

أولاهما: رواها الشيخ القرضاوي في مذكراته؛ حين دعي إلى مؤتمر إسلامي عالمي، يعقد تحت رعاية الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (وكنت آنذاك طالبًا بها، ولأول مرة أرى كبار علماء الدنيا مجتمعين في صعيد واحد، ورأيت الغزالي والقرضاوي ومحمد قطب والندوي والشعراوي وكثيرين كثيرين غيرهم) وكان يرأسها حينذاك سماحة العلَّامة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز، ونائبه الشيخ الدكتور عبد المحسن العباد، وكان موضوع هذا المؤتمر هو: توجيه الدعوة وإعداد الدعاة، وكان موعده في صفر (1397هـ)، شباط أو فبراير (1977م) حين انعقد المؤتمر العالمي الأول لتوجيه

الدعوة وإعداد الدعاة بالمدينة المنورة

دعي إلى هذا المؤتمر نحو ثلاثمائة عالِم مسلم، اجتمعوا في رحاب المدينة المنورة، بجوار مسجد رسول الله وقبره الشريف، ورشح المؤتمرون سماحة الشيخ ابن باز لرئاسة المؤتمر، كما هي العادة، في ترشح رئيس كل جامعة لرئاسة المؤتمر، ولكن الشيخ ابن باز تنازل عن الرئاسة للشيخ عبد المحسن العباد نائب رئيس الجامعة.

ثم جاء دور ترشيح مقرر عام للمؤتمر، فوقف شيخنا الجليل العلامة سماحة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي جمهورية مصر الأسبق ليقول: أنا أرشح الداعية الإسلامية الكبير الشيخ يوسف القرضاوي، ليكون مقررًا للمؤتمر!

وكان بجواري الأستاذ محمد المبارك المفكر الإسلامي السوري المعروف، فقلت له: أنا سأرشح الشيخ الغزالي، وأرجو أن تثنِّي عليَّ لأسباب أنت تعرفها، فوافقني على ذلك.

فقلت: أنا أعتز بثقة أستاذنا الكبير الشيخ حسنين مخلوف، وأعُدّ ترشيحه لي شهادة لي أفخر بها، ولكني متنازل لشيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، لأسباب لا تخفى عليكم!

فقال الأستاذ المبارك: وأنا أثني على هذا الترشيح. وهنا قال بعض الإخوة: هذا يوم الإيثار: الشيخ ابن باز آثر الشيخ العباد، والشيخ القرضاوي آثر الشيخ الغزالي!

وكان السبب المباشر لترشيحي للشيخ الغزالي: أن الرئيس السادات هاجمه جهرة في حديث مذاع على الهواء، حين سأله الطالب عبد المنعم أبو الفتوح، رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة: لماذا يفسح المجال للمداحين والمنافقين، وتغلق الأبواب في وجوه العلماء والدعاة الصادقين والمعتدلين من الأمة، والواعين لمشكلاتها وعلاجها؟!

وضرب مثلًا بالشيخ الغزالي، الذي اضطر إلى أن يغادر البلاد، لما ضيق عليه ... إلخ؛ فما

كان من السادات إلا أن رد بغضب وحنق، وكأن هذا السؤال لمس عنده وترًا حساسًا، هاج هائجه، وأثار ثائرته، ففتح النار على الشيخ الغزالي، وقال فيما قال: هذا داعية فتنة، ومثير للنعرة الطائفية البغيضة.

وهذه تهمة باطلة بالنسبة للشيخ الغزالي، فما كان الشيخ في يوم من الأيام، داعية لطائفية ولا مثيرًا لفتنة بين أبناء البلد الواحد. بل كان من دعاة التسامح أبدًا، على نهج شيخه حسن البنا.

ولكن إذا هاجم الإسلام مهاجم ما من المسلمين أو النصارى رد عليه بالمنطق العلمي الرصين، وألزمه الجادة، وهذا لا حرج فيه، ولا يعيبه أحد، إذ لا مجاملة في الحق، ولا مداهنة في الدين، والحق أحق أن يتبع. فهذا ما دفعني إلى أن أقدم الشيخ الغزالي، ليكون ردًّا على من هاجمه، باختيار علماء الأمة له مقررًا عامًّا للمؤتمر، وكان في الواقع نعم المقرر. فقد أعطي القوس باريها.

وثانيتهما: رواها الشيخ بنفسه في مذكراته، قال: .... وقعت لي بعد التخرج بسنين، أسوقها الآن للموازنة بين مسلك ومسلك، أو بين إنصاف وإجحاف!

في الخمسينيات كان في مصر ما يسمى بالمؤتمر الإسلامي، يتولى أمانته العامة القائمقام أنور السادات. وحدث أن وجه المؤتمر دعوة إلى الكتاب والمفكرين المسلمين؛ ليقوموا بعمل ما في خدمة الرسالة الإسلامية، وضم المدعوِّين اجتماع تمهيديٌّ كان من بين رجاله الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى، الذي نظر فيمن حوله فلم يرني! وكان لي يومئذ بضعة عشر مؤلفًا في خدمة الدعوة، والدفاع عنها! وكان الجمع يضم عددًا من علماء الأزهر، وكبار الأدباء!

وما كاد الشمل يلتئم، والعمل يبدأ، حتى قال الدكتور محمد يوسف موسى للسادات – أمين المؤتمر – بصوت مسموع: أرى أن يكون معنا في تحقيق أهدافنا رجل ليس بيننا الآن، الشيخ محمد الغزالي!

قال الدكتور الفاضل: وما كدت أنتهي من قولي حتى خيَّم على المجلس صمت شامل، طال

فترة؛ حتى أحسست بالحرج، وما أغراني بالكلام إلا أن هناك أزهريين كثيرين، اعتقدتُ أنهم سوف يؤيدونني! لقد لاذوا بالسكوت جميعًا!

وما أنقذني من الخجل إلا صوت الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو ينطلق أجشّ على عادته: نعم أنا قرأت لهذا الشاب، وينبغي أن يكون معنا!

وعندئذ تحرك جمهور المشايخ يثني علي ويؤيد وجودي (!)

ولم توجَّه إلى دعوة، ولم أعرف ما تم بعد ذلك، وأظن الأستاذ العقاد ألف كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه إجابة لرغبة المؤتمر!

ومن المفيد أن أذكر أنه لا علاقة بيني وبين العقاد، ولم أحضر للكاتب العملاق ندوة أو تربطني به صحبة، وإن كنت من أشد الناس إعظامًا لأدبه وعلمه.

الغزالي ممدوحًا ومقدوحًا فيه

الغزالي ممدوحًا ومقدوحًا فيه

ألفت عن الشيخ رحمهما الله تعالى مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب: (مع الشيخ الغزالي: رحلة نصف قرن) للدكتور يوسف القرضاوي؛ وكتاب (الشيخ الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية) للدكتور محمد عمارة. وكتب عنه أ.د. عبد الحليم عويس مع آخرين: الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم، ودراسة لجوانب من فكره، وكتب نور الدين بن رابح اعزيز: الوسطية والاعتدال في المنهج الدعوي عند الشيخ الغزالي، وكتب د. وصفي عاشور أبو زيد: منهج الشيخ محمد الغزالي في تناول مسائل العقيدة، والإمام محمد عبده في مرآة الشيخ محمد الغزالي، وكتب محمد شلبي: الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي، وكتبت عنه: عقيدة الإمام محمد الغزالي السقا!

وكُتبت عنه عدة أعمال وأطروحات جامعية، من بينها رسالتا الشيخ الدكتور محمد الصغير، للماجستير والدكتوراه: الشيخ محمد الغزالي، وجهوده في رد مطاعن المستشرقين، وقضايا العقيدة في فكر الشيخ الغزالي، وكتب عنه الدكتور: عمر عبد الله عبد الرحيم أحمد رسالته للدكتوراه في كلية دار العلوم: فكر الشيخ محمد الغزالي؛ في إطار مدرسة الإصلاح المصرية، وهناك أطروحة (الشيخ محمد الغزالي مفكرًا وداعية) للباحث الجزائري إبراهيم نويري، التي نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر، سنة 1999 م. وكتب عنه حسين فتحي الملكاوي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، وفتحي فلوسي: الشيخ الغزالي ومنهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث، وغيرها كثير!

وحاورته قامات علمية ودعوية كبرى، من أشهرها أ. عمر عبيد حسنة في مدارسة عنوانها: كيف نتعامل مع القرآن! وكذا: حوارات الشيخ الغزالي: السيرة والمسيرة، الذي يشتمل على عدة محاورات مع الشيخ محمد الغزالي، عن سيرته الذاتية وأهم مؤلفاته وتجربته في الدعوة والإفتاء، كما يتضمن تعريفًا بتجربة الشيخ مع التيارات الإسلامية المعاصرة وقضية المرأة وقضية الفنون. والمحاورون أبجديًّا: أ.د. جمال الدي عطية، وأ. د. حسن الشافعي، وأ. صافيناز كاظم، و: أ. فهمي

هويدي، و: أ.د. محمد عمارة، و: أ.د. محمد كمال إمام!

وتشرفت أنا عام 1992 بمحاورته لجريدة العرب، قبل خمس وعشرين سنة في عدة قضايا تجديدية. وحاورته قبلها في بيته عام 1990 لتلفزيون قطر في عدة حلقات!

وعني بنشر مذكراته بعنوان (قصة حياة: مذكرات الشيخ محمد الغزالي) الأستاذ الباحث: محمد جلال لاشين.

كما جمعت خطبه تحت عنوان: خطب الشيخ محمد الغزالي، في شؤون الدين والحياة، وأتمنى أن تجمع أعماله الصوتية، والتلفزيونية المتناثرة في العالم؛ خصوصًا في منطقة الخليج، والجزائر!

وقد تنوع الرأي فيه – بحسب مورده – بين مادح وقادح، ومحب وقالٍ، والسبب في ذلك الاختلاف هو المدرسة الفكرية: فقد قلت من قبل إن الشيخ الغزاء كان شجًا في حلوق العلمانيين، وأعداء الدين، وكذا في حلوق الغلاة، وذوي المناهج الخاصة في التدين، الذين شذوا عن فقه الأئمة وكفروا الأمة، ووقعوا في حجور الفراعنة والظلمة! وقلت: إنهم كانوا يبغضونه، ويتقولون عليه، بسبب تصديه الدائم لهم، وكشفه لمخططاتهم، وتعريته الفاضحة لأساليبهم ومناهجهم الرديئة!

- وسأورد هنا نماذج من آراء العلمانيين واليساريين، لتلحظ التجني على الإسلام، وسبه بسب الشيخ رحمه الله تعالى، واتفاقهم في طرحهم على أنه قاتل فرج فودة!
- كما أورد نماذج من كلام بعض الشيوخ الرافضين، الذين لم يقصروا في سبه والتشنيع عليه، واتهامه بعداوة السنة، والزندقة، والبدعة، وبغض النبي صلى الله عليه وسلم!
- وآراء المحبين الذين عرفوا قدره، وأنزلوه منزلته، وهم الأسدّ قولًا، والأرفع ذكرًا:

أولًا: في الجانب اليساري، والعلماني القادح:

يقول أحمد عبد المعطي حجازي (محمود القيعي: رأي اليوم):

إن الشيخ محمد الغزالي أصبح له اسم معروف، عندما أصدر كتابًا في الرد على خالد محمد خالد (من هنا نبدأ) بعنوان: (من هنا نعلم) حيث هاجم الغزالي الأفكار التي قدمها خالد محمد خالد، في رفض الخلط بين الدين والسياسة، ورفض الكهانة، وكل الأفكار المرتبطة بفكرة المواطنة والعقل.

إن الغزالي قدم نفسه مدافعًا عن استبداد الملك(!) ومدافعًا عن الحلف الذي قام بين "السراي" وبين الإخوان والأزهر(!)

الشيخ الغزالي بعد تلك المرحلة، أصبح مشهورًا أكثر، عندما قاد مظاهرة يعترض فيها على نشر رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ في الأهرام! وأصبح أكثر شهرة عندما أدلى بشهادته في قضية فرج فودة، وأكد فيها أنه لا بد للدولة أن تطبق حد الردة على فودة! وما لم يقله(!!!) أنه إذا تقم الدولة بتطبيق الحد، فهؤلاء القتلة يقومون به، وقد كان!

وأكد أن محمد الغزالي في نظره لعب دورًا سيئًا جدًّا في الحياة السياسية والفكرية والثقافية المصرية، داعيًا المصريين في تلك الذكرى أن يراجعوا هذا التاريخ الأسود، وأن يبرؤوا منه!

وكتب عنه عبد القادر أنيس، وهو يساري جزائري ملحد جلد، كاره للدين جملة:

(يتوجب علي أن ألفت نظر القارئ إلى أن المقصود بالإنسان، عند الشيخ الغزالي، كما استنتجت ذلك هو الإنسان المسلم، كما سنرى، رغم أنه يستفيق بين صفحة وصفحة فيستخدم لفظ الإنسان للخداع فقط، ولكن سرعان ما تعود حليمة إلى عادتها القديمة، ويعود الشيخ لمقصوده، وفاء لدينه، إن لم يكن رهينة هذا الدين!

طبعًا لا نعدم في موروثنا الديني والأدبي أحاديث، وأمثال تحض على الرأفة بالحيوان، كما نجد عكس ذلك! أما أن يمارس شيخنا الانتقاء، ويقدم دينه للعالم كبديل متفوق على المواثيق الدولية الحديثة المحكمة حول حقوق الإنسان، وحقوق الحيوان، وحتى حقوق البيئة، وكلها من ثمار الحداثة، فهو نوع من التحايل والخداع، وبطريقة ساذجة، الهدف منها التقليل من شأن قيم الحداثة، وتثبيط عزائم المسلمين في المطالبة بها!!

نواصل مع هذا الشيخ (الفاضل) كما كان يقدم في تلفزتنا لسنوات طويلة، وساهم بجدارة في تخريج أفواج الإرهابيين، يقول: "إن القرآن الكريم يعد إزهاق الروح جريمة ضد الإنسانية كلها: (أنه من قتل نفسًا بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا). الإنسانية والناس في عرف الغزالي تنطبق على المسلمين فقط؛ مهما حاول استغفالنا. الدليل على ذلك أنه بارك قتل المفكر فرج فودة بحكم أنه مرتد؛ رغم أن الرجل لم يصرح أبدًا بأنه مرتد!

المأساة في هذه الفاجعة أن موقف الحكومة المصرية كان موقفا متخاذلًا جبانًا؛ إن لم يكن متواطئًا إلى أقصى الحدود! وبدل أن يُقدَّم الغزالي للمحاكمة؛ بتهمة التحريض على الإرهاب، نرى وزراء هذه الحكومة يعظمون من شأنه، ويتملقونه؛ ليحفظوا ماء وجوههم أمام الضمير العالمي!

هل بعد هذا تقام الدنيا ولا تقعد عندما يفشل وزير مصري فيما بعد في اعتلاء رئاسة اليونسكو، رمز الثقافة والعلوم والفنون وحريات التعبير والإبداع والاعتقاد، وكأنه من السهل خداع العالم مثلما يجري خداع شعوبنا في بلداننا)!

وتحت عنوان: الشبكة الجهنمية التي قتلت فرج فودة،كتب مجدي خليل (باختصار):

قبل اغتيال فرج فودة بعشرة أيام وبالتحديد في 27 مايو 1992 قال الشيخ محمد الغزالي في ندوة بنادي هيئة التدريس بجامعة القاهرة عن د.فرج فودة وعن د. فؤاد زكريا: إنهم يرددون كلام

أعداء الإسلام في الخارج.. ربنا يهديهم... وإن ماهداهمش.. ربنا ياخدهم"!

وكانت هذه، مع بيان ندوة علماء الأزهر، بمثابة رسالة التكليف بالقتل. وقد جاء بالفعل تكليف القتل (!) سريعًا من صفوت عبد الغني من داخل محبسه، والذي كان مسجونًا بتهمة اغتيال دكتور رفعت المحجوب، ونقل محاميه للقتلة التكليف، وبدأ في تنفيذه(!)

في يوم الاثنين 8 يونيو 1992 تحرك عبد الشافي رمضان، وأشرف السعيد بتكليف من محامي صفوت عبد الغني، واستقلا دراجة بخارية، بعد أن جهز لهم الأسلحة والذخائر إرهابي آخر، وهو أبو العلا عبد ربه. وفي السادسة من مساء ذلك اليوم سالت الدماء الطاهرة للشهيد فرج فودة أمام الجمعية المصرية للتنوير، التي أسسها في مصر الجديدة، وكانت هذه بمثابة رسالة واضحة للعالم كله أنه دفع حياته ثمنًا لرسالته التنويرية، في بلد يعج بالظلامية والتكفير والإرهاب(!) في نفس اليوم خرج مأمون الهضيبي متحدثًا لإذاعة الكويت، ومهللًا وشامتًا في مقتله، ونشرت الجماعة الإسلامية بيانًا تقر فيه بمسؤوليتها عن مقتله، وأنها قتلته تطبيقًا لفتوى العلماء!

.....لم تكتفِ الدولة بخطئها الجسيم بعدم حماية المرحوم فرج فودة فحسب، في وقت كان محاطًا بالخطر من جميع الاتجاهات، بل إنها ظلت تحتفي بمحمد الغزالي في منابرها، وفي عضوية مجمع البحوث الإسلامية حتى رحيله عام 1996، وكذلك منع التليفزيون الرسمي الإعلان عن فيلم الإرهابي، الذي كان إعلانه يظهر الفنان محمد الدفراوي، وهو يسقط صريعًا تحت رصاص الإرهاب، حيث جسد في الفيلم دور المرحوم فرج فودة!

أما الشيخ محمد الغزالي فواصل تكفيره بعد ذلك، ونشر في عموده بصحيفة الشعب مقالًا عن المفكر الإسلامي الكبير المستشار محمد سعيد العشماوي، متهمًا إياه بأنه يدعو للشذوذ واللواط، متسائلًا: هل يحتاج شخص مثل هذا إلى فتوى لتكفيره؟

ثانيًا: من وجهة نظر بعض الإسلاميين الناقمين على منهجه ورؤيته:

قال عنه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي غفر الله ورحمه (أنقلها كما هي):

محمد الغزالي لو كان في عصر الإمام أحمد لحَكَمَ عليه بالزندقة، الإمام أحمد قيل له – كما في مقدمة "معرفة علوم الحديث" – قيل له: إن أبي قتيلة يسخر من المحدثين، فقام الإمام أحمد ينفض ثيابه، ويقول: "هذا زنديق، هذا زنديق، هذا زنديق"، ما ظنك بمن يسخر من حديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ فهذا لو كان في زمان الإمام أحمد لحُكِمَ عليه بالزندقة، وإنني أحمَدُ الله سبحانه وتعالى؛ فقد قام أهل السنة بِحَملة عليه، وأصبح مسكين، أصبح مسكين! ماذا.. يدافع عن نفسه ويتقهقه.. ما قلت كذا وكذا.. أنا ما قلت.. وهكذا بعدما كان يضحك على الناس يأتي بالكلمة، ويضحك بعدها على طلبة العلم المصريين الأفاضل الذين يتمسكون بالسنة، فالحمد لله كُتبٌ قيِّمَة ردَّت!

رأيت كتابًا لأخينا في الله سلمان العودة، وآخر أيضًا لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وأُخبِرت أن الأخ ربيع بن هادي أخرج كتابًا في الرد عليه!

احترق، المهم احترق محمد الغزالي، ما يهمني أنه ألف كتاب "السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث"، كنت وحدي أتصارع معه، كنت وحدي أتصارع معه! من أجل ماذا؟! من أجل "هموم داعية"، و"دستور الوحدة الثقافية" فلما أخرج هذا الكتاب قام من هو خير منّي، وأقدر على دين الله منّي...

ثم بعد ذلك نسمع جهلة الإخوان المسلمين! زارني بعضهم إلى هاهنا، وقالوا لي: ينبغي أن يُطعَن في الآراء المخالفة، لا يُطعن في الرجل؛ لأنه داعٍ إلى الله كبير! قلت لهم: ينبغي أن يُطعن في الرجل؛ لأن كتبه قد أصبحت كالجرائد، فنحن نطعن في كتاب، ما ندري وقد أخرج كتابًا آخر! والله المستعان!

وقال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي (أنقلها كما هي):

الغزالي هو من زمان يطعن في أهل السنّة، من سنوات طويلة يطعن فيهم، ويطعن في أهل الحديث. كنا ننتظر من الناس يردون عليه، ما أحد رد عليه، أخيرًا طغى وبغى وغلى وغلى(!) طَلّعَ كتاب كله طعن في الحديث وأهله، حيث العلمانيين ما تحملوا راحوا يردون عليه، رددت عليه، وردّ عليه سلمان العودة، وردّ عليه عائض القرني، وردّ عليه – أحدٌ – علماني، كل النّاس ردّوا عليه، لأنه تجاوز الحدود، نسأل الله ...، فاسد ...، والله ناس علمانيين ردّوا عليه، ما تحملوا خبثه وعدوانه على الحديث وأهله، فقيَّد (هكذا) الله المسلمين وغير المسلمين للرد على هذا المبتدع الضال، والقرضاوي الآن يسلك مسلك الغزالي؛ إلا أنه أمكر منه!

ويندم الشيخ سلمان العودة على حواره (الهادئ) حول فكر الشيخ، ويعتذر، فيقول:

وفي لحظة اندفاع يغفل المرء عن سُنَّة: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ) 17:الرعد، وأن السُّنة تصدق عليه كما تصدق على خصمه، ولا تحابي أحدًا.

البحث كان حصيلة استعراض لكامل كتب الشيخ المنقود قديمها وحديثها: قرأتُ نتاجه العريض، أبحث عن سجل أخطائه، وأدونها في قصاصات.. تكلّف الأخطاء.. وتتبع مسار أراه بعين واحدة!

مثل هذه الروح تقتضي أن أقف مسرورًا أمام العثور على ما أعتبره زلةً، أو انحرافًا للكاتب، إنها ضالتي المنشودة، أظفر بها موثَّقة معزوَّة إلى مصدر مباشر!

ولأن الجزاء من جنس العمل فقد رزقني الله بإخوة أفاضل سلكوا معي الطريق ذاته، وفلوا ما أكتب فليًا، باحثين عن زلاتي (وما أكثرها)، ثم صنَّفوها؛ للتدليل على أنها لم تكن أخطاء فردية، أو عثرات عابرة، بل هي منهج مدروس، متواطأٌ عليه!

الآراء المتغيرة للشيخ كنت أصنفها على أنها (تناقض)، ولو شئت لقلت إنها آراء رجع عنها، والحكم للمتأخر من أقواله!

التاريخ العلمي حافل بالأقوال المختلفة المنسوبة للإمام أحمد، وقد تصل في المسألة الواحدة إلى ثمانية أقوال، وللشافعي مذهبان، وللحنفية والمالكية مدارس!

هل حدث للسلف أن جمعوا عثرات شيخٍ في مصنَّفٍ واحد؟ كان بعضهم يرد على بعض في مسألة، وهذا كثير يفوق الحصر. وقد يعرض أحدهم لأقوال المخالفين ضمن تصنيف لا يخصهم؛ كما فعل البخاري في رده على الأحناف في صحيحه، بإشارات عابرة تحمل عنوان: (وقال بعضهم)!

لم أظفر بكتاب علمي معتبر يكون محل الأسوة، جرّده مؤلفه لجمع مثالب عالم، والرد عليها واحدة بعد الأخرى .قد يوجد مثل هذا لكن قصرت معرفتي دونه. الغالب أن الرد يكون في ثنايا بحث أوسع، أو يكون لمعالجة مسألة بعينها، أو مسائل ينتظمها باب واحد.

فرق بين من يهدف لبيان الحق الذي يراه، وبين من يقصد زحزحة خصمٍ عن منصةٍ سبق إليها!

نُقل عنك أنك تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كتبت ذلك الحوار الهادئ؟

كلا؛ لم أقل هذا؛ لأنني لست كثير الالتفات للوراء، لم أندم على ما مضى وقُدّر، ولكني لن أكرر ما فعلت، ولن أطبع الكتاب، وسأظل معترفًا بفضل الله عليَّ أن جعلني في قائمة البشر الخطّائين، وأعانني على تصويب نفسي، وإشهار مخالفتي لذاتي، ولو بعد حين!

ثالثًا: رأي كبار علماء الأمة في الشيخ:

وسأعرض هنا بعض شهادات كبار علماء الأمة عنه رحمه الله تعالى – وإن كان هو غنيًّا عنها – لكنها من عاجل بشرى المؤمن؛ فيما أرجو:

قال عنه الإمام الرائد الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى، في رسالة له مطالع شبابه:

أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد، قرأت مقالك (الإخوان المسلمون والأحزاب) في العدد الأخير من مجلة (الإخوان) فطربت لعبارته الجزلة، ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين. هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون.. اكتب دائمًا وروح القدس يؤيدك، والله معك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومن يومها أطلق الإمام حسن البنا على الشيخ الغزالي لقب أديب الدعوة.

وقال عنه شيخي العلامة يوسف القرضاوي بحسابيه على تويتر والفيسبوك قائلًا:

في ذكراه أشهد أني ما سمعت الشيخ محمد الغزالي إلا تأثرت به، وتجاوبت معه، ولمست فيه طوال معايشتي له صدقًا، وتجردًا، وحميّة للدين!

عرفتُ في الغزالي أنه رجل دعوة قبل كل شيء: الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها: عليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد؛ رحمه الله، ورفع درجته.

وقال في موضع آخر: لا يكتب عن الأئمة إلا إمام! ومن لي بالإمامة أو العبقرية حتى أكتب عن إمام وعبقري مثل الغزالي؟

وقال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى في كتابه: (مذكرات سائح في الشرق العربي):

كنت حريصًا على الاجتماع بالشيخ محمد الغزالي، أحد كتَّاب النهضة الدينية بمصر، وقابلت مؤلف (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الاشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه) و(من هنا نعلم)! قابلت الرجل، وسررت لهذه المقابلة؛ لأني رأيت فيه رجلًا صالحًا، مثقفًا، نشيطًا، صاحب قلب حيٍّ وعقل نيِّر، ووجه يفيض بالبشر، ورأيت أن كلًّا منا يعرف صاحبه عن طريق الكتب والرسائل، ويرى في هذه الكتب صورة أفكاره ومبادئه!

لاحظ أن هذا كان أوائل عام 1951، حين كان الغزالي في مطلع ثلاثينياته، رحمهما الله تعالى!

وقال عنه شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود:

ليس عندنا إلا غزاليان: غزالي الإحياء، وغزالي الأحياء!

وقال عنه الدكتور محمد عمارة:

رحم الله شيخنا العلامة محمد الغزالي الذي ولد قبل قرن من الزمان في 22 سبتمبر 1917، والذي توفي في 9 مارس ألف وتسعمائة وستة وتسعين، وهو اليوم الذي توفي فيه موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني!

لقد كان الشيخ الغزالي عليه رحمة الله واحدًا من أبرز المجددين في الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري، وكتب كتابًا في مطلع القرن الخامس عشر الهجري أجاب فيه عن مائة سؤال عن الإسلام، وفي هذا الكتاب معالم المشروع الحضاري والفكري عند الشيخ محمد الغزالي!

..... إننا في حاجة ماسة إلى إعادة قراءة المشروع الفكري للشيخ الغزالي؛ ليعرف المسلمون أصدقاءهم من أعدائهم، وليواجهوا به مختلف التحديات الخارجية والداخلية.

وقال أستاذي الكبير عمر عبيد حسنة، مدير تحرير مجلة الأمة رحمها الله:

إن كتابات الشيخ الغزالي تحمل عاطفة الأم على وليدها المريض، الذي تخشى أن يفترسه

المرض، وبصيرة الطبيب الذي يقدم العلاج، وقد يكون العلاج جراحة عضوية؛ إن احتاج الأمر إلى ذلك، وكانت كتبه تواجه التحديات الداخلية والخارجية على حد سواء، ونجد الشيخ الغزالي في الخندق الأول، حيث أدرك الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها أعداء الإسلام!

وقال عنه الأكاديمي الجزائري د. إبراهيم نويري:

....فإن الشيخ الغزالي دائم الارتباط بالملأ الأعلى، لا ينسى مطلقًا الدار الآخرة! بل إنه ينفعل إلى حدود بعيدة؛ إذا كان الحديث عن هذا الأفق الرحب من آفاق الإيمان، وربما أحرج جلساءه بهذا الانفعال دون قصد منه، يقول المفكر المؤرخ الدكتور عبد الحليم عويس رحمه الله عن هذه الصفة في شخصية الغزالي: إن هذا الداعية لم يتعصب قط لنفسه، ولم يشعر بأنه فوق الخطأ البشري، وبأنه – لجهوده – فوق الناس، بل عاش مع الناس في مشكلاتهم! يتحدث عن أيام الفقر والضراء، كما يتحدث عن أيام السراء! يداعب ويمزح، حتى يظن محدثه أنه خال من الهموم، فإذا جاء ذكر الله والآخرة بكى؛ حتى أحرج جلساءه ومحدثيه، وقد كنتُ أصلي به إمامًا – في بعض الظروف، وبإصرار منه – فيبكي، وأنا أقرأ القرآن بعد الفاتحة، فأضطر إلى اختصار القراءة!

وكنا يومًا في الجزائر نقرأ عليه أنا ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بعض حكم ابن عطاء الله السكندري، فأخذ يبكي ويتأوه، ونحن في سكون ووجوم، لا ندري ماذا نفعل! هذا كله إنما يدل على مدى شفافية الروح التي تسكن إهاب الشيخ الغزالي!

وقال د. حسام عقل عنه:

كلما رأيت داعية ديكوريًّا أجوف، ينبطح أمام قيادة سياسية دون منطق أو كرامة، تذكرت الراحل الكبير محمد الغزالي – 1917 / 1996 – الذي كان زئيره في مواجهة الطواغيت ينفذ في قلوبنا، ويستوطن منا صميم الوجدان!

وكلما رأيت عقلًا فقهيًّا ضحلًا، يصفع الناس بقياس فقهي هش، فيقيس مشكوكًا فيه على

مشكوك فيه، أو يقيس غموضًا على غموض، فيخرج بفتاوى عجيبة تثير السخرية أو الشفقة، تذكرت الغزالي بأقيسته الفقهية المتوردة العميقة، التي تستجيب للنص والواقع بصورة أنيقة راقية!

وكلما رأيت وجهًا دعويًّا كالحًا، يكشر في الوجوه، ويمضي في طريق الحظر والتشديد – وحده – كأنما يعيش زمانًا غير زماننا، وكأنما يحبس النص بين دوائر التحريم وحدها، دون (رخصة من ثقة) كما يقول (سفيان الثوري) تذكرت الغزالي وهو يشع عمقًا ووسطية وبسمة بشوشًا تأسر القلوب.

وكلما سمعت داعية محدود الثقافة والفهم، يستميل شريحة من الناس بتسطيحات شديدة الضحالة، ويثير جزئيات صغيرة في إغفال تام لمقاصد الشريعة الكلية، تذكرت الغزالي الذي كان يتحدث فينفتح في وعي المستمع، عشرون كتابًا دفعة واحدة في الفقه والتاريخ وعلم النفس والإعلام والسياسة والاقتصاد.

وكلما سمعت عالمًا يتعثر في النطق والخطأ اللغوي الساذج، الذي يستهين بقواعد النحو والصرف، ورصانة التكوين العربي للجملة والعبارة، تذكرت فصاحة الغزالي، التي كانت تتخايل بالحروف، وتعتز بمخارج النطق، وتصنع من الجمل العربية سلاسل من ذهب!

وكلما رأيت الخوف، المثير للرثاء، يسكن وجوه بعض الدعاة، وهم يمارسون إكروبات بهلوانية، لإنقاذ الحكام من الإدانة الشعبية بأي ثمن، بفتح ماكينة التبرير الشرعي؛ دون توقف! لمنح العصمة للقيادات السياسية وحدها، ونقل الشجب والمسئولية عن الفشل السياسي والاقتصادي إلى الشعب فقط باعتباره (مجرمًا أوحد) تذكرت الغزالي وهو يشد قامته باعتزاز، ويخاطب الجميع بثقة، ويصب شواظًا من نار على أنظمة الحكم الشمولي، دون أن يكون وراءه حارس شخصي، أو (بودي جارد) يصد عنه أية اعتداءات!

وكلما سمعت داعية يحرق بخورًا للعلية والكبار، أو يباشر خطابًا تحريضيًّا مجرمًا لاستباحة المعارضين والخصوم، وتكميم الأفواه وفتح الطريق أمام الحكام للتسلط والقسوة الجاهلة في البطش

بالجميع، تذكرت الغزالي وهو يثمن الدماء غاليًا ويعتد بالإنسان، حرية وكرامة.

وأعجب كيف لمن مضى يقول للناس: "طوبى لمن قتلهم وقتلوه" مسقطًا النص على قياس فاسد، فيفتح بابًا داميًا للاستباحة والتصفية الجسدية لم تعرفه مصر يومًا، أعجب كيف يستطيع النوم حتى الآن، أو دخول الاستوديوهات مرة أخرى بعد أن تسبب – بالفتاوى المهلهلة الموتورة الموجهة بـ"الريموت كنترول" – في شلال من الدماء الزكية لشباب في عمر الزهور، فأغرى الحاكم والمحكوم بمخاطرة دموية آثمة، بددت السلم الأهلي، وفتحت قنوات اللهيب والموت على مصر، وكان بمقدورنا – بشيء من السماحة الأبوية، والفهم، والعلم الصحيح، والمسؤولية منذ البداية – تجنب الخوض في هذه البركة الدامية!

وقال عنه د. عبد الستار فتح الله سعيد:

لا ينسى تاريخ الإسلام، ما قام له الأئمة الأعلام من جهد ناصب لرد الغارة الجاهلية العارمة، وحشد الأمة حول معالم الإسلام الشامل، الذي لا يقبل التجزئة والتفريق، ولقد قامت أفواج متلاحقة تذود عن معالم الوحي والحق، وفي ظلال المدرسة الربانية المجاهدة التي أسسها الإمام الشهيد حسن البنا تربى شيخنا محمد الغزالي وحمل أعباء الدعوة مع رجالها الكبار، ثم صار – بفضل الله – علمًا من أعلامها، ومضى يرفع لواءها شامخًا في وجه الاستبداد والإلحاد، ويذود عن شرف الإسلام بقلمه ولسانه، ويجلي حقائق الوحي الأعلى، ويقارع الجاهلية الطامسة يوم ضرب الطغيان على أمتنا ليلًا بهيمًا!

وكتب د. مصطفى بن الناصر وينتن/ الجزائر:

عاش الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى حياة ملؤها الجد والحزم والمثابرة في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل، وكان رجل فكر متميز؛ بما أوتي من غزير علم، وسديد نظر للوجود، وبما كان يوفق إليه في دراسة الأوضاع، من إدراك العلاقات بين ماضي الأمم وحاضرها، وبين الأمم؛ في صراعها على

البقاء، وفي إدراك سنن الله تعالى في خلقه، والبحث عما يفيد الأمة الإسلامية في نهوضها من سباتها!

وكانت القضية التي عاش في سبيل تحقيقها: تبصير الأمة بواقعها، واستنهاض همم أبنائها لتغيير ما بهم من الركوض، نهوضًا ذكيًّا حضاريًّا فعَّالًا، ينجح في اكتساب الخطوات، ولا يتقهقر إلى الوراء بسبب الجهل بسنن الله تعالى التي تحكم الكون، وتجعله يسير على نظام بديع، دال على عظمته في خلقه!

واتخذ الشيخ رحمه الله الوسيلة الشافية والكافية التي كانت بيد الرسول صلى الله عليه وسلم، وبها جاهد الكفار، وبها أصلح شأن المؤمنين، وهداهم للتي هي أقوم، وهي القرآن الكريم كلام رب العالمين؛ إيمانًا من شيخنا أنه لن يُصلح هذه الأمة في كل مراحل تاريخها إلاَّ بما صلح به أولها، وكان هذا سببًا قويًّا في نجاح أغلب مساعيه!

ولعل أهمها: ما فتح الله تعالى من أفئدة كثير من الخلق إلى تقبل نظراته، وتحليلاته، والسير على منهجه الذي دعاهم إليه! وكان هذا أيضًا السبب الذي منعه أن ينتمي إلى جهة، أو إلى مدرسة غير مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم!

وقال عنه الدكتور عبد الصبور شاهين:

قَرَأَتِ الدنيا له عشرات الكتب في الإسلام ودعوته، وتلقّت عنه ما لم تتلقَّ عن أحد من معاصريه؛ حتى إن عصرنا هذا يمكن أن يطلق عليه في مجال الدعوة: عصر الأستاذ الغزالي!

وقال عنه الشاعر الأديب الدكتور جابر قميحة:

لقد جسَّم الغزالي الرضا، والأمر، والتكليف، والضيق والتقزز، فبدت في صورة حسية مجسَّدة كما شخص: النفس والمشاعر؛ فإذا بها في صورة حية نابضة!

وقال عنه المهندس أبو العلا ماضي:

إذا سمعتَه؛ جذبَك خطابُه وعلمُه، وكان رحمه الله رقيقَ القلب سريعَ البكاء؛ بالرغم من حدَّته وغضبه إذا شعر بانتهاك للحرمات والدين. ولقد كان مفكرًا فذًّا؛ بالإضافة إلى تخصصه في علوم الشريعة، كما كان علامة مضيئة في سماء الإسلام والدعوة الإسلامية، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وجزاه خيرًا على ماقدَّم.

وقال المحامي الصحفي: عبد الرؤوف التل:

الشيخ محمد الغزالي عملاق من عمالقة الفكر الحر، وقامة شامخة، لا يخشى في الله لومة لائم، وما نشره من كتب ومقالات ومحاضرات تشكل إرهاصًا قويًّا من إرهاصات النهوض والتقدم، والتمرد على الواقع العربي المليء بالفساد، والإفساد، المليء بالطغيان، والاستبداد السياسي، الذي جعل الشعوب العربية مجرد تراكم أرقام، لا وزن لها، ولا دور في بناء الحضارة وتطورها، وأن الشعوب العربية المغيبة عن الواقع، لا وزن لها ولا قيمة لا في نظر حكامها، ولا في نظر الآخرين!

وكان الشيخ الغزالي – كغيره من المفكرين والكتاب – من دعاة الأصالة، وأن تعود الأمة إلى ذاتها، إلى جذورها، إلى تراثها الحضاري، وثقافتها التي تجعل الأمة واثقة من نفسها وقدراتها على مواجهة تحديات التخلف والاستعمار وأطماعه وفكره الممزق للأمة.

وقال د. وصفي أبو زيد:

.....ولقد نذر الشيخ المجدد – يرحمه الله – نصف حياته الفكرية الأول لبيان مفاسد الاستبداد والمستبدين، ومقاومة الزحف الأحمر، والمذاهب الفكرية الهدامة، في حين كان نصف حياته الأخير متمحورًا حول كشف عوار الفكر "الأحول"، وبيان زيف التدين المغشوش، والتحذير من الفهم المغلوط للإسلام.

وفي رثائه كتب الشاعر كريم بلال:

وقفتُ على أطلالَ أزْهرِنَا سدَى	بكيتُ ودمعي في الفؤادِ تحددَا
لِمَا آلَ من حالِ الشريعةِ بعدهُ	فهاجَ أساي الطيرُ باللهِ غرّدا
لعلِّي أري خيطًا يشدُّ ظلامنا	إلى شمسِ إشراقٍ وحقلٍ توردا
فأينَ الذي قد راحَ ينزفُ روحَهُ	وسهمُ الحداثةِ في الشريعةِ سُدِدَا
فخطّ لآلِي الضوءِ في كتبِ الدجي	لتشرقُ أحرفُهُ المضيئةُ في المدَى
ويرجعُ للإسلام عهدِ نبوةٍ	فيعبقُ حقلُ الوردِ كللَهُ الندَى
فما بالُ رسم الدارِ ماَ لاحَ وشمها	ولْمْ يبقَ في ماءِ يدُ تستقي يدَا
ولا دارَ ذكريَ في الجواءِ تكلمتْ	ولْمْ تسلمِ الدورُ الخواءُ من الردَى
ولا آذنتْ بالبينِ أسدافُ جهلِنا	ويا رُبَّ داءٍ جلّ لم يعفُ مسجِدا
مآذِنُ ما عادَ الحمامُ يحفُّهَا	ولا أذّنَ الفجرُ البعيدُ لنسجدا
كأن مثار النقع فوقَ قلوبنا	وأحزاننا ليلٌ تدوَّيَ بهِ الصدَى
ولْمْ يبقَ في غمدٍ لهاذمُ ترتجي	مجابهةَ الريحِ الجسورِ الدمُ الصدَا
وفي جبِّيَ الدلوُ المعلّقُ غربتي	فما أبعدَ الصوت المناديَ ها صَدَى
ولاَ حارَ فِي أمرِ الصبيّ أخو دَمٍ	وألقَي بهِ في الجبِّ آلٌ تَبَدَّدَا
وآلَتْ نواصيناَ لمقصلةِ العِدَا	وحجّلَ خيلُ النّورِ في الأفْقِ إذ بدَا

وتحت عنوان: شهيد الحق حيته المعالي، كتب الشاعر محمد راجح الأبرش:

هو الايمان سر التضحيات	ونور في الحياة وفي الممات
ينير طريق أمتنا ويهدي	إلى العلياء في ماض وآت
وإن المصطفي ربى رجالًا	على النهج القويم على الثبات
لهم ذكر حميد في البرايا	تردده جنود المكرمات
يصونون الحمى من كل باغ	يرون حياتهم في التضحيات

نتابع جيلهم في كل عصر   وأشرق نورهم في الداجيات
إلى القوم الكرام كتبت شعري   وغنيت الملاحم في الأباة
وبينت الفضائل والمعالي   وخلدت الكريم من الصفات
وسجلت المواقف في حمانا   وأكبرت المجاهد في الحياة
بياني اليوم والعبرات حرى   يخالطها النشيج من الأباة
أتى نبأ النعيّ فحز قلبي   فوا ألماه من خبر الوفاة
لقد جل المصاب بفقد شخص   جليل قدره صلب القناة
ينير بعقله الزاهي حياة   ويكشف عن اباطيل الغزاة
لقد فقد (الغزالي) أي خطب   ألم بأمتي؛ من للدعاة؟
حباه الله معرفة وعلما   وتبصرة بآيات النجاة
له القلم الزاكي يشع نورا   يضيء أمامنا في الحالكات
يوضح ما يراه الحق دوما   ويصدع بالهدى والبينات
يصور حال أمتنا فيبكي   وتؤلمه سهام النائبات
فيكتب عن مؤامرة الأعادي   ويشرح عن مهمات الدعاة
ولا أنسى محاضرة ودرسًا   وغضبته على القوم الجناة
يرى الحل الصحيح وأي حل   سوى الإسلام منهاج الحياة
له الكتب التي فاضت عطاء   يبصرنا بكل المشكلات
يقول: الجهل في الإسلام يؤذي   وكم جهل يقود إلى الممات؟
يقول: الناس تحيا دون علم   كما تحيا السوائم في الفلاة
جهلنا نهج آباء كرام   لقد بلغوا مسار النيرات
شغلنا عن مقارعة الأعادي   أرى الأخطار من كل الجهات
حملت هموم أمتنا كبارًا   يسوؤك أن ترانا في شتات
أديب بارع في كل فن   تدفق بالبيان وبالعظات

خطيب سابق يبدي الخفايا	يبشر بالعلا والأمنيات
يقول النصر للإسلام حتمًا	سيهزم كل طاغية وعات
له النظرات ثاقبة أراها	تنم عن الأصالة والثبات
وإخلاص القلوب له شعاع	وتقوى الله رأس الصالحات
شهيد الحق حيته المعالي	وأشبال الهدى والتضحيات
مضى من بعد ما أعطى وفدى	وهذي شيمة الجند الكماة
لهم في الخلد منزلة تسامت	وفي الدنيا أحاديث الثقات
يخلد ذكرهم في كل جيل	بآثار تدل على الحماة
عزيز النصر يحرزه رجال	تنادوا للعلا والمكرمات

وأرسل الشيخ تاج الدين الهلالي لمجلة الأزهر عدد ذي القعدة 1416 هـ جزء 11 لسنة 68، كلمة رثاء جاء فيها:

يأيها الناعي أبا العلماء	هذا أوان جلائل الأنباء
لم تنع للأحياء غير ذخيرة	ولت.. وغير بقية الكرماء
أودى الردى بمهذب لا تنتهي	إلا إليه شمائل العلماء
يأيها الشيخ الفقيد تحية	أندى لقبرك من زلال الماء
يأيها العلم الجريح صبابة	النهج باق في شعبة النجباء

إن الدعوة الإسلامية قد خسرت علمًا من أعلامها وركنا من أركانها وفارسًا من فرسانها طالما صدع بقول الحق وزاد عن حمى الإسلام بالكلمة الجريئة متحليًا بالحكمة والموعظة الحسنة.

ذلكم هو العلم الزاهر والبحر الزاخر فقيد العلم والعالم الإسلامي قاطبة المغفور له فضيلة الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي! حقًّا لقد كان رحمه الله من عدول الخلف! قضى حياته ينفي عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

الغزالي ربانيًّا

أحسبه والله حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحدًا

الغزالي ربانيًّا

يقول ربي تبارك وتعالى: (ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله؛ ولكن: كونوا ربانيين؛ بما كنتم تُعلمون الكتاب، وبما كنتم تدرسون) آل عمران:79!

وفي مسلم وغيره أن سيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)!

ويقول سيدنا ابن القيم في عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: إن في القلب شعثًا لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته! وفيه حزن: لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته! وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه! وفيه نيران حسرات، لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك؛ إلى وقت لقائه! وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب! وفيه فاقة: لا يسدها الا محبته ودوام ذكره والاخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا!

فالرباني على بينة من ربه سبحانه، متعلق بالله تعالى، صابر على طاعته، وعن معصيته، عابد له متأله، مرتبط بما يحبه، مبغض لما لا يرضاه، يغار على حرماته؛ إذا انتهكت، وعلى حدوده؛ إذا تُعديت، ينصب في الدعوة إليه، ودلالة الناس عليه، والتحبيب فيه!

وبداية لا أزكي على الله تعالى أحدًا، وأحسب الشيخ رحمه الله تعالى ربانيّ الروح والعقل منذ بداياته الأولى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم!

وهو – رغم شدته أحيانًا، وجلده – بكاء قريب الدمعة، شديد التأثر! يقول عنه الدكتور إبراهيم نويري؛ كما مر قبل قليل:

......يداعب ويمزح، حتى يظن محدثه أنه خال من الهموم، فإذا جاء ذكر الله والآخرة بكى؛ حتى أحرج جلساءه ومحدثيه، وقد كنتُ أصلي به إمامًا – في بعض الظروف، وبإصرار منه – فيبكي، وأنا أقرأ القرآن بعد الفاتحة، فأضطر إلى اختصار القراءة!

وكنا يومًا في الجزائر نقرأ عليه أنا ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بعض حكم ابن عطاء الله السكندري، فأخذ يبكي ويتأوه، ونحن في سكون ووجوم، لا ندري ماذا نفعل! هذا كله إنما يدل على مدى شفافية الروح التي تسكن إهاب الشيخ الغزالي!

ورقة طبع الشيخ، ويقظته الروحية لازمته من بداياته: يقول رحمه الله: سألني مدرس النحو، وأنا طالب في المرحلة الابتدائية: أعرب يا ولد: رأيت الله أكبر كل شيء!

فقلت على عجل: رأيتُ: فعل وفاعل، والله: منصوب على التعظيم!

وحدثت ضجة من الطلبة، ونظرت مذعورًا إلى الأستاذ، فرأيت عينيه تذرفان بالدموع!

كان الرجل من القلوب الخاشعة، وقد هزّه أني التزمت الاحترام مع لفظ الجلالة كما علموني، فلم أقل إنه مفعول أول، ودمعت عيناه تأدُّبًا مع الله!

كان ذلك وهو في المرحلة الابتدائية؛ فأي سبق، وأي وعي، وأي نور، وأي شفافية!؟ رحمه الله وأجزل مثوبته.

ويبدو أن هذا من نية الأب الصالح، الذي سماه محمد الغزالي؛ تيمنًا باسم الإمام أبي حامد محمد الغزالي؛ بعد أن رأى حجة الإسلام في منامه يقول له: إنه سوف ينجب ولدًا، ونصحه أن يسميه على اسمه: الغزالي؛ فما كان من الأب إلا أن عمل بما رآه! فطرح الله عليه البركة في عمله، وهمته،

ورؤيته الخاصة، وفي وظائفه أيضًا؛ إذ عمل مديرًا للمساجد، ووكيلًا لوزارة الأوقاف، وفي السعودية عين رحمه الله رئيسًا لقسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعمل أستاذًا للدعوة بجامعة قطر، وشغل أمين أمناء الجامعة الإسلامية بباكستان، وبالجزائر رئيسًا للمجلس العلمي في الجامعة الإسلامية في قسنطينة، كما درَّس في الأردن والكويت وأميركا – وكلها في التعليم، والدعوة، والخير، والبر – وعرفت فضله الدعاة، والمنابر، والإعلام، وشهدت الصحف معاركه العلمية والتجديدية، ونضاله عن دينه، وعقيدته، ونبيه صلى الله عليه وسلم، وبقي منافحًا عن الإسلام في مقدمة الصفوف حتى آخر لحظات عمره.

وكان من توفيق الله تعالى إياه أن التحق بكلية أصول الدين بالأزهر، وبدأت كتاباته في مجلة (الإخوان المسلمين) أثناء دراسته بالسنة الثالثة في الكلية، بعد تعرفه على الإمام حسن البنا مؤسس الجماعة، الذي ظل يشجعه على الكتابة حتى تخرّج سنة (1360 هـ/ 1941) وتخصص بعدها في الدعوة والإرشاد، حتى حصل على درجة العالمية سنة (1362 هـ/ 1943م) وعمره ست وعشرون سنة، وبدأت بعدها رحلته في الدعوة من خلال مساجد القاهرة، وقد تلقى العلم عن الشيخ عبد العظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ محمد محمد المدني، وغيرهم من علماء الأزهر.

ومن مواقفه ذات الدلالة على ربانيته – ولا أزكيه على الله تعالى – ما رواه في مذكراته:

جاءتني (برقية) من البلد تطلب حضوري فورًا، فأدركت أن خطرًا داهم الأسرة، وسافرت وأنا مشتت الذهن، واسودّت أفكاري عندما رأيت دكان أبي – عن بُعد – وهو مغلق!

تحرّكت قدماي بلا وعي إلى البيت، ورأيت أبي يصرخ من مغص كلوي أصيب به، والأولاد من حوله حيارى، وقد أعطاه الطبيب بعض الأقراص المخدّرة، ولكن الآلام كانت أربى وأقسى، وقالوا: لا بد من جراحة تستخرج ما في الكلى من حصيات!

وفتحت الدكان ووقفت مكان أبي أعمل – وأنا خبير بذلك؛ لأني في أثناء الإجازة الصيفية أساعده – ومضت عدة أيام ونحن نتروّى ونتدارس ما نصنع: أجور الأطباء فوق الطاقة، ولو أمكن إعدادها فإن الجراحة كانت يومئذٍ غير مأمونة العقبى، وقد مات عمٌّ لي في جراحة مشابهة؛ فماذا نصنع؟

وحاصرني غم ثقيل، وأخذت شخوص الأشياء تتقلص أمام عيني، وثبتت بصيرتي على شيء واحد: الله وحسب! وكأنما كنت أكلم الناس وأنا حالم!

وجاء رجل يشتري بعض الأغذية، ولما قدمتها له قال لي بصوت ضارع: ليس معي ثمنها الآن، وأقسم بالله إنه لصادق، وإنه غدًا يجيء بالثمن! ووقر في نفسي أن الرجل محرج فقلت له: خذ البضاعة وهي مني إليك، وانصرف الرجل غير مصدّق ما سمع!

أما أنا فذهبت إلى ركن في الدكان، وقلت: يا ربّ، نبيّك صلى الله عليه وسلم قال لنا: داووا مرضاكم بالصدقة! فأسألك أن تشفي أبي بهذه الصدقة! وجلست على الأرض أبكي!

وبعد ساعة سمعت من يناديني من البيت – وكان قريبًا – فذهبت على عجل وقد طاش صوابي! وفوجئت بأبي يلقاني وراء الباب يقول: نزلت هذه الحصاة مني – وكانت حصاة أكبر قليلًا من حبة الفول – لا أدري ما حدث، لقد شفيت!

وفي صباح اليوم التالي كنت في الكلية، أحضر الدروس مع الزملاء!

إن الذي يجيب المضطر إذا دعاه رحمني، ورحم الأسرة كلها، فله الحمد!

وفي موقف ثانٍ، وهو يروي كيف سجن مظلومًا، وجُر من بيته وأهله، يقول:

.....وبعد أن صليت العشاء سمعت ضجة غير معتادة (أمام الزنزانة) وانفتح الباب، وتدلّى سلك من الكوّة فيه مصباح كهربيّ، ودخل ضابط كبير عرفت أنه رئيس المعتقل، وسألني: شيخ

غزالي: تطلب شيئًا؟ قلت: الملابس عندكم! فأمر فجيء بها! وشرعت أرتديها، واقتادوني إلى إدارة السجن، فشربت كوبًا من الماء لأول مرة من عشرة أيام في إناء زجاجي! ثم نقلتني سيارة إلى وزارة الداخلية، فقلت في نفسي: الآن يبدأ التحقيق!

ووقفت أمام ضابط جالس في ركن الحجرة، وقفت على بعد منه، وتهيأت للأسئلة، وإذا هو يقول لي: تفضل! فنظرت حولي فلم أجد كرسيًّا أجلس عليه!

فأعاد الأمر: تفضل! فقلت له: ماذا أفعل؟ قال: تفضل عد إلى بيتك!

فخرجت وأنا لا أصدق نفسي ولا ما حولي، وسرت قليلًا بجوار الوزارة، فوجدت عمارة شاهقة مكتوبًا عليها اسم الجلالة منارًا بالكهرباء!

شعرت برغبة عميقة أن أقبِّل اسم اللهَ لكن كيف؟ طويت حبي في قلبي، وأخذت سيارة إلى بيتي، وكان منظر القاهرة غريبًا أمام عيني، لقد كنت في الجبّ، والآن أنا على ظهر الأرض، وعلى قيد الحياة، ما أجمل الحرية! وما أجملها مع الأمن والإيمان!

إذا كان الله قد فكّ إساري فليكن شكري لنعمائه أن أسعى في فكّ إسار الآخرين!

لأقل للناس: إن الله حق، وإن الجهاد في سبيله مضمون الثمرات في الدنيا والآخرة!

صحيح أني أهون المؤمنين عذابًا، بيد أني أسرعهم إلى الله كلما دهمني كرب، وما زلت أرجو عافيته، وأفرح بها لنفسي ولغيري من عباد الله!

وفيما أنا أستعد لاستئناف نشاطي، جاء بيتي المهندس أحمد عبده الشرباصي، والشيخ أحمد

حسن الباقوري، فخففتُ لاستقبالهما! فقال لي الشيخ الباقوري بعد التهنئة بالإفراج: تدري من أخرجك؟

فقلت بصوت عالٍ عجل متحمِّس: الله! وكانت اللهجة مفعمة باليقين والتقدير لربِّ العزَّة!

فسادَ صمتٌ طويل، احترامًا لهذا الإيمان، ثم قال المهندس الشرباصي بلطف:حقًّا إن الله وراء كل فضل، وهناك مفاتيح للخير، تكون سببًا فيه، وهناك من أجرى الله على يده!

ومما حدث له مما يعكس ربانية القلب – ولا أزكيه على الله تعالى – أنه خطب في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه برؤيا، كما كتبت معلمتي سناء البيسي عن الغزالي: سيد الدعاة في الأهرام/ 23 فبراير 2008:

لأن شيخنا الجليل محمد الغزالي كان رجل دعوة تنير العقول بالحقائق، وتقدم الدين من ينابيعه الصافية؛ خالصًا من الزوائد، والشوائب، وآفات التدين الفاسد، لا يحب الرياء الديني، ولا الرياء الاجتماعي، ولا الرياء السياسي؛ ولأنه أزعج السلطات يومًا فحذرته، وعندما لم يستجب صدر القرار الوزاري عام 1971 بمنعه من الخطابة في المساجد عامة! ويأتي الحليم الذي يعرف قدره – الدكتور عبد الحليم محمود – وزيرًا للأوقاف، فيطالب بعودة الشيخ الغزالي، فتلبي الجهات المعنية الطلب علي استحياء من الرجل الصوفي المسؤول، صاحب الشأن الكبير في العالم الإسلامي!

ويرسل الدكتور عبد الحليم يدعو الغزالي في يوم أربعاء ليخبره: يا شيخ محمد: ها قد عدت إلى المنبر، وستخطب بإذن الله الجمعة القادمة من منبر جامع عمرو بن العاص، وإني قد رأيته في الرؤيا يشكو من هجر مسجده!

ويهبط القرار علي الغزالي بأحاسيس متضاربة، مستهلها فرَحٌ لاستئناف ما وهب من أجله: الدعوة. وحزنٌ لأن القلب لا يحمل حبًّا لعمرو بن العاص – نتيجة سوء فهم لموقفه المعادي لعلي ابن أبي طالب في حادثة التحكيم، ندم عليه بعدُ – ويعلن الغزالي رفضه صراحة! فيحاصره ويخجله الدكتور عبد الحليم: يا شيخ محمد: أنت ستخطب بإذن الله الجمعة القادمة في جامع عمرو، وستكون إمامًا، وسوف أصلي خلفك!

ويسقط في يد الشيخ الغزالي، لتأتي الجمعة، ويصعد مكرهًا منبر عمرو بن العاص، لكنه في

هبوطه – كما روي – كانت تغمره سعادة خفية لا يدري مصدرها، فيقرر الاستمرار، وينتعش الجامع الذي اجتمعت المحافظة والوزارة علي تجديده، ويقبل الناس على خطب الشيخ حتى يبلغ الحاضرون عشرات الألوف!

ويتذكر الغزالي مجهشًا بالبكاء – نادمًا على موقفه الأول من سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه – استدعاء الشيخ الباقوري له في بيته لأمر مهم: عندما جلست علي المقعد القريب إذا بالشيخ الباقوري – وكان المرض قد نال منه – ليقعده يقربني أكثر ويبادرني بالسؤال:

- ماذا بينك وبين عمرو بن العاص؟
- فتعجبت وقلت: لا شيء! إنني أخطب الآن في مسجده!
- فعاد ليقول لي: أنا أحكي لك ما رأيت، والتفسير لك؛ فبينما كنت نائمًا إذ شعرت بطارق يطرق الباب، ويقول بصوت جهوري: الوالي قادم!
- فسألت من هو الوالي القادم؟! فقال الطارق: عمرو بن العاص!

فتأهبت للقاء صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشعرت بخفة في بدني، ودخل عمرو ابن العاص وجلس مكانك هذا، رجل قصير القامة، في عينيه عمق كأنهما أغوار محيطات، فقال لي: أبلغ الشيخ محمد الغزالي أنني غفرت له تطاوله علي؛ لأنه أحيا مسجدي بعدي! ولا تعليق!

وضائقة أخرى مر بها الشيخ، وكل فيها أمره لله تبارك وتعالى، فكان معه! يقول:

......مرَّت بي هذه الذكرى وأنا أنزوي في مكتبي المتواضع بالوزارة، بعد ما نزل بي من ظلم، ثم انضمَّ إلي ذلك أني مُنعت من الخطابة في الجامع الأزهر!

فقلت: لا داعي للعطلة، فلأتفرّغ للتأليف! أتمْمتُ في هذه العزلة ثلاثة كتب: الجانب العاطفي من الإسلام، ومعركة المصحف، ودفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ووجدت من جميع العاملين بالوزارة معاونة تامة في العمل الصغير الذي كلّفتُ به، وإحساسًا بالغضب المكتوم لما

حلَّ بي من غمط!

غير أن مصيبة لم تكن متوقعة هبطت عليّ ففزّعتني: أبلغني الناشر أن الشرطة تحفظت على ثلاثة كتب كانت في المطابع يعاد طبعها، بعد نفاد طبعاتها الأولى هي: مع الله، والتعصب والتسامح، أما كفاح دين فقد نقل إلى الداخلية، وتمت مصادرته!

وشيء آخر حدث، أبلغني أصدقائي أن حظرًا صدر يقضي ألاّ أظهر في الإذاعات كلها مسموعة أو مرئية!

فإذا انضمّ ذلك كله بعضه إلى بعض، فالقصد واضح، هو تجميدي ماديًّا وأدبيًّا، وضرب حصار خانق حولي!

والمقلق في هذا الوضع أني كنت بدأت بناء مسكن لي في الجيزة، وسأضطر لعدم الوفاء بما التزمت به! ثم إن نفقاتي أنا ستقلّ بعد أن جفّ أغلب المنابع!

وأنزلت بالله حاجتي، وكتمت مخاوفي في أعماقي، ولم تَزَل ابتسامتي عن فمي أمام أهلي وأصدقائي، وكلَّ يوم يمر يتناقص معه رصيدي، ويتسلل القلق إلى فؤادي، بيد أني أعلل النفس بالأمل، وأرقب من الله الفرج!

وذهب الوزير الذي آذاني، وجاء آخر، لم يلبث غير قليل حتى أرسل إليّ، فصعدت إلى مكتبه، قال لي باقتضاب: دولة الكويت أرسلت تطلبك لتقضي شهر رمضان بها في الدعوة والوعظ! ألديك مانع؟ قلت: لا، فأمر باتخاذ إجراءات السفر!

عدت من الكويت، وقد قضيت شهرًا مباركًا، أبيح لي فيه ما كان محظورًا عليّ في القاهرة، حاضرت في المساجد الكبرى، وتحدثت إلى أمهات الصحف، وسجلت دروسًا كثيرة في التلفاز، والإذاعة، وتعاقدت مع الناشرين على طبع عشرة كتب من مؤلفاتي!

ماذا كان على القاهرة لو وسعتني، كما وسعت الشيوعيين والملحدين من كل لون؟!

إنني أحتقر من أقصى القلب ناسًا يتشدقون بالحرية العقلانية، فإذا تحدث الربانيون الدارسون، وشرعت الجماهير تتدافع إلى ساحتهم، جفّت حلوقهم من الذعر والهلع، وتنادوا فيما بينهم: امنعوا فلانًا وفلانًا من الكلام، وحولوا بين الناس وبينهم حتى لا يسمعوا منهم حجة!   ثم رجعوا في صفاقة نادرة يقولون: الحرية، التقدمية، العلمانية... إلخ! كأن الحرية لهم وحدهم، والسجون والمنافي لخصومهم في الرأي!

وربانية الشيخ ليست دروشة بلهاء، ولا تيهًا عقليًّا، ولا ادعاء؛ أو قناعًا يصيد به الدنيا، فتدينه – من بداياته – بصيرٌ رشيدٌ نبهان، يقول رحمه الله تعالى:

وقد رأيت كثيرًا من الناس، يدلفون إلى الدين من باب الخدم، ويخرجون إلى الدنيا كذلك من باب الخدم! هؤلاء ليسوا قادة الدين:

هناك نساءٌ يفشلنَ في الحب، أو يشبعنَ من الخطايا، أو تقع لهنَّ كوارث تقيم بينهنَّ وبين الحياة المُشتهاة حجابًا كثيفًا، فماذا يفعلنَ بأنفسهنَّ؟! يذهبنَ إلى الدير، وينذرن أنفسهنَّ لله إلى الأبد!/ وهناك، رجالٌ كذلك، طردتهم الحياة من ميادينها، فلجؤوا إلى الدين؛ إذ لا ملجأ غيره!/ فإذا كان موظفًا، أُحيلَ إلى المعاش، عرف طريقه إلى صفوف المساجد!/ وإذا كان منكوبًا في ناحية ما من دنياه، تحوَّل إلى الدين، يلتمس في رحابه متسعًا!

وأبواب الإنابة لا تُغلَق في وجه محزونٍ يلتمس العزاء، ولا في وجه آيبٍ إلى الله عز وجل، ينشد حسن الختام! بيد أن قيادة الحياة إلى الله عز وجل، لا تستمد رجالها من هؤلاء وأولئك!

إن الدين، قمة الكمال الإنساني، النابت في ربوع القوة والنور والحركة والعزم. والقرآن الكريم كتاب يجيء إلى البشر أجمعين، ليبني قواهم على الحق، ولينشيء عواطفهم على الخير، وليجعل التعاون على البر والتقوى!

ويا الله، ما أرشد، وما أبصر، وما أرقى!

وهو الذي يقول أيضًا: في مجال العلم الديني رأيت ناسًا مُتَبَحِّرين في المنقول والمعقول، بهم فقه واسع، ومحفوظات كثيرة، لكن قلوبهم يَشينها جفاف بالغ:

تولَّى أحدهم القضاء، وقَدِمت إليه امرأة متهمة بالزنا، فما زال يستدرجها، ويمكُر بها؛ حتى اعترفت له، وحكم برَجْمِها، لأنها متزوجة!

قلت: هذا منهج يهودي، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يرشد المتهم ليفر من العقاب، ويتراجع عن قراره، ويتحايَل عليه لينصرف آمنًا؛ أما هذا القاضي فإنه احتال على المُذنِب ليقتله! ليس هذا أسلوب الإسلام.

والعلة أن جانبًا آخر من الثقافة الإسلامية لم يُصلِح قلب الرجل فبَقِيَ معتلًا، ولو أَلِف علم القلوب وذاق الجانب العاطفي من الإسلام لستر وغفر، يستره الله ويغفر له!

إن المؤمن لا يبهجه وقوع سيئة من أحد. ويوم يحس الرضا في نفسه لجريمة تقع من إنسان عدو أو صديق فليثق بأن في إيمانه علة خفية، وليسع إلى الاستشفاء منها.

وقال: ولست ألوم أحدًا استهان بنا، أو ساء ظنه بديننا؛ ما دمنا المسؤولين الأوائل عن هذا البلاء؛ إن القطيع السائب لا بد أن تفترسه الذئاب!

وهو الذي كتب كتابه في فقه السيرة، مميزًا مشحونًا بالعاطفة والحب والإجلال، وألقى دروسه ومحاضراته عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبكى وأبكى تعبيرًا وإجلالًا وشوقًا!

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

الغزالي عاطفيًّا

الغزالي عاطفيًّا:

- سبحان ربي القائل: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً! وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) البقرة:74!
- وسبحان الذي جعل حجرًا يسبح في كف المصطفى، وجذعًا يحن له، وجملًا يبثه الشكوى!
- ورحم الله شوقيًّا القائل:

وكنت إذا سألت القلب يومًا	تولى الدمع عن قلبي الجوابا
ولي بين الضلوع دم ولحم	هما الواهي الذي ثكل الشبابا
تسرب في الدموع فقلت: ولى	وصفق في القلوب فقلت: تابا
ولو خلقت قلوب من حديد	لما حملت كما حمل العذابا

- وسبحان الذي جعل من القلوب قلوبًا رقيقة كالنسيم، وقلوبًا تفيض بالحنان، وقلوبًا منزوعة الرحمة، قاسية، لا تعطف على صغير، ولا تعرف قدر كبير، ولا تبض بقطرة رحمة، ولا ترشح ببعض شفقة، كذلك الذي وردت قصته في البخاري وغيره، عن أمي عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)!

ورحم الله الشيخ، الذي كان حزمة أعصاب تمشي على الأرض، لم تفارقه هذه الصفة من مبتدئه لمنتهاه: يضحك ببراءة طفل، ويبكي بحرقة مفؤود، ويشتعل انفعالًا كشاب في عنفوانه، ويرمي

بشواظٍ من ألفاظ خارقة حارقة إذا حمي وانتخى، لا يبالي بأحد، ولا يفكر في العقبى، فجناب الدين عنده لا يمس، وكتاب ربه لا يهان، ورسوله حبيبه حرم ممنوع!

لقد كان إذا انفعل سخر فأوجع، وغضب فروّع، وهدر فأسمع، وناظر فأقنع! وهذا مما أفقده قرب بعض الشباب الذين أوجعتهم سهامه، من غير أن يعرفوه، وكنت أقارن بين حدته وبين تلطف القرضاوي، وسماحة صلاح أبي إسماعيل، وحياء عبد العظيم الديب، فأقول:

ليته كان أرفق، فلم أحرم منه سنيني الأولى في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

وقد تحدث عن حميته شيخي العلامة القرضاوي، والتمس له المعاذير، فقال: صحيح أنه سريع الغضب، وأنه إذا غضب هاج كالبحر حتى يغرق، وثار كالبركان حتى يحرق، وهذا ما لا يجحده الشيخ الغزالي، وما يعلمه من نفسه، وسر هذا أن الرجل يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس، ولا يحب أن يَظلم أو يُظلم، ولا أن يستخف بكرامة أحد، كما لا يستخف بكرامته أحد، كما أنه لا يطيق العوج ولا الانحراف.

كما أن الشيخ لا يفجر في خصومته، ولا يفتري على خصمه، أو يتمنى له السوء، أو يشمت به إذا نزل به بلاء.

ثم إن من صفات الشيخ الغزالي أنه إن كان سريع الغضب فهو سريع الفيء، رجاع إلى الحق إذا تبين له، ولا يبالي أن يعلن خطأه على الناس علانية، وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل.

ومن أجلى مواقفه في الاندفاع والحمية، والغيرة على دين الله تبارك وتعالى، موقفان:

أولهما: أحدهما موقف وهو طالب يناقش أستاذه، قال:

.....وجمعنا عميد الكلية في مسجد الخازندارة في حفل عام للتعارف، واستقبال العام الجديد، وتوثيق العرى بين الطلاب وهيئة التدريس، وحدث في هذا الحفل أمر ذو بال؛ فقد كان من بين من

تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق بالكلية، وجرى على لسانه ثناء حار على المجتمع الفرنسي، وتنويه بما يسوده من أمانة ونظام، وأهاب بنا أن نتمسك بهذه الخلال! وغاظني ما سمعت، فانتفضت قائمًا أصيح:

أي خلال يا أستاذ؟ هؤلاء تقدموا في اللصوصية، اللص عندنا يسرق آنية من بيت، أو حافظة من جيب، أو ثمرة من حقل، وهؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس، ويختلسون العقائد من القول!

أي خلال تعني يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين على إخواننا في أقطار المغرب؟ – وكانت كلها محتلة – ولماذا لم تذكرنا بسلفنا العظيم؟

وانطلقت بطريقة همجية اضطرب بها نظام الحفل، ثم أمسك بي بعض المشرفين، وقادوني إلى عميد الكلية الشيخ عبد المجيد اللبان، فرأى شابًّا في العشرين أفقده الحماس وعيه، فقال لي بصوت وديع: اقعد يا ولد! فجلست أمامه، وكلف شيخًا آخر بالتحدث إلى الطلاب، الذين بدا أنهم متعاطفون معي، بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف، وأنهم يؤيدون موقفي!

لم يعاقبني عميد الكلية مكتفيًا بإسداء بعض النصائح، وصرفني بعد انتهاء الحفل! والغريب أن علاقتي بالأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى توطدت، وكنت فيما بعد أثيرًا عنده، وطيلة مدة الدراسة بالكلية لم أستغن عن توجيهه وإرشاده، وبعد التخرج نمت بيننا صداقة عميقة، وتعاون في خدمة الدعوة الإسلامية! ويا للأستاذ ويا للتلميذ!

والثاني: موقفه الشهير مع حسني مبارك، والذي استفاض على الإنترنت، وأنقله هنا عن الدكتور العوا: وحكايته أن حسني مبارك التقى ببعض العلماء، ومنهم أصحاب الفضيلة الشعراوي وجاد الحق والغزالي – رحم الله ثلاثتهم – وبعد انتهاء الجميع من الكلام جاء مندوب من مكتب

الرئيس ليطلب من الشيخ الغزالي والشيخ الشعراوي والشيخ جاد الحق شيخ الأزهر البقاء، فانتظروا في غرفة أُجلسوا فيها، ودخل الرئيس مبارك عليهم، وكان المكان الخالي على أريكة في ناحية فيها الشيخ الغزالي، وجلس الرئيس في الناحية الأخرى، وبعد مجاملات معتادة قال الرئيس للشيخ الغزالي، وهو يربت على ركبته:

- ادع لي يا شيخ غزالي، أنا حملي ثقيل، أنا مطلوب مني كل يوم الصبح أوكل (أطعم) سبعين مليون!

  يقول الشيخ: لم أشعر بنفسي وهو يقول ذلك، واستعدته الكلام: انت بتجول إيه؟!

  فكرر عبارته: أنا مطلوب مني كل يوم أوكل سبعين مليون.

فوجدت نفسي أنفجر فيه: انت فاكر نفسك مين؟ إياك انت فاكر روحك ربّنا! هو انت تجدر توكل نفسك! يا شيخ اسكت! وانت لو جت دبانة على أكلك تاكله، ولا تجدر تعمل فيها حاجه!

فارتبك مبارك وتغير لون وجهه، وقال: أنا قصدي من الكلام المسؤولية اللي علي.

لم أكن قد سمعته جيدًا، فأكملت: مسؤولية إيه؟! المسؤولية على اللي يجدر، واحنا كلنا في إيد ربنا. انت بكتيره بكتيره.. تدعي وتقول: يا رب ساعدني. لكن تقول: اوكلهم؟! وكِّل نفسك!

فوضع الرجل يده على ركبتي مرة أخرى وقال: استنى يا شيخ محمد، استنى، انت يمكن مش فاهمني.

- مش مهم افهمك، المهم انت تفهمني. يا أخي (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) (أفرأيتم الماء الذي تشربون* أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون* لو نشاء جعلناه أجاجًا؛ فلولا تشكرون)!

فسكت الرجل ونظرت إلى وجهه وهو متحير، فأدركت ما فعلت، وأفقت، فنظرت إلى الشيخين

لعل أحدهما يعينني، فوجدت أكبرهما سنًّا قد أسند ذقنه على عصاه، وأغمض عينيه، ووجدت أكبرهما مقامًا قد أسند رأسه إلى مقعده، وأغمض عينيه تحت نظارته التي نصفها ملون ونصفها الآخر أبيض!

وأكمل الرئيس كلامه بما يشبه الاعتذار عما قال، والرضا بما كنت أقوله، وجامل كلًّا من الشيخين بكلمة، ثم قمنا لنخرج فأوصلنا إلى باب السيارة، فأسرع أحد الشيخين فجلس إلى جوار السائق، ودار الثاني ليركب من الباب خلف السائق، وكنت أنا أبطأهم خطوة، فمشى الرئيس إلى جواري حتى بلغنا باب السيارة، فمددت يدي لأفتحه فإذا بالرئيس يسبقني ليفتحه لي، فحاولت منعه من ذلك، وأمسكت بيده وقلت له: أرجوك يا سيادة الرئيس لا تفعل. فقال:

هذا مقامك يا شيخ محمد... أنا والله أحبك يا شيخ محمد، ادع لي.

ركبت السيارة وأغلق هو الباب، وبقي واقفًا إلى أن تحركت السيارة، فأشار إلي مودعًا، وانطلقت السيارة والشيخان صامتان، لم يتكلم أي منهما بكلمة حتى أوصلناهما؛ واحدًا بعد الآخر، ثم أوصلني السائق إلى بيتي.

وفي نفس الليلة أو صباح ثاني يوم هاتفاني؛ كل منهما على انفراد ليدعو ويقول: لقد قمت بفرض الكفاية عنا يا شيخ غزالي!

رحمه الله، ورضي عنه!

يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ

الغزالي رفيقًا

الغزالي رفيقًا:

روى الإمام مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ، يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ)! ورغم الحدة في الشيخ إذا سمع أو رأى ما لا يعجبه؛ فقد كان رفيقًا شفيقًا، لينًا!

وفي البخاري مرفوعًا: (إن الله يحب الرفق في الأمر كله)! وما أجمل ما نقله حبيب بن حجر القيسي قال: ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم!

وما أحسن ما قال أبو الفتح البستي:

كُنْ ريِّقَ البِشْرِ.. إنْ الحُرَّ هِمَّتُهُ	صَحيفَةٌ.. وعَلَيها البِشْرُ عُنْوانُ
ورافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمورِ.. فلَمْ	يندَمْ رَفيقٌ.. ولم يذمُمْهُ إنسانُ
ولا يَغُرَّنْكَ حَظٌّ جَرَّهْ خرَقٌ	فالخَرْقُ هَدمٌ ورِفقُ المَرءِ بُنْيانُ
أحسِنْ إذا كانَ إمكانٌ ومَقدِرةٌ فلن	يَدومَ على الإحسانِ إمكانُ

وأزعم أن هذا كان من خلائق الشيخ – وقت رأيته – طبيعة لا تكلفًا: وقور السمت، هادئ

المشية، واثق الخطوة، خفي البسمة، خفيض الصوت، مطمئن العبارة إذا هو حدث!

يقول شيخي القرضاوي عن ذلك: وجدته – عن كثب – إنسانًا رقيق القلب، قريب الدمعة، نقي السريرة، صافي الروح، حلو المعشر، كريم الخلق، باسم الثغر، موطأ الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطًا متواضعًا، هينًا لينًا، بعيدًا عن التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء، تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفًا إنسانيًّا، ويهتز خشوعًا وتأثرًا، إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه! يعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله يقول بصراحة لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط عليّ أحد!

وقد تجلى ذلك خلقه في الرفق في مواقف شتى:

*** يقول رحمه الله تعالى: قلت يومًا لرجل تعود السكر: ألا تتوب إلى الله؟ فنظر إلي بانكسار ودمعت عيناه، وقال: ادع الله لي!

تأملت في حال الرجل ورق له قلبي: إن بكاءه شعور بمدى تفريطه في جنب الله، وحزنه على مخالفته، ورغبته في الاصطلاح معه. إنه مؤمن يقينًا، ولكنه مبتلًى! وهو ينشد العافية، ويستعين بي على تقريبها!

قلت لنفسي: قد يكون حالي مثل هذا الرجل أو أسوأ. صحيح أنني لم أذق الخمر قط؛ فإن البيئة التي عشت فيها لا تعرفها، لكنى ربما تعاطيت من خمر الغفلة ما جعلني أذهل عن ربي تعالى كثيرًا، وأنسى حقوقه.

إنه يبكي لتقصيره، وأنا وأمثالي لا نبكى على تقصيرنا، قد نكون بأنفسنا مخدوعين! وأقبلت على الرجل، الذي يطلب مني الدعاء؛ ليترك الخمر، قلت له: تعال ندع لأنفسنا معًا: (ربنا ظلمنا أنفسنا؛ وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)!

إنني أطلب من المشتغلين بالدعوة أن يتقوا الله في الناس، وأن يتفقهوا في الدين؛ فإن من يرد الله به شرًّا يحرمه الفقه في الدين، ولو كان ثرثارًا يخطب في كل ناد!

*** وسألَ شابٌ الشّيخَ محمّد الغزالي: ما حكمُ تاركَ الصّلاة؟

فقالَ له: حكمُه أن تأخذهُ معكَ إلى المسجِدِ!

*** ويروي الدكتور عمار الطالبي - مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية الأسبق في الجزائر، أيام كان الشيخ بها – أن سكرتيرة له – تدعى فيروز – لم تكن محجبة أبدًا، عندما وصل الشيخ الغزالي إلى الجامعة الإسلامية عام 1984، وكانت كلما تراه تختفي عن ناظره!

ولاحظها المرحوم مرة وهي تختفي من طريقه، فسألها عن السبب! فردّت عليه باستحياء بأن سفورها هو الذي يجعلها تتفادى ملاقاته! فقال لها باسمًا: سيأتي اليوم الذي تتحجبين فيه!

وغادرت السيدة فيروز الجامعة إلى بيتها، وقرّرت ارتداء الحجاب، ولم تكن قد فكرت فيه من قبل؛ ما فاجأ عائلتها!

وفي اليوم الموالي، بادرها الشيخ الغزالي بالقول: ألم أقل لك أنك ستتحجبين، يوما ما؟!

*** وحضر مرة قراءة فاتحة زواج في مسجد مالك بحي المنظر الجميل، كضيف شرف، ولكنه رفض أن تُقرأ الفاتحة أمام الرجال فقط، ونصح بإحضار النساء إلى المسجد؛ مستشهدًا بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، و(منكّتًا) أيضًا بقوله: ربما التفت أحدكم يمينًا عندما يسلّم بعد الصلاة، فوجد امرأة أعجبته، فكان الزواج عدة زيجات، وهو ما أغضب بعض المتشددين، الذين اتهموه بالدعوة للاختلاط في المساجد.

*** ومن ذكرياته في الجزائر أيضًا، كما تروي معلمتي سناء البيسي: أنه في أحد المؤتمرات حاولت ثلاث فتيات سافرات بإلحاح دخول القاعة، ولكن شبابًا واقفين بالباب منعوهن بطريقة فظة!

وعندما علم الغزالي بالأمر قام غاضبًا مستندًا إلى عصاه، متجهًا للشبان الذين منعوا الفتيات قائلًا: من أدراكم أن هؤلاء لسن أقرب إلى الله منكم؟ فتراجعوا واحدًا تلو الآخر، وفسحوا الطريق أمام الفتيات، اللاتي أسرعن نحو الشيخ باكيات، فتلطف معهن، وقد طفرت دمعة من عينه!

*** وقال رحمه الله مرة: دخلت مكتبي فتاة لم يعجبني زيها أول ما رأيتها، غير أني لمحت في عينها حزنًا وحيرة يستدعيان الرفق بها، وجلست تبثني شكواها وهمومها؛ متوقعة عندي الخير!

واستمعت طويلًا، وعرفت أنها فتاة عربية تلقت تعليمها في فرنسا، لا تكاد تعرف عن الإسلام شيئًا، فشرعت أشرح حقائق، وأرد شبهات، وأجيب عن أسئلة، وأُفنِّد أكاذيب المستشرقين والمبشرين؛ حتى بلغت مرادي أو كدت! ولم يفتني في أثناء الحديث أن أصف الحضارة الحديثة بأنها تعرض المرأة لحمًا يغري العيون الجائعة، وأنها لا تعرف ما في جو الأسرة من عفاف وجمال وسكينة! واستأذنت الفتاة طالبة أن آذن لها بالعودة، فأذنت...

ودخل بعدها شاب عليه سمات التدين يقول بشدة: ما جاء بهذه الخبيثة إلى هنا؟ فأجبت: الطبيب يستقبل المرضي قبل الأصحاء، ذلك عمله! قال: طبعًا نصحتها بالحجاب!

قلت: الأمر أكبر من ذلك، هناك المهاد الذي لا بد منه، هناك الإيمان بالله واليوم الآخر والسمع والطاعة لما تنزل به الوحي في الكتاب والسنة، والأركان التي لا يوجد الإسلام إلا بها في مجالات العبادات والأخلاق.. فقاطعني قائلًا: ذلك كله لا يمنع أمرها بالحجاب!

قلت في هدوء: ما يسرني أن تجيء في ملابس راهبة، وفؤادها خالٍ من الله الواحد، وحياتها لا تعرف الركوع والسجود! إنني علمتها الأسس التي تجعلها – من تلقاء نفسها – تؤثر الاحتشام على التبرج.

حاول مقاطعتي مرة أخرى فقلت له بصرامة: أنا لا أحسن جر الإسلام من ذيله كما تفعلون، إنني أشد القواعد، وأبدأ البناء بعدئذٍ، وأبلغ ما أريد بالحكمة.

وجاءتني الفتاة بعد أسبوعين في ملابس أفضل، وكانت تغطي رأسها بخمار خفيف، واستأنفت أسئلتها. واستأنفت شروحي، ثم قلت لها: ولماذا لا تذهبين إلى أقرب مسجد لبيتكم؟ وشعرت بندم بعد هذا السؤال لأني تذكرت أن المساجد هنالك محظورة على النساء!

لكن الفتاة قالت: إنها تكره رجال الدين، وما تحب سماعهم! قلت: لماذا؟ قالت: قساة القلوب غلاظ الأكباد! إنهم يعاملوننا بصلف واحتقار!

ولا أدري لماذا تذكرت هند امرأة أبي سفيان التي نالت من الإسلام ما نالت! إنها كانت لا تعرف رسول الله، فلما عرفته واقتربت منه وآمنت به قالت له هذه الكلمات: يا رسول الله: والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب أن يذلوا من أهل خبائك! وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك!

الغزالي بسيطًا متواضعًا

الغزالي بسيطًا متواضعًا

في بدايات اتصالي المتحفظ بالشيخ قبل بضع وثلاثين سنة، لم أكن أراه إلا في محاضرة، أو لقاء رسمي، أو مع المشايخ، ولم أظن أن مجالسته سهلة، حتى ظننته مشغولًا أو منصرفًا عن مجالسة الشباب، مع ما استقر في ذهني من حدته!

وحين زرته في بيته بالدقي، كان في منطقة (نخبوية) يسكنها الموسرون والمشاهير، فتمكن ظني!

لكن رويدًا رويدًا وجدت فيه البساطة، والتواضع، وسمعته مرتين أو ثلاثًا، وقد سئل في مسألة فيقول: أنا لست بفقيه، اسألوا الشيخ يوسف القرضاوي فهو أولى مني بالفتوى!

وسمعته – مرتين أو ثلاثًا – يقول: لقد كان الشيخ يوسف فيما مضى تلميذي، وأما اليوم فأنا تلميذه)! وياللعجب!

وقرأت لمن يتحدث عن بساطته وتواضعه: يقول الدكتور وليد كساب: حدثني الدكتور عبد الحليم عويس أن الشيخ الغزالي كان في زيارة للشيخ ابن باز رحمه الله، فلما أحس الشيخ ابن باز بقدومه قام ليستقبله، ولم يكن ذلك من عادته، إذ لم يكن يقوم لأي قادم؛ ولو كان من الأمراء!

فانكبَّ الشيخ الغزالي على رأسه يُقبلها وأراد الشيخ ابن باز أن يفعل ذلك فمنعه الشيخ الغزالي! فخرج الشيخ الغزالي والدموع تترقرق في عينه ويقول: هذا رجل من أهل الجنة!

وأخبرني من أثق في دينه من بلديات الشيخ الغزالي – والكلام الدكتور وليد كساب – أن

الشيخ كان يعجن لوالدته الدقيق برًّا بها!

وجاءت مذكراته التي قدم بعضها الأستاذ محمد جلال لاشين – فعلمي أن أكثرها محجوب، لم ولن ينشر – جاءت لتعكس روحًا بسيطة متواضعة، لا تستنكف عن ضعفها، وبساطة بداياتها، وصدقها الشديد مع نفسها!

فهو – على تميزه وفورانه العقلي، وذكائه البازغ – يقول: (لم أكن بليدًا ولا نابغًا، كنت متوسط الذكاء، ضئيل الجسم، قصير القامةَ! وكان وقع العصا (في الكتّاب) على جلدي رهيبًا عندما أخطئ، وربما أكرهتني الهيبة على التلعثم، فإذا ارتفعت العصا أسرعتُ إلى استعادة وَعْيي، وتابعت القراءة، بعدما انتهوا من مرحلة الكتابة.

ولم ينكر بداياته الفقيرة، ومعاناته البكيرة: (ورأى أبي أن يقدم على مرحلة تُعَدُّ عصيبة بالنسبة له، لكنها مهمة بالنسبة لي: يجب أن يلحقني بالمعهد الأزهري المخصص في هذا العصر لمحافظة البحيرة، وكان ذلك المعهد في مدينة الإسكندرية!

وطفل في العاشرة من عمره لا يقدر أن يعيش وحده، لا بد إذن أن تنتقل الأسرة معه، فباع دكانه الذي يرتزق منه، واشترى في الإسكندرية مكتبة بحيّ كرموز كانت تبيع الأوراق والكراريس، والروايات المترجمة، والكتب المدرسية والعلمية، والقصص الشعبية، والأسفار الدينية المختلفة.

ونقل الأسرة – التي أصبحت تضم معي شخصين آخرين؛ غير من ماتوا – واستقبل مرحلة شاقة من مراحل السعي واللغوب!

لم أكن (أدرك) يومئذ مغارم هذا التحول من القرية الهادئة إلى المدينة المائجة، ويظهر أن أبي واجه أزمات وضوائق فلم ينهزم، وخفّف عنه آلام الحياة أني نجحت في امتحان القبول، الذي عقدته مشيخة معهد الإسكندرية الديني، وكان الناجحون نحو مائتي طالب، كُلّفوا بارتداء العمامة والجبَّة المقررة.

ويظهر أن منظري وأنا في هذه السن الصغيرة كان مثيرًا للضحك! ما جعلني أتنكر لهذا الزي المفروض أمدًا طويلًا)!

(وتطلعت إلى المكتبة التي نرتزق منها، وكنت منهومًا بالقراءة، فتركني أبي أقرأ، وإن كان قد لاحظ في أسف أني آبى القراءة في الكتب الدينية، وأوثر مطالعة الرِّوايات الأجنبية، وربما فضلت قراءة ألف ليلة على ما يختار لي هو من كتب!

وقد عرفت بعد ما كبرت أن هذه الكتب مليئة بالأحاديث الموضوعة والواهية والخرافات العلمية، ولكن الناس كانوا مقبلين عليها، مثل: دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، والروض الفائق في الوعظ والرقائق، وتنبيه الغافلين، وقصص الأنبياء، والخمرة الإلهية، والفتوحات المكية...إلخ.

(دخلت المرحلة الابتدائية من التعليم الأزهري مع بدايات الحادية عشرة من عمري، وكان ذلك عام 1928 للميلاد، وأشعر الآن أن العقد الأول من حياتي تضمن خيرًا كثيرًا: يكفي أني حفظت فيه القرآن، وتهيأت لدراسة يصبو إليها الكثيرون.

وكان بطل هذه المرحلة أبًا وهب ابنه لله على؛ حدِّ التعبير الشائع! وباع ما يملك ليصلني بدراسة تخدم الإسلام، وكان الأزهر يومئذ حصن الدين واللغة، بل كان موقفه من الاحتلال الإنجليزي صورة لموقفه من الاحتلال الفرنسوي، كان قذًى في عيون المستعمرين وكهفا للأحرار والمجاهدين)!

وعن النفقة الشهرية المنقذة من المعهد يقول: (وكانت الدراسة في معهدنا نصف داخلية، أُعِدَّت غرف فسيحة للنوم، ويُصرَف للطالب نحو ثلاثين قرشًا في الشهر، يستعين بها على طعامه اليومي. وقد نفعني هذا أكبر النفع، عندما اضطربت أحوال أبي الاقتصادية، وقارب الإفلاس، واضطر بعد أربع سنين أن يعود إلى القرية من حيث جاء!

وثلاثون قرشًا ليست يوم ذاك شيئًا تافهًا، فإن القرش الواحد كان يشتري عشر بيضات تساوي في عصرنا الآن مائة وخمسين قرشًا! وهذا الإنفاق كان من أوقاف المسلمين!

مرض معوِّق لتلميذ متفوق: (غير أن علّة فادحة دهمتني، سقطت بعدها طريح الفراش؛ ثلاثة شهور، وانفتحت في جسدي عدة خرّاجات قاتلة، وكنت خلال هذه الشهور في عالم آخر، واتجهت الظنون إلى أني مائت لا محالة، وترقب أهل القرية بين الحين والحين نعيي!

وعلمت بعد ما دخلت في مرحلة الشفاء أن تموين البيت كله بيع في تمريضي! وأن الأب الجلد المؤمن لم يدخر وسعًا في علاجي لأصح!

ماذا أفعل؟ نهضت من هذا المرض جلدًا على عظم، وأرسلت لأصدقائي في المعهد أن يبعثوا إلي بالكراسات التي يكتبون فيها مسائل الرياضة، وبعض الكتب المقررة، وكانوا عند حسن الظن، فأنجدوني بما يعينني على المذاكرة!

كان علي أن أستعد للامتحان في نحو عشرين علمًا، هي المقررات الرسمية للسنوات الأولى والثانية والثالثة الثانوية، وذلك وفق ما يقضي به قانون الذين يُمتحنون من منازلهم!

كان زملائي يحضرون في معمل الطبيعة والكيمياء، وكانوا يسمعون المدرس وهو يشرح الجبر والحساب والهندسة، أما أنا فكنت ممددًا على عيدان الذرة الجافة فوق سطح دارنا، أقرأ وأعاني وأستعين بالله!

إن حالتي في المعهد كانت عادية، كنت سباقًا في علوم اللغة، والأدب، فقط، أما في الفقه والتفسير وغيرهما فقد كان نفوري شديدًا من كتب نور الإيضاح، ومتن القدوري، ومجمع الأنهر على ملتقى الأبحر، التي كانت تقدم لنا الفقه الحنفي، كما كنت ضائقًا بتفسير النسفي وأبي السعود وغيرهما)!

توقيف الثورجي عن الدراسة: (لا بد مما ليس منه بد! وبعد عام من فصلي ذهبت مرة أخرى إلى المعهد متقدمًا من الخارج في امتحان صعب، وكان زملائي يرثون لحالي، ولكنهم لا يحبون أن يجرحوا كبريائي، فيسكتون مشفقين!

لا أدري كيف أديت الامتحان بهدوء! وكرهت أن أعود إلى أبي أنتظر النتيجة في جواره! وعشت في مساكن المعهد حتى تم إعلان النتيجة، وكانت المفاجأة: نجحت في هذا الامتحان الصعب، بل كنت من الأوائل في القطر كله، والأول في معهد الإسكندرية!

وأحسست داخل نفسي أن هذه ليست مهارتي، بل كانت دعوات أبي المؤمن المتوكل الصبور! واستأنفت الدراسة مع زملائي ملتحقًا بالسنة الرابعة، فلم يضع من عمري ما كان مفروضًا أن يضيع! وعندما راجعت نفسي لم أكن أشعر بأني أخطأت: لقد أديت واجبي، وانسقت مع عاطفة شريفة، إنني كنت أحارب الاستبداد، وأخدم أمتي وبلادي! بيد أن ذلك الشعور كان يصحبه شعور آخر بالألم الفادح الذي نالني، ونال أسرتي معي، وانضم إلى ذلك إدراك بأني كنت غارقًا حتمًا؛ لولا القدر الذي حنا علينا، وانتشلني من اللجَّة!

نعم لقد مرت بي لحظات استوحشت فيه من كل شيء، واستبان لي عجز الخلائق أجمعين، ولم يأخذ بيدي إلا الواحد القهار.

العزمة في ظل الأزمة: وازدادت أزمات أبي، فأخذت أدَرِّس لبعض الأطفال نظير أجر تافه، وأحتال على البقاء في المعهد بما أتكسبه من قريشات قليلة؛ حتى أحرزت الشهادة الثانوية الأخيرة.

لا أدري كيف حصلت على شهادتي العالية 1941؟ إنه لولا عون الله ما تم ذلك!

الثقة رغم الفقر الثقيل: ولم أكن متقدمًا في ترتيب الناجحين، فهل أحزنني أني لم أكن من العشرة الأوائل؟ كلا! إنني ما تأخرت عن بلادة أو تقصير، كانت الأحوال التي تكتنفني رديئة: لا أذكر أنني ملكت كتابًا طول السنوات الأربع، وأنّى لي ذلك؟

وعندما عرض علينا شرح النووي لصحيح مسلم، بنصف جنيه مقسطًا على عشرة شهور؛ هززت رأسي يأسًا، وقلت: ما معي يكفي للأطعمة والملابس! واختفيت دون أي يشعر بي أحد!

واضطرني هذا للإنصات بعمق إلى شروح الأساتذة، وكنت استحضرت من دكان أبي بعض الأوراق التي تُلف بها السلع، لأدوِّن فيها ما أرى ضرورة تدوينه.

وربما جالست بعض الزملاء الذين يملكون كتبًا لأتثبَّت من حكم، أو أستذكر ما نسيت! وكم نسيت من قضايا وحقائق!

وأورثني هذا خلالًا أصبحت طبعًا ثانيًا؛ صرت كالمكفوفين الذين يعتمدون كثيرًا على ذاكرتهم! وتعلمت الاقتصاد في الأوراق، فليس هناك مبيضة ومسودة: هي ورقة واحدة تلك التي تكتب، والتي ستقدم للمطبعة فيما بعد، وهذه الورقة لا يترك فيها فراغ، ينبغي أن تُستغل من أولها إلى آخرها! حتى بعد أن أفاء الله وبارك، بقيت هذه الخلال تغلبني!

(وهذا يفسر أن كلام الشيخ رحمه الله ككتابته، يخرج من ذهنه ناجزًا جاهزًا، لا يحتاج لتحرير! وهي خصيصة ندر من ينفرد بها من الكتاب والمفكرين في زعمي)!

الناكح الفقير: قلت: إنني تخرجت من الكلية السنة 1941، وصحيح أن أمامي تخصصًا في الدعوة والإرشاد، أقضي فيه عامين حتى أنال العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد! بيد أن شهادتي العالية تتيح لي أن أجد عملًا أرتزق منه، وكنت – على فقري – جامح الرغبة في الزواج!

الداعية الذي يحتاج إعدادًا وإعادة بناء: لقد كان عملي في مسجد محدود المساحة، لكن موقعه في قلب القاهرة، وفي سوق تزدحم بالناس سحابة النهار، وزلفًا من الليل!

والمصريون شعب له حسٌّ مرهف من الناحية الدينية! عندما يجد واعظًا جادًّا يدرس موضوعه، ويحسن شرحه، يلتف حوله، ويعمر مسجده، ومن ثم لم يمض شهر حتى كان جزء كبير من ميدان

العتبة يفرش بالحُصُر، وتنقل له الخطبة بالمكبرات!

وأدركت بعد شهر واحد أنني جاهل، وأن حصيلتي العلمية استنفذت خلال أسابيع، وأني إذا لم أجدِّد نفسي، وأقع على ينابيع ثرَّة تمدني بالمعرفة افتُضحت حتمًا!

لقد كنت مغرورًا بعدد من المحاضرات والدروس أجيده، وأتنقل به في أنحاء البلاد! أما الآن فأمامي منبر واحد يثوب الناس إليه من كل فجّ، وينبغي أن أقدم كل يوم درسًا، وكل أسبوع خطبة!

إنني في هذا المسجد عدتُ تلميذًا مرة أخرى، وكان الكتاب الديني وغير الديني أستاذي، وكان إذا حضر عميد كلية أصول الدين، في طريقه إلى مجلس الأزهر الأعلى، أحبسه لأستفيد منه حلولًا كثيرة لمشكلات علمية تعترضني! فإذا تبرم لطول ما أحبسه أقول له في جدٍّ: أنتم أعطيتموني الشهادة على جهل، فتداركوا ما فعلتم! فكان يضحك ويصبر!

في هذا المسجد، وفيما تلاه من ميادين عمل، كانت لي صفة مزدوجة، فأنا من رجال الإخوان المسلمين، وأنا من علماء الوزارة، ولم أكترث أو أشعر بحرج ما في المزج بين الصفتين: الرسمية والشعبية! وانضم إلى ذلك أني أنتسب إلى تخصص الدعوة والإرشاد، فضمَمْت صفة ثالثة، صفة طالب يستطيع القيادة لزملائه!

يحسبه الجاهل غنيًّا من التعفف: ومع تسلمي للعمل الحكومي تم زواجي، وكان الأستاذ حسن البنا تدخّل في المسألة التي بدأت معقدة، فإن والد الفتاة التي اخترتها كان يطمع في زوج أغنى مني! إنه من قريتنا، وإن كان موظفًا بوزارة العدل في القاهرة، وعلم أن مرتبي ستة جنيهات، أعطي أبي نصفها تقريبًا!

لكن الأستاذ المرشد أقنع الرجل بأني أفضل من غيري، والمستقبل بيد الله، وسيكون خيرًا!

وتزوجت، وسألني الأستاذ المرشد: ماذا فعلت مع فلان – يعني صهري – فقلت له: دخلت

بابنته! قال عاتبًا: لمَ لم تدعني؟ وتمثل بقول الشاعر، وهو يبتسم:

وإذا تكون كريهة أُدْعَى لها   وإذا يحاس الحيس يدعى جندب!

فقلت: لم تكن هناك وليمة! اكتفينا بأشربة حلوة، تناولها بعض الزملاء، وأوسع لي الرجل غرفة في بيته،والحمد لله! فدعا لنا بالبركة!

ويعترف الوفي: لقد عشت مع زوجتي ثلاثين سنة كأسعد زوجين في الدنيا، وكافأتها على رضاها بفقري، فأسكنتها الغرف، وأذقتها الترف، وجعلتها تدوس الحرير والذهب! وأنجبت منها تسعًا من الولد، استودعت ربي اثنين، وبقي لي سبع من الإناث والذكور، ثم فارقَت الدنيا على غير انتظار، فبكيتها من أعماقي، وتمثلت بما قيل:

أما والذي أبكى وأضحك.. والذي	أمات وأحيا.. والذي أمره الأمر!
لقد تركتني أحسد الطير أن أرى	أليفين منها لا يروعهما الذُّعر!

رحمها الله أوسع رحمة، ورفع درجتها في عليين! فلأترك هذه الزفرة التي غلبتني، ولأعدل إلى شرح الشباب، وأيام السير الحثيث، والكدح الدؤوب!

وجع الابن البار: وبينما أنا أعمل في مسجدي بالعتبة الخضراء، والمركز العام للإخوان بالحلمية إذ تلقيت برقية تستدعيني إلى قريتي!

كنت أعلم أن أبي متعب، ولم يخطر ببالي أن حالته سيئة، ودخلت القرية متوجِّسًا أتصفح الوجوه وأتعجل الأخبار، حتى وقع بصري على دكاننا من بعيد، فرأيت أخًا لي يقف به، فأدركت أن أبي مريض، واتجهت توًّا إلى الدار!

وجدت أمي تبكي، وأبي طريح الفراش إلى جوارها، تناولت يده وقبَّلتها بحنان، فنظر إلي واستراح لمرآي! ورأيت علبًا وقوارير فعرفت أن الطبيب حضر، وكتب هذه العقاقير، ويظهر أنها لم تحقق نفعًا يُذكر!

وجئت بالطبيب مرة أخرى لأن هيئته أقلقتني، ولما حضر الرجل لم يحاول أن يخدعني، وفهمت أن هناك عدة أمراض بالمسالك البولية، يعجزه التغلب عليها، ويوشك مع تضخّم البروستاتا أن يحتبس البول، وحالة الجسم لا تتحمل الجراحة!

وتناوبنا بالسهر على تمريضه، وتحت ضغط أمي طلبنا الطبيب ليعالج التدهور المستمر! واعتذر الرجل عن الحضور؛ إنه يائس!

ونمت بعد الظهيرة نومًا طويلًا لأني سهرت أمس، وجلست إلى جوار أبي، وقررت أن أصلي جنبه، وبعد العشاء أخذت أرقبه!

كانت ليلة ليلاء. هدأ كل من في البيت بعد أن غلبه الإعياء، وبقيت يقظان، قال لي بصوت خافت: إنني أموت! وخرست فلم أنطق! كان المصباح المضاء بالبترول مثبتًا في الجدار، فشعرت كأن ذبالته ارتعشت، قلت في نفسي: أدَخلَ ملك الموت، فخفق جناحه خفقة اضطرب لها المصباح؟ وأصخت إلى أبي فسمعته يدعو لي... ثم سكت السكوت الأخير!

في الصباح كان الرجال يحملون الجثة، ورأيت أمي متعلقة بأقدام الميت الراحل تقبلها، وتدفن وجهها في باطن الأقدام، وهي في شبه غيبوبة! خلّصت الجثة منها بصعوبة!

إنني أنا الآخر أريد من أعماق قلبي أن أنفجر بالبكاء، ولكني لا أقدر، يجب أن أتماسك، فقد أصبحت كبير هذه الأسرة، إذا انهرتُ انهاروا، يجب أن أتشبّه بأبي الذي كان يتظاهر بأن أزمة الأمور كلها في يده؛ وهو لا يملك شيئًا إلا الثقة في الله!

ما أعظم الأواصر التي تشدّ الأسرة المسلمة، قلت لوالدتي وأخوتي وأنا أسافر إلى القاهرة لأستأنف عملي: لم يمت أبي، سأرعى الجميع بفضل الله، حتى يتم الذكور تعليمهم، وتتزوج من لم تتزوج من البنات. وحقق الله برحماته كل حرف قلته!

يخطب أمام الملك في جبة مستعارة: يقول الشيخ رحمه الله: هذه طرفة حدثت لي أول عهدي بالإمامة مطلع الأربعينيات من القرن الماضي: كان مدير المساجد في وزارة الأوقاف المصرية حسن الظن بي منذ أن شارك في اختباري، فاستدعاني إلى مكتبه، وكلفني بالاستعداد لصلاة الجمعة بالملك فاروق، وأمرني بإعداد الخطبة المناسبة، وأفهمني أن ذلك في افتتاح مسجد بحي «المنيل» بالقاهرة.

وفي يوم الخميس كنت بوزارة الأوقاف، وأخذ الرجل الخطبة وراجعها، وذهب بها إلى قصر عابدين فأقرت، واتصل بي من القصر تلفونيًّا يطلب مني الاستعداد لإلقاء الخطبة غدًا. ثم قال: وللحيطة تعال إلي في البيت نذهب إلى المسجد معًا. وفي الصباح كنت عنده جالسًا في حجرة الاستقبال، أنتظر دخوله بعدما فتح الخادم لي.

ودخل المدير ونظر إلي فكاد يصعق، وأخذ يُجمجم بكلمات لم أتبيَّنها، وهو يتميَّز من الغيظ:

يا أستاذ: تجيء للصلاة بجلالة الملك في هذه الجبة البالية، وهذا الجلباب الرخيص؟

وشعرت بحرج بالغ، وتملكني الخجل، ثم غلبتني طبيعتي الضاحكة فقلت: الجبة حسنة، أما الجلباب فأنا ألبس ما ترتديه الشيوخ من نسيج برّاق لمّاع! ثم لا تنس أني ألقاك بهذه الثياب، وأنت والملك سواء!

فقال: الرسميات يا... وأخذ الرجل يفكر بسرعة ليخرج من هذه الورطة، وأرسل إلى مفتش مساجد قريب في مثل جسمي، واستعار منه ملابس أخرى فاخرة، وأكرهني على ارتدائها، وكانت أطول مني قليلًا، فعلمني كيف أحافظ على سمتي داخلها!

وانتهت الصلاة بخير، وكان شديد القلق إلى أن انصرف صاحب الجلالة، فاقتادني إلى البيت وهو يسُبّ الظروف التي عرفته بي! ويحمد الله أن تم الأمر بستر! وأنا أواجه هذا كله بالضحك، وأقول: أما من وسيلة للهرب بهذه الملابس؟

ومع هذه الحادثة الطريفة فإن الصداقة ربطت بيني وبين المدير، وكنت أعاونه في بعض القضايا العلمية حتى مات رحمه الله!

المشايخ والسذاجة السياسية:.....وتذكرت جدالًا دار في المركز العام للإخوان المسلمين، يوم كنت عضوًا في الجماعة، فقد كان معروضًا علينا أن نوافق على إلغاء دستور 1923، ورأى الأستاذ عبد القادر عودة – وكان رئيس الجلسة – أن هناك تردُّدًا، وسمع من يقول له: كيف سنُحكَم في غيبة الدستور؟ فقال رحمه الله متعجبًا: كيف سنحكَم؟ ثم ارتسمت على فهم ابتسامة عريضة:

إنكم أنتم الذين ستحكمون! أنتم أيها الإخوان!

إنني والأستاذ عبد القادر صديقان متحابان، ولا أدري أينا أكبر سذاجة من الآخر؟ كلانا مشهور بأنه لا يصلح في ميدان السياسة!

الرجل الوحيد الذي قاوم القرار ورفضه، هو الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال – الذي فُصل معي– في حركة إبعادنا عن الجماعة! كان أبعدنا نظرًا!

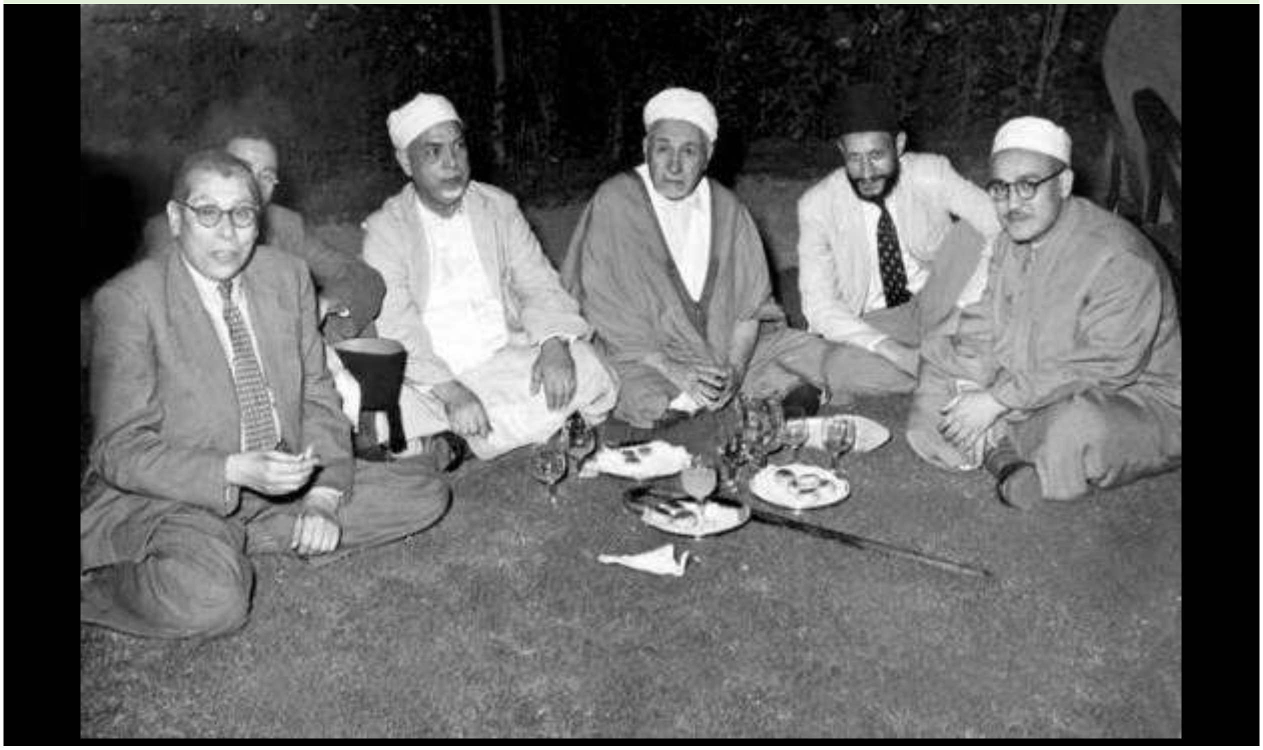

الغزالي محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

الغزالي محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

لك يا رسول الله صدق محبة	وبفيضها شهد اللسان وعبرا
لك يا رسول الله صدق محبة	فاقت محبة من على وجه الثرى
لك يا رسول الله صدق محبة	لا تنتهي أبدًا.. ولن تتغيرا

في الصحيحين عن سيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وهذا يعني أن حبه بأبي هو وأمي فريضة، ونجاة، وطبيعة في نفس كل مسلم سوي، عرفه صلى الله عليه وسلم، وأدرك فضله، وعظمته، وعرف قدره صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة!

وأحسب الشيخ رجلًا محبًّا من طراز فذ، يحب حبًّا بصيرًا، واعيًا، نقيًّا، يصل لحد الشغف!

فكما كان رحمه الله تعالى فذًّا، وعلامة فارقة في الدعوة إلى الله تعالى في النصف الثاني من القرن العشرين، ومنهجه، ورؤيته، وحميته، كان فذًّا في حبه، وعاطفته، أحسبه كذلك، ولا أزكيه، ولا أزكي على الله تعالى إلا من زكاه! وكان ذا حب جم لسيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحبه بعاطفة موارة جياشة، حتى إنه يبكي، وينشج في بعض المواقف، تأثرًا! وإنك لتلمس حبه هذا في دروسه وأحاديثه، وفي كتاباته عنه بأبي هو وأمي! وهو الذي كتب كتابه في فقه السيرة أوائل الخمسينيات في الروضة الشريفة، حيث اختلط مداده الصادق بدمعه الدافق، ليجيء حافلًا بالمشاعر، والصدق، والحب الجهير!

وكتب نواف القيسي في الذكرى الـ21 لرحيله: الشيخ «الغزالي» فارس حمى دينه لآخر أنفاسه

http: //thenewkhalij.org/node/61511

المقربون من الشيخ كانوا يعرفون أنه كان دائم البكاء في وقت الأذان، وكان رحمه الله يقول إذا جاء المؤذن إلى الشهادة، وهو لا يستطيع أن يمسك دموعه، رغم كبر سنه:

أشهد أن محمدًا رسول الله، العالم كُلُّهُ يحارب هذا الرجل، صلى الله عليه وسلم!

ويقول د. وليد كساب (في ذكرى الشيخ الغزالي) شاء الله تعالى أن أتقابل مع مجموعة من السيدات من أساتذة الجامعات الجزائرية؛ فبادرتهن بالسؤال إن كُنَّ يعرفن الشيخ الغزالي أم لا!

لم تلبث إحداهن حتى انفجرت في بكاء مرير؛ فأحسست بحرج شديد، ولم أكن أدري ما سبب بكائها؛ حتى استجمعت قواها ثانية، وقصت عليَّ طرفًا من حياة الرجل، فقد كان يدرسها التفسير الموضوعي، وغيره من المساقات الدراسية! تقول: كنا كلما قرأنا عليه القرآن بكى فأبكى الجميع! وإذا ذُكر الرسول صلى الله عليه وسلم اقشعر، وبكى حتى يبكي مَن حوله!

وإنك لواجد على الشبكة العنكبوتية تسجيلات عدة له، وهو يبكي؛ شوقًا لسيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وارتجافًا من خشية الله تعالى، وتحسرًا على حال المسلمين، وتمنيًا للشهادة في سبيل الله، ولن يعسر عليك إيجادها قارئي الكريم!

لكنه مع الحب القلبي المتين – كما أشرت – يحب نبيه العظيم الحب العقلاني الرزين: فلا يغلو، ولا يوثِّن، ولا يقلل، ولا يسيء، ويكشف عن خبيء السيرة، ويلمس أوتارًا عاطفية تشعرك كم أحب سيدنا المصطفى، وتلمس ذلك أكثر، حين تنثال دموعه جهرة، لا يخبئها، إذا ذُكر اسمه صلى الله عليه وسلم، أو عرض لموقف من مواقفه الرفيعة!

وقد أكرمني الله تعالى فضبطت كتابه (فقه السيرة) بعد أن شاء عز وجل أن أعيش زمنًا غير قصير مع كتب السيرة، ومدارسها المتنوعة، ما بين الكتابة الأثرية الساردة، والنصوصية الفاحصة المخرِّجة، والمدرسية السطحية القافزة، والعقلانية الناجمة عن رد الفعل، والاستشراقية المتجنية،

واليسارية الكذابة الهاجمة، والصوفية الغالية، والشعبية الموثِّنة، وغيرها من أشكال تناول السيرة الشريفة!

ثم قرأت كتاب الشيخ رحمه الله تعالى، فوجدته وسطًا، جامعًا لمدارس كثيرة بين دفتيه:

- فهو نصوصي أثري، بتخريج الشيخ الألباني رحمه الله تعالى لأحاديثه .
- وهو تأريخي يسرد أحداث السيرة على نحو تقليدي في ترتيبه وعناوينه .
- وهو عقلاني في تأتيه وقراءته للأحداث.
- ثم هو حافل بعاطفة الشيخ الدفاقة، ولغته الثرة، ومفرداته المشحونة اعتدادًا بالإسلام، وإجلالًا وشوقًا ومحبة لنبيه عليه الصلاة والسلام.
- وهو لطيف الحجم، غير مثقل بالحشو، والحواشي، والاستطرادات.
- وهو محقق لما أراده الشيخ رحمه الله تعالى من كتابته للسيرة المشرفة، حين يقول:

(وقد بذلت وسعي في إعطاء القارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس؛ دون افتعال أو احتيال)!

(وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئًا ينمي الإيمان، ويزكي الخلق، ويلهب الكفاح، ويغري باعتناق الحق والوفاء له، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله)!

(ثم إنني أكتب وأمام عيني مناظر قاتمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري؛ فلا عجب إذا قصصت وقائع السيرة، بأسلوب يومئ – من قرب أو من بعد – إلى حاضرنا المؤسف، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة، وسلامة الفكر، وجلال العمل، كي أعالج هذا التأخر المثير)! وهو الذي قال أيضًا في كتابه هذا:

إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده، أو تابع عن سيده، أو تلميذ عن أستاذه، ولست مؤرّخًا محايدًا، مبتوت الصلة بمن يكتب عنه.

إن المسلم الذي لا يعيش الرسول صلى الله عليه وسلم في ضميره، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره، لا يغني عنه –أبدًا– أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة.

ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس قصة تتلى في ميلاده، ولا التنويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد تُضمّ إلى ألفاظ الأذان، ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له، أو صياغة نعوت مستغربة، يتلوها العاشقون، ويتأوّهون، أو لا يتأوهون!

إن حياة محمد صلى الله عليه وسلم ليست – بالنسبة للمسلم – مسلاة شخص فارغ، أو دراسة ناقد محايد؛ كلا كلا: إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها، فأيّ حيف في عرض هذه السيرة، وأي خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه.

إن هذا الكتاب ليس صلة محدثة برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، ولا جملة من الدلائل على صدقه، ولا لمحات تكشّفت للمؤلف عن عبقريته وسناء دعوته؛ فإن ذلك قد استفاض به الكلام في مواضع أخرى. ولكني توفّرت على إخراج هذا الكتاب، وأمامي غاية معينة، أرجو أن أكون بُلّغتها.

ولعل الله تعالى استجاب دعاءه: (اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، أو وفاة في بلد حبيبك) ليوافيه الأجل مناظرًا عن الإسلام مناضلًا؛ ثم ليدفن في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قريبًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، في بقيع الجنة، رحمه الله تعالى.

الغزالي ظريفًا!

الغزالي ظريفًا!

وفي مقابل الحدة، والغضب الذي يعتريه – لله تعالى – كان الشيخ لطيفًا ظريفًا يرسل (النكتة) عفو الخاطر، يضحك بها، ويُضحك من معه!

ومواقفه كثيرة، أظن من الصواب أن أذكر بعضها، ولا أستنكف، هدمًا للصورة التي يرسمها الإعلام الرديء للإسلاميين (الكشرين العبوسين المتجهمين) في مقابل القساوسة (المبشرين)!

أليس هذا اسمهم حتى في كتبنا؟ المبشرين!؟

ولقد كتبت كتابًا من سنين، عنوانه: (مشايخ ظرفاء) سقت فيه أطرافًا من سرعة بديهة سادتي العلماء، وحسن تخلصهم، ولطف مجالسهم! وما لهم لا يكونون كذلك وهم الدعاة للرحمن الودود الرحيم تبارك وتعالى!؟

وهذه لطائف سمعت بعضها، وجمعت بعضًا من مواقع شتى، خصوصًا عن مقالة للأخ الشيخ عصام تليمة:

- من طرائفه المبكرة ما حكاه في مذكراته: (.... وقد أبحت لنفسي، وأنا في مصر، أن أدخل فيما يسمَّى الاتحاد الاشتراكي، وقررت عن طريقه أن أحاول خدمة الإسلام ونشر الدعوة!

لقد كان أستاذي حسن البنا يقول: أنا لا أخاف العمل مع الشيطان، فلنسِر معًا، وسنرى من يفرّ من صاحبه! إنني سأدخل هذه الهيئة، وسأرى هل سأنتصر بالإسلام أم لا؟

وكان معي شيخ حَسنُ الدين، كثير الدعابة، نتعاون معًا على صنع النكتة، إذا حَزَبنا أمر، أو أردنا التنفيس عن متاعبنا، قال لي يومًا: أجز هذا البيت:

إذا بلغ الرضيع لنا فطامًا *** *** يروح إلى اتحاد الشرك فينا!

فقلت:

فيهتف للزعيم هتاف عبدٍ *** *** يخاف السجن أو يخشى المنونا!

واستغرقنا في الضحك، ماذا نصنع؟ إن الفكاهة تريح الأعصاب أحيانًا!

- ومن أعجبها – وسامحوني، والعهدة على من رواها لي – أنه لاحظ أن أهل الخليج يقلبون الجيم أحيانًا ياءً، فيقول دياية، بدل دجاجة، أو: أنا ياي لك، بدلًا من: جاي لك، فقال مباشرة: يعني لو بيعَزوا حد في ميتم، يجولوا: عظَّم الله إيه؟ 😂 دي تبجى فضيحة!
- ذات زيارة لقطر، سمع أن الشيخ عبد التواب هيكل رحمهما الله – وكان صديقه – فزاره، ولما رآه قال باسمًا: ما دام المرض بيخليك حلو كدا فخليك مريض!
- حين سعى أحد هؤلاء إلى توريط الشيخ بالسؤال: هل الغناء حلال أم حرام؟ أجابه الشيخ بسرعة بديهة: عاوز تغني على خيبة إيه؟
- وكتب يومًا عن أن المسلمين في الدولة العثمانية كانوا يقرؤون صحيح البخاري عند الأسطول؛ استنصارًا على أعدائهم، فكان تعليق الشيخ: السفن تدور بالبخار، لا بالبخاري!
- وكان في محاضرة في إحدى الجامعات، فقام أحد الشباب، وأخذ يستخدم السواك يمينًا ويسارًا، ما تسبب في تشتيت الشيخ الغزالي أثناء إلقاء المحاضرة، فقال له:

يا بني: لو كففت عن ذلك؛ فلقد شوشت علي وأنت تجلس أمامي!

فرد الشاب: إنها سنة النبي، أتنكر عليَّ السنة؟!

فصمت الشيخ رحمه الله للحظات وقال: ونتف الإبط من السنة! أستنتف إبطك وأنت في المجلس!؟

- وقال ذات مرة: وددتُ لو أعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف (إلجام العوام عن علم الكلام) فألّفت كتابًا عنوانه: (إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفكر ومشكل الآثار) لأمنعهم عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم!
- وافتتح مسجدًا مع عبد الناصر مكتوب عليه: مسجد قاهر التتار بطل القومية العربية السلطان قطز! فقال: طب قطز دخله إيه في القومية العربية؟! ثم روى:

كنت أفطر على مائدة دبلوماسية في قطر، وقلت: كثَّر خير الأكراد، أهو جالنا صلاح الدين الكردي وحرر فلسطين، فانتفض سفير العراق، وقال: إيه؟ هو عربي مش كردي!

فاندهش الشيخ وقال: من قال ذلك؟! بل هو كردي، ولا يضيره!

ثم ضحك قائلًا: صاحب البيت قال: ما تعمليش مشكلة.. خليه كردي، خليه عربي.. خليه من قريش.. خليه هاشمي يا أخي؛ خلينا ناكل!

قلت: هانعمل مشكلة دبلوماسية على إيه؛ الأكل أهم!

- ويروي الدكتور زكريا مطر – وكان لصيقًا به رحمه الله، وكان زوجته كثيرًا ما تعد الطعام للشيخ أثناء وجوده في الجزائر، فكانت له (لازمة) إذا لقيه:

فين الطعمية يا زكريا؟ فين الطعمية يا زكريا؟ ويضحك!

- وروى لي الدكتور محمد الصغير: أن أحدهم أهداه مسبحة قيمة غالية الثمن – وهو الذي لا يستخدم المسابح، بل يفيد أن يستخدم مسابحه الربانية المستنطقات – ورأتها حفيدة لها فراقتها، فوهبها إياها!

وقابله الرجل بعدها، فسأله: لم لا تستخدم المسبحة التي أهديتك إياها، فرد الشيخ:

انت أهديتني السبحة عشان أسبح عليها، واللا عشان تذلني بيها!؟

- يروي من لا أعرف اسمه: حضرت له محاضرة في دار الثقافة في تيزي وزو/ الجزائر، وكان موضوعها تعدد الزوجات في الإسلام!

وسألته طالبة جامعية متحررة جدًّا: لماذا لا يباح للزوجة تعدد الأزواج، فأجابها بطريقة علمية أثرت في الحضور تأثيرًا جمًّا: إذ تناول زجاجة كانت أمامه وقسمها على 4 أكواب، وسألها من أين هذا الماء؟ فقالت هو الذي كان في الزجاجة!

ثم أفرغ الأكواب في الزجاجة، وقال لها: أين الماء الذي كان في الكوب الأول؟!

فبهتت، وسكتت عاجزة عن الكلام، وفهمت المعنى، واقتنعت دون أن يظهر لا انتفاخ أوداج، ولا ارتعاش يدين!

- ويروي د. وليد كساب عن الراحل أ.د عبد الحليم عويس أنه كان مسافرًا مع الشيخ الغزالي – رحمهما الله – على متن طائرة، فتيمم الشيخ الغزالي استعدادًا للصلاة، فقال له الدكتور عويس: لكنِّي لا أرى هناك ترابًا للتيمم؛ فضحك الشيخ الغزالي وقال: يا عبد الحليم: وهو ربنا قال غبروا وشكم يا بني؟! إنما هو تيمم رمزي، لا يستدعي أن نبحث عن التراب في الطائرة!
- ويروي د. عمر عبد الكافي أن الشيخ كان يصلي ذات يوم، محركًا أصبعه في التشهد، ففوجئ بشاب بجواره يمسك أصبعه لئلا يحركه، فاجتهد أن يحركه فلم يقدر!

  فلما انتهى من صلاته سأل الشاب: ما الذي فعلته!

- ألا تدري أن تحريك الإصبع في الصلاة مكروه؟!

فقال الشيخ: وهل كسر الإصبع فرض؟!

- وكان يلقي في كلية الطب البيطري محاضرة، فقال إن القرآن جعل الدواب قسمين: الدواب العجماء، ودواب البشر من الصم البكم الذين لا يعقلون، فلو وجدت رجلًا له عقل لا يفكر

به، أو عين لا يبصر بها: هل أوديه للطب البيطري أو الطب البشري، وضحك!

وعلى إخوانّا دول (البيطريين) أن يفتحوا عياداتهم لنصف السكان في العالم! لأن العالم مليء بهؤلاء!

- ويحكي في كتابه (عقيدة المسلم) عن شخص أزعجه فيقول:

سألني سائل: هل الإنسان مُسَيَّرٌ أم مُخَيَّرٌ؟ فنظرت إليه في ضيق شديد، وقررت أن ألتوي معه في الإجابة، كما التوى هو مع فطرته في هذا التساؤل، وقلت له: الإنسان نوعان: نوع يعيش في الشرق، ونوع يعيش في الغرب، والأول مُسَيَّرٌ والآخر مُخَيَّرٌ!

ففغر الرجل فاه عن ابتسامة، هي بالضبط نصف تثاؤب الكسالى والعجزة والثرثارين الذين ينتشرون في بلادنا. ثم قال: ما هذا الكلام؟ إنني أسألك: هل للإنسان إرادة حُرة، وقدرة مستقلة يفعل بهما ما يفعل، ويترك ما يترك، أم هو مجبور!

فقلت له: قد أجبتك، الإنسان في الغرب مستقل، وفي الشرق مستعمر. هناك له إرادة وقدرة، وهنا لا شيء له!

فضحك أحد الظرفاء وقال: هذه إجابة سياسية. فقلت: وإنها لدينية كذلك! يا رجل: إن القوم في الغرب شعروا بأن لهم عقولًا ففكروا بها، حتى كشفوا المساتير من بدائع الكون! وشعروا بأن لهم إرادة فصمموا بها، حتى التقت في أيديهم مصاير الأمم، وأزمة السياسات! وشعروا بأن لهم قدرة، فجابوا المشارق والمغارب، وصنعوا الروائع والعجائب. أما نحن فهذا رجل من ألوف الألوف التي تزحم البلاد يأتي ليستفتي في هذه المعضلة التي غاب عنه حلها:

- أله حقًّا عقل حر يستطيع أن يفكر به؟
- أله إرادة يستطيع أن يعزم بها؟
- أله قوة يستطيع أن يتحرك بها؟

وإلى أن نثبت له نحن ذلك! سوف يبدأ فيفكر، ثم يعزم، ثم يعمل. أما الآن فهو – فعلًا – مسيرٌ من ذلك الرجل المخير في الغرب.

ما أبعد البون بين الشخصين: الرجل في الغرب أُلقي به في تيار الحياة، فعلم أن له أعضاء يستطيع أن يعوم بها، فظل يسبح مع التيار تارة، وضده تارة أخرى، حتى وصل الشاطئ!

أما هنا، فلما ألقي بالرجل في معترك الأمواج، بدأ يسائل نفسه: هل أنا حيٌّ حقًّا، أم أنا جثة هامدة؟ أو بتعبير المتفيهقين: هل أنا حر أم أعضائي مقيدة؟

- هناك نكتة أعجبتني جدًّا عن إخواننا المتدينين المتشددين، تقول: رؤي أحد المتدينين المتشددين وفي يده قفاز ملاكمة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أسوي به الصفوف!
- ويقول: جاءني رجل من إخواننا المتشددين في الدين، فرأى مجموعة من العصي المعلقة داخل بهو بيتي، فقال: ما هذه العصي؟ فقلت له: هذه هي (وسائل الإيضاح) أخذتها من بعض إخواننا، وهم يعلمون بها الناس الإسلام!
- قلت لأحد الناس: تعرف فلانًا؟ فإن لي صديقًا يحب الاتصال به، ولعله يريد أن يصاهره، أو يشاركه في تجارة كبيرة!

قال: أعرفه معرفة حسنة، إنه متوسط العمر، قصير القامة، أسمر الملامح! قلت: ثم ماذا؟

قال: له رباط عنق جميل! وحذاؤه لامع! وعندما يتحرك...

فأسرعت أنا بإكمال الوصف، فقلت في سخرية: عندما يتحرك يكون مرح الأعطاف، حلو اللفتات! 😂

قال: ما تعني بهذا الهزء؟

قلت: السخرية منك! أهذا وصف لإنسان؟ إنك تشبه بعض المتحدثين عن الإسلام في هذا

العصر الأنكد! إنهم يعرفون الناس به فلا يزيدونهم إلا جهلًا، وربما صدوهم عنه: يجعلونه كائنًا، محلوق الشارب، مكشر الأنياب، مكحول العينين، كميش الثياب.. إلخ!

- ولقيه شاب فقال: يا شيخ: لقد ركبني عفريت، فماذا أفعل؟

فنظر إليه الشيخ الغزالي، وكان السائل طويلًا، فقال له الشيخ الغزالي بلهجة عامية ساخرة: أليس عارًا أن تكون شحطًا طويلًا ويركبك عفريت، ولماذا لم تركبه أنت؟ ولماذا لا تستضعف العفاريت والشياطين من الجن غير المسلمين!؟ إننا نرى غير المسلمين أكثر معصية لله، وأبعد عن طاعته، ومع ذلك لا تركبهم العفاريت!

- وكان يحاضر في محاضرة فاستشهد برأي للإمام محمد عبده، فقال له أحد الطلبة معترضًا: محمد عبده ليس إمامًا، ولا ينبغي أن نطلق عليه لفظ إمام!

فقال الشيخ: محمد عبده مش إمام، يبقى مأموم إذن!

ثم قال له: يا بني: في الوقت الذي كان أجدادك يتبركون بالشجر والحجر، كان الإمام محمد عبده يكتب (رسالة التوحيد).

- وقف شاب يناقش الغزالي قائلًا: إن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم في النار، واستشهد بالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: (إن أبي وأباك في النار).

وظل الشيخ الغزالي يقنع الشاب برأيه فلم يقتنع، فقال له: ولكني قرأت حديثًا آخر يعارض هذا الحديث. فقال الشاب: ما هو؟

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)!

فقال الشاب: إنها آية وليست حديثًا؟

فقال الشيخ: أعرف؛ ولكني جعلتها حديثًا؛ لأنكم لا تهتمون إلا بالأحاديث!

- حدث أن أعلنت وزارة الأوقاف المصرية عن طلبها لأئمة لمساجدها، وأعلنت عن مسابقة يجري فيها امتحان للمتقدمين لشغل هذه الوظائف، وكان من بين المتقدمين شاب تخرج من الأزهر، ويبدو أنه كان ممن نجحوا دون استحقاق، فقد كان ضعيفًا في مستواه العلمي بصورة فاضحة وفجة، فسأله الشيخ الغزالي رحمه الله: هل تحفظ القرآن الكريم؟

– نعم، ولكني نسيته!

– ألا تذكر منه شيئًا؟! قال: لا.

– فهل تحفظ شيئًا من السنة النبوية؟ قال: نعم.

– قل لي حديثًا مما تحفظ؟

– يقول صلى الله عليه وسلم: اصبروا تَنُولوا!

فنظر إليه الغزالي نظرة كلها سخرية، وظاهرها الثناء على الشاب، ثم قال له: الحديث ناقص، وليس بهذه الرواية، ونصه الصحيح: اصبروا تنولوا، واهتفوا وقولوا: مصر للسودان، والسودان لمصر!

- حضر ذات مرة اجتماعا إداريًّا في إحدى الجامعات العربية، ليؤسسوا قسمًا للبنات، فأخذ مجلس إدارة الجامعة يناقش شروط الأستاذ الذي سيدرس البنات، وكان معظم الحاضرين ممن يميلون إلى التحوط والتشدد في قضية لقاء المرأة بالرجل، حتى وإن كان معلمًا، فجلسوا يطرحون الوسيلة الفعالة لتجنب أن يواجه المعلم البنات الدارسات!

فاقترح أحدهم: أن يكون المعلم في غرفة والطالبات في غرفة أخرى، لكن رُد عليه بأنه من الممكن أن تخرج البنات من الغرفة المخصصة لهن، ولا يدري أحد بذلك، فيظل المعلم يتكلم، دون أن يسمعه أحد.

واقترح آخر بأن توضع ستارة سميكة أمام المعلم، فلا يراهن ولا يرينه، ولكنه يشعر بحركتهن فرد عليه بأن هذا الأمر – تربويًّا وعلميًّا – لا يناسب الجو العلمي المنشود.

واقترح ثالث أن يصحب المعلم عند ذهابه للمحاضرة زوجه معه للحضور، ويواجه بذلك البنات! فرُدَّ عليه: بأنه ربما كان المعلم مسنًّا وزوجه قد ماتت، أو يكون متزوجًا ولكن زوجه في بلده التي قدم منها، أو مريضة.

وجلس الشيخ الغزالي يستمع لكل هذه الاقتراحات وهو يتميز من الغيظ، ثم أشار بيده، وقال: عندي اقتراح يمنع هذه الفتنة تمامًا، ويريح رؤوسكم، ويقضي على كل شبهة لديكم، وهو حل ناجع لا مثيل له! أرى أن نأتي بالمعلم الذي سيدرس للبنات، ثم نقوم له بعملية (إخصاء)، حتى تموت الشهوة والفتنة، وبذلك نستريح وتستريحون جميعًا!

- سئل عن شباب مسلمين يمشون حفاة إلى المسجد، قائلين: إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يمشون إلى المسجد، منتعلين أحيانًا، وحفاة أحيانًا، فأحببنا أن نحيي سنتهم، ونقتدي بهم!

فقال للسائل: ربما استطعت الإجابة عن أشياء يفكر الناس فيها بأدمغتهم! أما من يفكرون بأرجلهم فلا أستطيع الإجابة عنه!

- كان يقول بأن صوت المرأة – بضوابطه الشرعية المعروفة – ليس عورة، وناقش بعض من يتشدد في هذه القضية، مستشهدًا على الجواز والسعة بامتحان المؤمنات المهاجرات، الوارد في سورة الممتحنة في قوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا: إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن؛ الله أعلم بإيمانهن) ثم قال: أظن سيقول لي المتشددون: إن الامتحان هنا امتحان تحريري وليس شفهيًّا!

ومع انتقاده بقسوة أحيانًا كانت فيه سماحة تجعله لا يفجر في الخصومة، ولا يتمادى كما قال شيخي القرضاوي حفظه الله!

ومن ذلك أنه زار الشيخ ابن باز مرة لمناقشة بعض المسائل العلمية – وبين مدرستيهما في النظر والفتوى والوجهة فوارق جلية – فلما أحس الشيخ ابن باز بقدومه قام ليستقبله – ولم يكن ذلك

من عادته؛ إذ لم يكن يقوم لأي قادم ولو كان من الأمراء – فانكبَّ الشيخ الغزالي على رأسه يُقبلها، وأراد الشيخ ابن باز أن يفعل ذلك فمنعه الشيخ الغزالي!

وخرج الشيخ الغزالي، والدموع تترقرق في عينه ويقول: هذا رجل من أهل الجنة!

ومن ذلك ما رواه لي الأستاذ يوسف البنعلي ابن الشيخ العالم الجليل أحمد بن حجر – وهو عالم سلفي جلد، والغزالي مختلف عنه موردًا ومصدرًا – وكان رحمه الله تعالى في أخريات أيامه لا يكاد ينطق، وحدث أن جاءه أحد الناس يخبره بموت الشيخ الغزالي – عليهما رحمة الله – فذرفت عيناه تأثرًا وحزنًا، رغم أنهما كثيرًا ما كانا يتلاسنان إذا التقيا في مجلس الشيخ، ويشتد بينهما الخلاف، حتى تظن أن الغزالي سيخرج ولن يعود، وعند الانصراف كان ابن حجر يقول:

لا تنسوا، العشا بعد بكرة. فيقول الشيخ الغزالي:

ودي حاجة تتنسي برضه؟ طبعًا هانيجي!

ويروي القارئ الشيخ أحمد الرزيقي قال: أثناء اختباري كقارئ بلجنة اختبار القراء بالإذاعة، التي كان الشيخ الغزالي رحمه الله أحد أعضائها، طلب مني فضيلته أن أقرأ سورة التغابن تجويدًا، فقلت لفضيلته: لم أعود نفسي على تجويدها، ولكنني أجيد أداءها ترتيلًا.

فأصر عليّ أن أجودها، ولكنني كنت أكثر إصرارًا، فقال له زميله باللجنة المرحوم الدكتور عبد الله ماضي: يا شيخ محمد: الشيخ أحمد الرزيقي صادق، وهذه تحسب له؛ فأود أن تجعله يقرأها مرتلًا!

وكان الشيخ محمد الغزالي سمحًا ما دام الأمر لا يؤثر على أحكام الدين والقرآن، فقال لي: رتلها يا شيخ أحمد، فرتلت سورة التغابن، وسعد الشيخ الغزالي بالأداء شكرني، وأثنى على أدائي المحكم.

الغزالي شاعرًا

الغزالي شاعرًا:

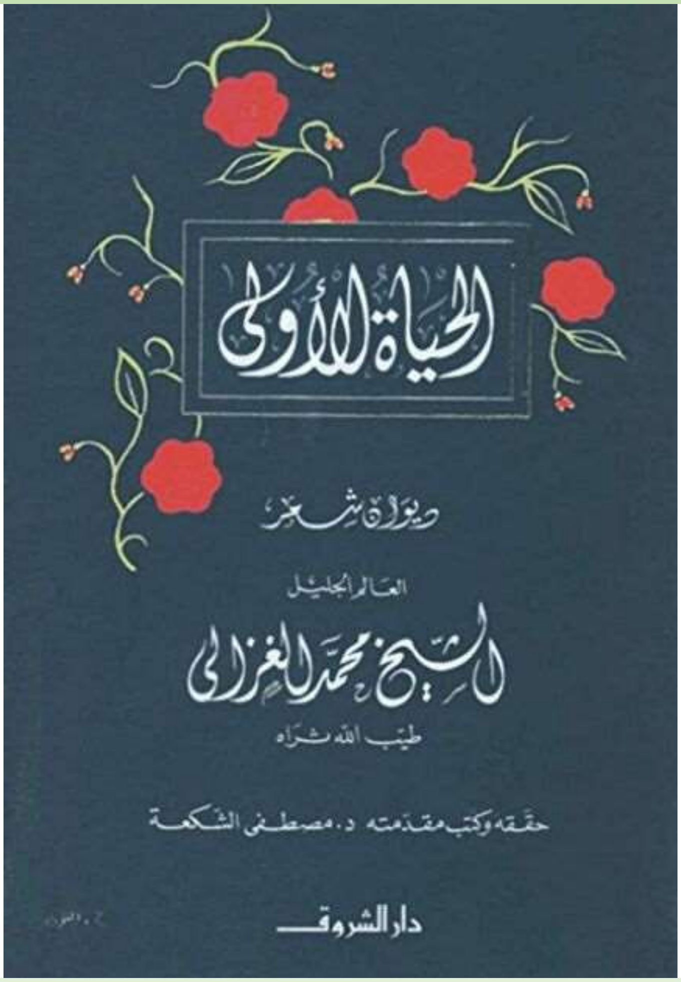

ثم إن مثل الغزالي ذي النفس الشفيفة رحمه الله لا بد أن يكون شاعرًا: يَطرب للشعر، ويكثر من الاستشهاد به، ويرسله تناهيد روحٍ، وأغاريد قلب، فهذه النفس المشبوبة عاطفة، والروح المضطرمة إباء، والدمعة القريبة مسيلًا، وهذا البلاغة الذائبة عذوبة، لا تكون إلا في كيان شاعر راقي الطبيعة، سليقي الروح، وهذا ما كان عليه الشيخ رحمه الله تعالى!

لقد أصدر ديوانه الأول – والوحيد فيما أعلم – وهو ابن ثمان عشرة سنة، حين كان يدرس في معهد الإسكندرية الديني (1936م - 1354هـ) لكنه – كعادة المدل بلغته، والمعني بالجزالة – ملأه ألفاظًا جزلة، وكلمات قد تحوج الرجل العادي لمعجم؛ كي يتفهم ما وراء الألفاظ.

وقصائده في جملتها قضايا عامة، تهم الدين والأمة: لم يتغزل فيها بفتاة، ولم يتكلم في موضوع مما يطرحه الشباب في مثل سنه، ولم يتكلم في أمور مألوفة نمطية؛ مما يتكلم فيه الشاعر الإسلامي عادة، بل دارت حول محاور ثلاثة – كما قال دكتور جابر قميحة رحمهما الله تعالى – وهي: قصائد الطرح أو الدفق الروحي والأخلاقيات، وقصائد الطبيعة، وقصائد الوطنية أحداثًا وشخصيات.

وفي عناوين كثير من قصائده عرامة وقوة إيحاء؛ بعيدًا عن المباشرة والتصريح، مثل: الزمن

السَّحور/ سرى وثرى/ نور الحقيقة/ صمت الريف الهامد/ الموت الضال في مرض الطفولة/ سقطت ولما تنضج/ النور الغريق/ الشروق في القبور/ابن الظلمات، وغيرها!

وكانت قصائده غضبى ترسل رجومًا وحميمًا، في كثير من الأحيان، وإنك لواجد فيها شخصيته – ابن ثمان عشرة وابن سبعين على السواء – في مثل أبياته هذه:

دعوت للثورة الكبرى تؤج دمًا	يأبى الحديد.. ويأبى النار شطآنا
دعوت للثورة الكبرى إلى غرض	ينفي السّكون إذا ما سيم إذعانا
سكتُّ محتسب الصيحات في غضب	لما رأيتكم ُللذل أخدانا

ويستنهض الشرق المستنيم الذي التذ الرقاد؛ بلغته المشتعلة التي استصحبها طوال عمره:

أيها الشرق أنت جد غريب	عن جلال عفي.. وأمس عظيم
تنكر العين أي أنقاض سوء	قد تبقت من البناء الفخيم
أيها الشرق: قد غفوت طويلًا	وتماديت؛ غافل التهويم
ارتضتك السماء مهبط وحي	حقب الطهر في ديار النعيم
يا حفيد العتيق من كل مجد	أين في الأين مجدُ أكرمِ خِيم؟!
ضجت الأرض من حضارة سوء	قد غلا شرها.. وغربٍ أثيم
أين من ذاك للفضيلة شرق	لا كدنيا الآلات صرعى جحيم؟!
أيها الشرق: هل أراك عزيزًا	في انتصار على الألد الخصيم!؟

وينحي باللوم على الكائن السلبي (ابن الظلمات، الذي يكره السياسة) لائمًا مثرِّبًا:

قلتَ لي: لستَ سياسيًّا أرى	ولجاج القوم عندي مزدَرى
كلما صاحوا به من مطلب	ليس يأتيهم فغضَّ النظرا
هكذا تنطق.. لم تشعر بما	في جمال السعي أو جهد السُّرى

ليست الأوطان في شوق إلى	أنفسٍ أعلى مراميها الثّرى
أيها المغلَق روحًا وحِجًى	يا أخا الثورة.. يا أغبى الورى
قلتَ لي: استقلال مصر لا يجي	ولو ان العبءَ غير انجلترا
ما لهذا اليأس يغزو قلب مَن	لم يكافح مرة.. مستنصرا
إنه الجبن.. وعتْه أنفسٌ	قد أحبَّ المرء أن يُستصغرا
اغترب عنَّا إلى حيث انتهت	قدمُ الذل.. وتمزيق العُرا
إن مهْدَ النور يأبى أبدًا	نسبة للنذل أن يتحررا
يا بنى الظلمات لستُ مصدقًا	أن مصرًا أنجبت محتقرا
زمَر الغازين ألقت سوأها	في الحمى المذلول حتى استمصرا
بذرة الأخلاط هلا عرفت	شكر إنعام الذي لن يُشكرا!؟

ويستاء من منظر أُسود كوبري الخديوي إسماعيل (كوبري قصر النيل حاليًّا) ويراها أسودًا داجنة، منزوعة الأظافر، فلا زئير ولا قوة ولا مهابة، فيقول:

أيُّ عارٍ يا قوم؛ بل أي ذلَّة؟!	حين يمسي الدخيل جبَّار صولة
أي عار يحني الرؤوس خضوعًا	ويعيد النفوس نكدًا مضلة؟!
ربضت تحدج العدوَّ بحقدٍ	وتذيب البغضاء في شر حُلة
أم نماها إلى الهزيمة بأسٌ	فاستلانت أجلادُها مضمحلة!؟
الزئير الرهيب أين صداه؟!	والسلاح المهيب بالرغم ثلَّة؟
كذبونا يا شرَّ ما ساء مصرًا	هي بالعبء وحده مستقلة
أشِعارُ القوَى الجليلةِ يبقى	تحت صرح الإذلال حتى يُظلَّهْ!؟
حطِّموه.. أو حطموها؛ فإن لم	تستطيعوا لقيتم السَّخْرَ كلَّهْ

ويرسل تحية لعرابي البطل، في كلمات قوية ثائرة كطبيعته فيقول:

حيتك من نفسي عواطفُ ثائر	لا يستكين لسطوة من جائرِ
ويثيرها نارًا يهول وقودها	فيبيد.. أو تلقاه أوْبة ظافر
حيتك من نفسي عواطف مخلصٍ	لا مأرب يلهيه.. شأن الفاجر
للمجد ما يبغي.. يُكلل أمَّة	للنصر ما يسعى قليل الناصرِ
في حب مصر وفي سبيل خلودها	في حب مصر طليقةً من آسرِ
نَفَرت من الوادي الجموع تقودها	في وجه عاتٍ.. ذي شكيمة قادرِ
حيتك نفسى.. بل تحية أمة	تحبوك تمجيد الجريء الماهرِ
إن فاتك النصر الجميل فإنها	كبوات جد.. في طريق واعرِ
إن فاتك النجح العزيز فإننا	نسعى نحطم.. رغم جدّ عاثرِ
في ثورة كبرى سنسعرها لظًى	يفنى أتون لهيبها المتطايرِ
قدِّست مهزومًا تعفّر في الثرى	قدست مقهورًا كسير الناظرِ
قدِّست يوم بكيت؛ إذ سقط الحمى	لا نصر يرجى.. لا دفاع مغامرِ
نفثات ملتاع الفؤاد تميزًا	وأنين مكلوم الكرامةِ.. حائرِ
ومرارة الذكرى الأليمة قد طغى	طوفانها.. يجتثُّ ضعف الخائرِ
غدر من الغرب اللئيم سما به	وإلى الحضيض هوى به في غائرِ
لكأنما جَيَشَانُ صدرك حينما	غيبت في لجج العباب الغامرِ
أمواجها تهتزُّ صاخبة.. وفي	طغيانها معنى أنين الزافرِ
في الأسر يرسف في قيود مهانة	خير النفوس نهًى وطيب ضمائرِ
في الأسر ما أعْيا.. وقد حاطت به	ظُلَمُ الغد الداجي.. وظلم الحاضرِ
حيتك أرواحٌ تكافح لا تني	دأب الحريص على الجهاد الذاكرِ
أبدًا هو العمل الحثيث أأثمرت	أغراسُه أم تلك رُجعى الخاسرِ!؟

وفي قصيدته: ذكرى ضرب الإسكندرية، يقول:

ذكرى تمر وملء النفس أشجانُ	فتحرج الصدر غمًّا فهو كظانُ
وتمر عابرة بالذهن في عجل	تستاق مجفوّة.. والقلب غضبانُ
إني أشيح فلا أسطيع تذكرة	للحق منتهَكًا يقصيه عدوانُ
ورب طالب ثأر لا يطيق.. ولا	يرضي ادكار مصابٍ وهو حزانُ
ذل يكبلني من هوله كمد	فيهرب الفكر.. لا ينجيه سلوانُ
دهى الكنانة ما قد راع عزمتها	هوى بها في حضيض الذل طغيانُ
وصار كل خؤون غادر عضدًا	للمعتدي النذل ينزو.. وهو جذلانُ
مصر العزيزة أدناها.. وصفّدها	في محكم الأسر غدّار وخوّانُ
كم كافحت شِرة العادي قساورة	جادوا بأنفسهم والحرب نيرانُ
وبئست الحرب فيها الرجس منتصر	والحق مندحر يعلوه خذلانُ
ذكرى تظل تثير الحقد مضطرمًا	وتُوغر الصدر لا يلهيه نسيانُ
الثأر يا فتية الوادي؛ فما بسوى	نصر عزيز تُزيل العار أوطانُ
يا مصر ما شمسك الحسناء مسفرة	ولا نباتك حالي العود.. ريانُ
حتى يزول قتام لا يزال قذًى	وتمحي من قيود الأسر أرسانُ

وفي قصيدته: (أمة مسروقة تحت عين الشمس) يقول:

وداعًا حياة الخفض. لا كنتِ. إننا	أبينا خضوعًا.. وانتهينا إلى الإبا
فإما يئسنا من حياة كريمة	فلسنا الألى يخشون موتًا مغلَّبا
إلى الموت لا نبغي سواه تنكّبًا	إلى الموت محتوم الفناء معذبا
سويعات هذا العمر ماذا؟ أتنقضي	أويقات ذل، أم تُقضَّى مآربا!؟

إلى الموت؛ ما في النفس شوق لمطلب	فليست حياة الذل ترضي التطلُّبا
أبى القدر القاضي لمصر رغادة	وشاء لها مُرَّ الكفاح.. وخيبا
ألا فليكن ما شاءه القدر الذي	تخيرنا للسعي والمجد والظُّبا
إلى الموت أو نلقى حياة كريمة	فنُنعى نحب العيش ذقناه طيِّبا

وقصيدته عن الجيش المصري الذي لم يكن يملك قراره، بل كان يديره عدوه وسارق حريته؛ بضباطه الألعوبة، وقوته الأكذوبة، وإرادته المسلوبة، فقال:

سرحوه إنها مهزلة	أضحكتْ سخريةً قلبَ الحزينْ
أي جيش قاده قاهرُهُ	وعلته وجمات المستكينْ
أي جيش كان للضعف ولِلَّهْ	و فما عن قدرة الجدِّ يبينْ
تُخذت أجناده في زينةٍ	تنشر الذلة في الوادي المهينْ
جيش مصر حارس الضعف إذا	ثارت النخوة بالمستضعفينْ
أترى ضباطه ألعوبةً	في يدِ الغصب.. وكيدِ الغاصبينْ
لا سلاحٌ فيه معنى بأسه	أو سلاح من دعامات اليقينْ
فكأنه؛ عاطلًا من جده	جدٌّ مستخذٍ لهون المرهقينْ
كفلولٍ مُزِّقت فاستسلمت	من سذاجات جيوش الأولينْ

والعجب أنه بعد هذا الديوان لم يفكر في الاستمرار في كتابة الشعر، وشغلته الدعوة وآصارها عنه؛ شأن كثير من الشعراء الذي توقفوا، أو قل عطاؤهم الشعري، أو تأثر جودة وجزالة، كسيدنا الشافعي، وسيدنا القرضاوي وغيرهما، رضي الله عنهم أجمعين.

الغزالي أديب الدعوة

الغزالي أديب الدعوة

إنني والله ليضيق صدري عجبًا حين أجد من يختزل الشيخ رحمه الله في وصف (أديب الدعوة)! هذا الوصف القديم، الذي وصف به، وهو في مطالع شبابه، قبل أن تنضج ثماره، وتستفيض آثاره، ويتألق عطاؤه، ويتفرد منهجه!

أديب الدعوة فقط؟ اللهم إني أشهدك أن هذا من الحيف، والتقصير، وغمط الحق، كما لو وصفت بحرًا لجبًا بأن فيه بعض السمك!

فالشيخ رحمه الله تعالى شخصية تحتاج الكثير من الدرس والتأمل؛ إذ كان خلطة من عدة رؤى ومدارس:

- كان أزهريًّا لكن لا كالأزاهرة التقليديين، الجامدين، الذين لم يقرؤوا غير ما حُفظوا، ولم يفهموا غير ما لُقنوا، ولم ينظروا حولهم مستبصرين متأملين! حتى ظنه القرضاوي في بداياته من غير الأزهريين: يقول شيخي في مذكراته:

وعن طريق هذه المجلة (الإخوان المسلمون) ومقالاتها تعرفت على عدد من دعاة الإخوان، الذين صار لهم شأن فيما بعد، أولهم الشيخ محمد الغزالي، الذي سماه بعضهم (أديب الدعوة الإسلامية) والذي كانت مقالاته قطعًا من الأدب الإسلامي النابض بالحياة، الذي يشف ويصفو كأنه البلور، ويتوقد غيرة وثورة كأنه التنور. ولقد انعقدت بيني وبينه مودة عميقة، وإن لم أره.

والعجيب أني لم أكن أحسب محمد الغزالي من مشايخ الأزهر؛ فقد قرأت لعلماء الأزهر في

مجلة (الإسلام) وغيرها، فكانت موضوعاتهم غير موضوعاته، وأسلوبهم غير أسلوبه، وروحهم غير روحه. ولم أعرف أنه أزهري حتى وقع مرة على إحدى مقالاته: محمد الغزالي الواعظ. وحسبت كلمة (الواعظ) هذه لقبًا لعائلته، فقالوا لي: إنه شيخ أزهري معمم معروف!

- وكان إخوانيًّا مختلفًا عن الإخوان وغيرهم، شَموسًا فردًا، عاش فكر نفسه، ورأي نفسه، وعاطفة نفسه! معطيًا ذلك كله لدينه وهويته!
- وكان مفكرًا إسلاميًّا ذا خصوصية، وتميزٍ في قراءاته للأمور واستنباطاته!
- وكان عقلانيًّا يقرأ النص؛ غير مسلّم بقراءة غيره، ويلمح من عطاياه ما لم يلمح غيره! ذا قدرة عجيبة على قراءة الواقع، وإدراك النتائج، واستشراف المستقبل، بشكل سبق به سواه وزمنه!
- وكان ليبراليًّا يتبنى مقولات لم يعتدها الإسلاميون؛ ككلامه عن الحريات، والديمقراطية، والمرأة، والعدالة الاجتماعية؛ لكن بمنظوره القاصد، ودليله الشاهد، وفكره الرائد!
- وكان لغويًّا أديبًا، يحسن صوغ العبارة، وسبكها في أردية أنيقة، وتعابير عميقة؛ حتى إنه ليطربك مسموعًا ومقروءًا، ويدهشك في الحالين بلاغة وتأنقًا، وهذه خصيصة قلما انفرد بها داعية!
- وكان بكّاء عاطفيًّا، سريع الدمعة، ظاهر الحرقة، مشتعلًا دومًا على الأمة والملة، رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام والسيرة خير ما يجزي به محبًّا لنبيه صلى الله عليه وسلم.
- وكان طريفًا ظريفًا لا يستنكف أن يسخر، ويضحك، ويرسل الطرفة عفو الخاطر، فتثير الضحكة، والتأمل، والإدراك!
- وكان يحتد ويغضب لله، تستفزه البلاهة والاستباحة، فإذا واجهه أبله أو مستبيح، فهذا – عنده – تائه ظالم لنفسه، وذاك متبجح متوقح مجازف بنفسه!

لذا فمن الغبن والحيف أن يحصره أحدهم في كونه أديب الدعوة؛ فإن براعته اللغوية طرف لمجموعة مواهب متشابكة متكاملة، كلها أبدع وأروع وأنفع من أختها!

وفي هذا المعنى قال الدكتور محمد عمارة: (هكذا تحدث الشيخ الغزالي):

(لم يكن الشيخ الغزالي مجرد عقل مجتهد ومجدد، ولا مجرد داعية حامل لهموم الأمة، ومرابط بفروسية على ثغور الإسلام على امتداد خمسين عامًا، ترك لنا فيها قرابة ستين كتابًا، وذلك غير المقالات والخطب والمحاضرات والحوارات، التي ستبقى ديوانًا للجهاد الفكري في سبيل النهضة والاستنارة والتقدم والتجديد، وجامعة الفكر الإسلامي تتربى فيها الأجيال.

لم يكن الشيخ الغزالي كل هذا فقط، وإنما كان – مع ذلك – قلبًا نورانيًّا عاش في سناه عارفوه، الذين أسعدهم الله بالاقتراب منه، والأنس بهذا النور الذي كان يفيض من هذا القلب الكبير)!

ويقول أحمد عيساوي في الوعي الإسلامي (العدد: 489)

(...جمع خصال وصفات العلماء العاملين، فهو: الأفغاني إذا خطب، وهو محمد عبده إذا حلل وناظر، وهو رشيد رضا إذا فسر، وهو حسن البنا إذا علّم وأرشد، وهو ابن باديس إذا كتب ودقق، وهو العربي التبسي إذا صال وجأر وانفعل، وهو النورسي إذا قنت وتصّوف، وهو الأمير عبد القادر إذا فرى، وهو، وهو.. وهو أولًا وآخرًا: الشيخ محمد الغزالي المتميز بشخصيته الفريدة)!

وهو عندي أحد فصحاء القرن العشرين الذين بهرتني سليقتهم، وأسرتني فصاحتهم، وأدهشتني أحاديثهم المشبعة بالعاطفة، المشحونة بالمعاني، كثيفة الظلال والدلالات، وكنت – ولا أزال – أظنه في الفصحاء الذين يكتبون كما يتكلمون؛ دون تعمُّل أو تزويق – وقليل ما هم – فإنك كَثُرما تجد في الناس المعرب، وقلّما تجد البليغ المطرب!

إن من الناس من يحفظ قواعد النحو، ولا يلحن إذا تكلم عليه البديه، ومع هذا – أيضًا – لا تجد في حديثه الطلاوة والحلاوة! لكنك ربما سمعت لأحد، يشدك من أذنك وعقلك حين يفوه؛ لموهبة خصه الله بها، من جزالة العبارة، وحلاوة الصورة، وبلاغة السوْق، حتى إنك لتحس بنشوة

تطير بك إلى أعلى، كما ورد في البداية والنهاية عن أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد ابن كيسان، الذي هدر أمام الخليفة المهدي بقصيدته التي مطلعها:

ألا ما لسيدتي ما لها!؟ أدلَّت فأحمل إدلاها!

وجاء فيها:

أتته الخلافة منقادة	إليه تجررُ أذيالها
فلم تك تصلح إلا له	ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره	لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب	لما قبل الله أعمالها

فقال بشار – وهو من هو – للشعراء الحاضرين معه في المجلس عند المهدي: انظروا؛ أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟

كذلكم كان الغزالي رحمه الله تعالى إذا هو تكلم، أو حاضر، أو خطب: يأخذ بمجامع النفوس، ويستولي على القلوب، دون كد ذهن، أو تكلف سجع، أو استنساخ من أحد! فلغته من كِيسه، وعباراته من تراثه، وعاطفته التي يغلف بها كلامه من ذوب قلبه، ورحيق صدق نفسه، رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته!

وكم كنت أقول دون تردد: إنه أحد بضعة نفر أطربوني، ومنحوني تلذذًا وذوقًا خاصًّا للغة، وهم الأستاذ الفرد سيد قطب، والأستاذ العظيم علي الطنطاوي، والأستاذ الرافعي، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والشيخ محمد الصادق عرجون، والأستاذة الصحفية المتفننة، التي لا يعرفها جل الإسلاميين: سناء البيسي، التي كتبت عن الشيخ مقالة ولا أروع، ملأتها كلامًا ولا أمتع! رضي الله عن أساتذتي وشيوخي ورحمهم أجمعين!

وأؤكد هنا، وأرجو ألا أكون غاليًا فيه: لقد أوتي الشيخ عليه رحمات الله ورضوانه لغة خاصة؛ قلما حظي بها غيره من المشايخ – وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء – فهو أديب من طبقة عالية – ولست كما أشرت آنفًا ممن يهزهم غير المطبوعين المطربين – ومحب يصل إلى درجة من الحب غريبة: فهو عقلاني متصرف، وعاشق متصوف، ومسلم غيور!

وهو رحمه الله يقلّبني بمنهجه في الحديث كيف يشاء: يجعلني أعجب، وأطرب، وأزهو وأسمو، وأذهب وراءه حيث يأخذني: أعجب من حسن استنباطاته، وجميل تأويلاته، وأطرب من لغةٍ ترفع القلب وتخفضه، وتقويه وترققه، ويجعلني أزهو بديني، وبحبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، وكوني له تابعًا، وراجيًا أن يشفعه الله تعالى فيّ وفي الشيخ رحمه الله، ووراءه أذهب حيث ينتقل في السيرة بسلاسة معجبة، واستيعاب محكم وأنيق!

فنثره در، وسرده جذب، وبيانه ولّاد خصب، رحمه الله ورضي عنه!

الغزالي داعية إلى الله تعالى

الغزالي داعية إلى الله تعالى

أما الدعوة فهو جزء من التكاليف الرئيسة التي خلقنا من أجلها: العبادة: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات:56، والبلاغ: (إن عليك إلا البلاغ) الشورى:48، وعمارة الأرض: (واستعمركم فيها) هود:61!

وأما الداعية فهو أحسن الناس قولًا: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فصلت:33!

وعند مسلم وأصحاب السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه؛ لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا)!

وفي صحيح سنن الترمذي وغيره عن سيدي أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا: (إنَّ اللَّهَ وملائِكتَهُ، وأَهلَ السَّمواتِ والأرضِ؛ حتَّى النَّملةَ في جُحرِها، وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ)! فاللهم لا تحرمنا فضلك!

والشيخ رحمه الله تعالى: دعا إلى ربه عز وجل على المنابر، وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، وفي التعليم، وفي تربية الأشياع والمحبين، وبالكتابة، والمناظرة، والمحاورة، والمواجهة!

وهو في هذا كله أمة، ونسيج وحده، راح حاملًا مخزونًا ضخمًا من علمه وعطائه معه! وإنني:

- ✓ أزعم أن هذا الرجل رحمه الله ولد حرًّا أبيًّا، كما ولد مفكرًا فردًا، وداعية موفقًا، يفكر بنفسه لنفسه ثم للأمة كلها، وللبشرية من بعد!
- ✓ وأزعم أن دعوته أخلاقية بدرجة ملحوظة؛ تصدر عن قناعة، وعن حب للقيم والمثل، وحمية لها،

وتطبيق، ولو دفع لها ثمنًا من أمنه، وحريته، وقُوته، وعمله! وهذه في رأيي ميزة، ما يلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم!

- ✓ وأزعم أنه داعية لم يبال قط أن يقال أحسن أو أساء، وأنه كان مستعدًا أن يدفع رقبته ثمنًا لرأيه الذي لم يخرج منه اعتباطًا، ولا اندفاعًا، وتسرعًا!
- ✓ وأزعم أنه تفرد في سبقه، ورؤاه، وسبق كثيرًا من العلماء؛ ربما بقرن من الزمان! دون نبو، ولا شذوذ، ولا انحراف عن الطريق، ولا تركيز كبير على الفروعيات التي تجلب الفرقة، وتوسع الشقة!
- ✓ وأزعم أنه لم يسلم عقله قط لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كان دومًا (يفلتر) أو يصفي كل ما يدخل ذهنه ثم ما يخرج من فيه وقلمه، بيقظة عجيبة يكاد يتفرد بها!
- ✓ وهو في دعوته واضح المعالم، بارز الصوى، تستطيع دون كبير إعمال ذهن أن تلحظ امتياحه من معين الكتاب والسنة والتراث بغزارة ووعي، مع معرفة بالواقع، واقتدار على ربط هذا بهذا، وقراءة السنن، واستشراف للمستقبل، وقدرة على طرح الجديد الذي لم يسبقه إليه غيره!

وهو الذي يقول عن منهجه: قد أعطي نفسي الحق في مخالفة أي فكر ديني سابق أو لاحق، ولكني لا أعطيها أبدًا حق الشذوذ، أو الخروج على الإجماع.

إنني أوثر السير مع الجماعة الكبرى، وأحب وحدة الصف والهدف، وأرى أن الفرقة هزيمة وعذاب وشؤم، وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سببًا في تنافر الأفئدة، وأوصي أن نتشبث بمعاقد الدين وعراه الوثقى! إن رب العالمين يغتفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر؛ فهلا تعلمنا من ذلك تجاوز الهنات إذا احترمت الأمهات؟

بعد تخرجه عُيّن إمامًا وخطيبًا، بمسجد عزبان بالعتبة، وبدأ تكوين نفسه بناء علميًّا، يناسب حاله بعد الوظيفة، وحاجة الدعوة والجمهور المدعوين، فأخذ يقرأ في علوم الدين، ومعارف الدنيا،

في الكتب القديمة والكتب الحديثة، في مصادر الشرق وما ترجم عن الغرب، حتى أمكنه أن يرضى عن نفسه، وأن يجد عندها ما يستطيع أن يمنحه لغيره. فالشهادة ليست هي نهاية العلم، بل مفتاحه، والداعية يجب أن يظل قارئًا ما عاش! يقول عن دعوته:

الدعوة إلى الله لا يصلح لها بداهة أي شخص! إن الداعية المسلم في عصرنا هذا يجب أن يكون ذا ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية والإنسانية، بمعنى أن يكون عارفًا للكتاب والسنة والفقه الإسلامي، والحضارة الإسلامية. وفي الوقت نفسه يجب أن يكون ملمًّا بالتاريخ الإنساني، وعلوم الكون والحياة، والثقافات الإنسانية المعاصرة التي تتصل بشتى المذاهب والفلسفات.

ويجب على من يدعو إلى الله أن يتجرد لرسالته التي يؤديها فتكون شغله الشاغل. وعليه أن يعامل الناس بقلب مفتوح فلا يكون أنانيًّا ولا حاقدًا، ولا تحركه النزوات العابرة، ولا ينحصر داخل تفكيره الخاص، فهو يخاطب الآخرين وينبغي أن يلتمس الأعذار للمخطئين، وألا يتربص بهم بل يأخذ بأيديهم إذا تعثروا.

ويحتاج الداعية المسلم في هذا العصر إلى بصر بأساليب أعداء الإسلام؛ على اختلاف منازعهم، سواء كانوا ملحدين ينكرون الألوهية، أو كتابيين ينكرون الإسلام.

وقد لاحظت أن هناك أصنافًا من الناس في ميدان الدعوة تسيء إلى الإسلام أشد الإساءة:

- ✓ منهم الذي يشتغل بالتحريم المستمر؛ فلا تسمع منه إلا أن الدين يرفض كذا وكذا! دون أن يكلف نفسه أي عناء لتقديم البديل الذي يحتاج إليه الناس! وكأن مهمته اعتراض السائرين في الطريق ليقفوا مكانهم، دون أن يوجههم إلى طريق آخر أرشد وأصوب.
- ✓ وهناك دعاة يعيشون في الماضي البعيد، وكأن الإسلام دين تاريخي، وليس حاضرًا ومستقبلًا. والغريب أنك قد تراه يتحامل على المعتزلة والجهمية مثلًا، وهو محق في ذلك، ولكنه ينسى أن الخصومات التي تواجه الإسلام قد تغيرت، وحملت حقائق وعناوين أخرى.

✓ وهناك دعاة آخرون لا يفرقون بين الشكل والموضوع، أو بين الأصل والفرع، أو بين الجزء والكل؛ فهم يستميتون في الإنكار بأي شكل من الأشكال ويبددون قواهم كلها في محاربة هذا الشكل، أما الموضوع فهم لا يدرون ماذا يصنعون إزاءه، ولهؤلاء عقلية لا تتماسك فيها صور الأشياء بنسب مضبوطة، ولذلك قد يهجمون شرقًا على عدو موهوم، ويتركون غربًا عدوًّا ظاهرًا، بل ربما حاربوا في غير عدو!

وهؤلاء وأولئك عبء على الدعوة الإسلامية يجب إصلاحهم، كما يجب إصلاح الذين يدخلون ميدان الدعوة بنية العمل لأنفسهم لا لمبادئهم؛ فإن العمل الذي يستهدف القيم الإسلامية غير العمل الذي يدور حول المآرب الشخصية.

وكم حاور، وواجه، وعادى، وصادم: يقول رحمه الله:

طرق بابي شاب وكان في عينيه بريق يدل على الذكاء، والحماس معًا! قال: قرأت بعض كتبك، ورأيت أن أستكمل معرفتك؛ من أسئلة أوجهها إليك!

- قلت له: حسبك سؤال واحد؛ فلدي ما يشغلني!
- قال: ما رأيك في الفوقية بالنسبة لله تعالى؟

ومع تعودي لقاء شباب كثير من هذا الصنف إلا أن السؤال فاجأني! تريثت قليلًا قليلًا ثم شرعت أتكلم: لا أدري كيف أجيبك؟ أنا مع أهل الإسلام كلهم؛ أسبح باسم ربي الأعلى! وبين الحين والحين يطوف بي من إجلال وإعظامه ما أظنني به واحدًا من الذين قيل فيهم: (يخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون) النمل: 50!

تسألني عن هذه الفوقية؟ لا أدري! أنا مع العقلاء الذين يقولون: السماء فوقنا، والأرض تحتنا، ثم إني بعد ما اتسعت مداركي العلمية عرفت أن الأرض التي أسكنها كرة دائرة طائرة، وأنها – مع أخوات لها – يتسقن في نظام مع أمهن الشمس، التي تجري – هي الأخرى – مع لدات لها في مجرة

معروفة الأبعاد والمدار.

وقد أحصى علماء الفلك مجرات كثيرة عامرة بالشموس مثل مجرتنا، وحسبوا بعد مطالعات ومتابعات أنهم عرفوا حدود الكون! ثم كشفت لهم المراصد على مسافة ملايين الملايين من السنين الضوئية أن هناك مجرات أخرى أسطع ضوءًا، وأشد تألقًا! فعرفوا أن الكون أرحب مما يظنون! ولم يَهُلني أمر هذه الكشوف، وإنما زاد إعظامي لربي، الذي بنى فأوسع، وذرأ فأبدع! إنه يهب لهذه الأكوان كلها وجودها وبقاءها؛ لحظة بعد أخرى!

وأذكر أني رأيت مرة أسرابًا من النمل، تحف بقطعة من الحلوى، وتسلم فتاتها لأسراب أخرى، رأيت ألوفًا تأخذ من ألوف، فاتجهت إلى السماء وأنا أقول: وثم ألوف مؤلفة من النجوم الثابتة والكواكب الدوارة! إن الدقة التي تحكم حياة النمل في جحوره هي هي التي تحكم الشموس في داراتها: رؤية تامة هنا وهناك: (له غيب السموات والأرض، أبصر به وأسمع، ما لهم من دونه من ولي؛ ولا يشرك في حكمه أحدًا) الكهف: 26!

ما دامت السماء محيطة بنا فهي فوقنا وتحتنا، ونحن على أرضنا قد نكون فوق قوم يعيشون على الأرض في جانب آخر منها!

وعلى أية حال فالخالق الأعلى له فوقية تقهر الخلائق جميعًا، وتستعلي وتستعلن على الجن والإنس والملائكة وسائر الموجودات! ذاك ما أعرف، ولا أحب إفساد النظم القرآني الكريم بتعاريف ما أنزل الله بها من سلطان!

- قال الشاب: ألم تقرأ العقيدة الطحاوية؟
- قلت: أوصى المسلمين أن يقرؤوا القرآن، وألا يعملوا عقولهم في اكتناه المغيبات التي يستحيل إدراك كنهها، كذلك فعل سلفهم الصالح فأفلح!
- قال الشاب: وكتابك عقيدة المسلم؟

- قلت: قررت فيه ما سمعت الآن!
- قال: إنه يتجه مع مذهب السلف، ولكنك تبعت في ترتيب عقائد منهج أبي الحسن الأشعري، وهو مؤول منحرف!
- قلت: رحم الله أبا الحسن وابن تيمية! كلاهما خدم الإسلام جهده، وغفر الله لهما ما يمكن أن يكون قد وقع في كلامهم من خطأ .

اسمع يا بني: لماذا تحيون الخصومات العلمية القديمة؟ كانت هذه الخصومات – ودولة الإسلام ممدودة السلطة – خفيفة الضرر، إنكم اليوم تجددونها، ودولة الإسلام ضعيفة، بل لا دولة له، فلم تعيدونها جذعة، وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضرامًا؟

وجهوا الأمة إلى كتاب ربها وسنة نبيها، واشغلوهم بما اشتغل به سلفنا الأول، اشتغل بالجهاد في سبيل الله فاعتز وساد! مع ملاحظة أنهم كانوا يحررون غيرهم، أما نحن فمكلفون بتحرير أنفسنا.

- قال الشاب وهو يتململ: حسبناك من السلف!
- قلت: إن الانتماء إلى السلف شرف أتقاصر دونه، وفي الوقت نفسه أحرص عليهن! لقد جئت تسألني عن قضية لو سئل عنها الأصحاب رضي الله عنهم لسكتوا!

وأغلب الظن أنك تود لو تعثرت في الإجابة حتى تتخذني غرضًا، أنت ومن وراءك، فلتعلم أن طهر النفس أرجح عند الله من إدراك الصواب!

(ليس سلفيًّا من يجهل دعائم الإصلاح الخلقي والاجتماعي والسياسي – كما جاء بها الإسلام، وأعلى رايتها السلف – ثم يجرى هنا وهناك مذكيًا الخلاف في قضايا تجاوزها العصر الحاضر، ورأى الخوض فيها مضيعة للوقت فيها)!

كيف يرى هو منهجه الفكري والدعوي؟

يقول شيخي القرضاوي: لقد لقن الشيخ طلابه الموازنة بين العقل والنقل، وبين الأصول

والفروع، وبين الدين والدنيا، ولم ينسق وراء الذين يريدون أن يبطلوا النصوص باسم المصالح، ولا الذين يريدون أن يرفضوا المنقول باسم المعقول، ولا الذين يريدون أن يقيموا حربًا بين الإسلام والعصر، أو بين الإسلام والتطور، انه يقول للذين يطالبون الإسلام أن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور أن يسلم؟!

قد يأخذ الناس علي الشيخ الغزالي بعض آرائه وفتاويه؛ لأنها ليست علي مشربهم، ولكن الذي أعلمه أن الشيخ الغزالي لم يخرج في فتوًى أو رأي علي إجماع الأمة المستيقن. وقد اتهم شيخ الإسلام ابن تيمية قديمًا بأنه خرق الإجماع في قضايا الطلاق وما يتعلق به! وهي التي قال فيها تلميذه الحافظ الذهبي: وله فتاوى نيل من عرضه بسببها، وهي مغمورة في بحر علمه.

وأنا أقول: إن هذه الفتاوى التي أوذي من أجلها ابن تيمية، وأدخل فيها السجن ومات فيه، هي المعتمدة الآن لدى كثير من أهل الفتوى، وهي التي أنقذت الأسرة المسلمة من الانهيار.

لقد صدع الشيخ الغزالي بما يرى أنه الحق، ولا يسع عالمًا يخشى الله ألا يفعل ذلك، ما دام من (الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحدًا إلا الله) الأحزاب:39..

ويقول رحمه الله عن تقديره لكل العلماء حتى القدامى: (إنني لا أجعل عيبًا ما يغطي مواهب العبقري! ثم لحساب مَنْ أهدم تاريخنا الأدبي والديني؟ ولمصلحة مَن أشتم اليوم علماء لهم في خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟ ومَن يبقي مِنْ رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبي بكر وعمر مِنْ أفواه غلاة الشيعة، وتاريخ علي من أفواه الخوارج، وتاريخ أبي حنيفة من أفواه الإخباريين، وتاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة وابن فلان، وتاريخ محمد بن عبدالوهاب من أفواه الترك)!

ويقول: أرى أن ألقي ضوءًا على طريقتي في الدعوة، ووسائلي لدعم الإيمان والمنهج الإسلامي إنني أعتقد أن الدين هو الفطرة السليمة، قبل أن تشوهها تقاليد سيئة وأفكار سقيمة، وأن أنصبة الناس من سلامة الفطرة شديدة التفاوت، وأن هذه الأنصبة موزعة على خلق الله حيث كانوا! ومن

ثم فأنا أرقب ما يصدر عن الناس من أقوال وأفعال، وأزنه بمعيار الفطرة المقررة عندي، فما كان خيرًا قبلته، وما كان شرًّا رفضته!

وفي حالتي الرفض والقبول فأنا أكمل للناس ما نقصهم، أو أؤكد ما لديهم، من التراث الذي خصّني الله به! أعني من الإسلام الذي هداني الله إليه، إذ أوجدني في بيئة يسَّرته لي، ومكّنتني منه.

إن الأديان أقدار! وإذا أنعم الله عليّ بالإسلام فلأقدِّر هذه النعمة، وليكن تقديري لها أن أعامل من حموها بشيء من الوعي للظروف التي أحاطت بهم...

وأجدني هنا مسوقًا إلى ذكر رجل عسكريّ وَلِيَ وزارة الأوقاف، قبل هذه الأحداث بسنين، هو أحمد عبد الله طعيمة، لم أر مثله حبًّا في الخير، ورغبة في خدمة الإسلام، وحماسًا في فتح المساجد، ودعم الدعوة، وتذليل العقبات أمامها!

جئته يومًا – وأنا معتزٌّ بتقويته لي – وقلت له: قمت بعمل لله في المحلّة الكبرى لا يجيزه القانون، ولكني ثقة فيك، واطمئنانًا إلى عونك فعلته!

قال مبتسمًا: ماذا فعلت؟ قلت: وجدت الكنيسة التي تقع أمام مسجد أبي الفضل الوزيري، يعاد تشييدها، ورفع أبراجها، وتجديد معالمها، وبدا المسجد أمامها قزمًا، وعلمت أن أرض الأوقاف حول المسجد سوف تباع بالمزاد، وقد يشتريها إخواننا الأقباط ويتم حصار المسجد، فأمرت الأهالي بالاستيلاء عليها وتوسيع المسجد فوقها، وأثبتُّ ذلك في دفتر الأحوال، وكلفت مدير المساجد بمتابعة التنفيذ، وتلقي التبرعات لتجديد المسجد على النحو المعقول!

فأطال الرجل النظر في وجهي وسأل: باسم مَنْ مِنَ الواقفين يكون هذا العقار المراد ضمه إلى المسجد؟

قلت: لا أدري! قال: ابحث على عجل، وتعال إليّ!

ولم يمض غير أسبوع حتى كان العقار قد ضُمَّ إلى المسجد ضمًّا قانونيًّا، وصدرت الأوامر بجعل مسجد الوزيري مسجدًا نموذجيًّا! وتمَّ ذلك كله بفضل الله!

وكوفئ الوزير الغيور على الإسلام بإخراجه من الوزارة، وإرساله سفيرًا إلى أمريكا الجنوبية!

وعندما خرج الرجل القويُّ الشجاع من الوزارة تذكرت قول الشاعر:

إن الأمير هو الذي	يضحي أميرًا يوم عزله!
إن ضاع سلطان الولا	ية لم يضع سلطان فضله!

وربما نسي الناس كفاح هذا الرجل، لكن الله لا ينسى عمل عامل!

..........عدت من الكويت، وكنت قبل سفري شديد الوجل من الأزمات الزاحفة عليّ، وكنت أحفظ حديثًا عن رمضان أنه شهر يزاد رزق المؤمن فيه، فسرَّني أن جعلني ربي في عداد أولئك المؤمنين المعانين، ووفيتُ بالتزاماتي كلها، ومنحت قصّادي ما ألفوا نيله مني، لم يشعر ذو سلطة أني محتاج إلى بابه، فلله الحمد والمنّة!

واستدعاني السيد حسين الشافعي، وفهمت منه أني أستطيع أن أخطب الجمعة، واختار لي وكيل الوزارة مسجد عمر مكرم بميدان التحرير، وذهبت إلى المسجد، وبدأت أؤدي فيه واجبي، وما أن علم الناس أني أخطب هناك حتى تدفقوا ألوفًا على المسجد والميدان المحيط به!

وتكرر اعتراض الداخلية على ظهوري مرة أخرى، وهمس في أذني الأستاذ القرماني وكيل الوزارة أن أدع الخطابة من تلقاء نفسي بدل أن أحرج السيد حسين الشافعي مع الوزارة المسؤولة عن الأمن! فكتبت اعتذارًا عن أداء الخطبة، وتوفرت على الكتابة – وهي هواي الأصيل – ورأيت أن أحاضر في المساجد الأهلية، والأندية العامة، وأن أعمل مع العاملين على تقوية الروح الديني، ونشر الثقافة الإسلامية، ومطاردة الانحراف الفكري والخلقي!

وشعرت بفطرة المؤمن أن هذا التنقل أفاد، وأن جيشًا من أهل الإيمان استطاع أن يثب بالدعوة إلى الأمام، فهل يترك الإسلام يتحرك وحده؟ كلا، لقد وقع ما ليس في الحسبان !

أحسّ أعداء الإسلام أن المصريين متمسكون بدينهم، راغبون في إعلاء شعائره، وإحياء شرائعه، وأنهم تحت وطأة القمع ينكمشون، ثم سرعان ما يفيقون ويُسمع جؤارهم بضرورة العودة إلى الدين!

وكانت مصر في أوائل الستينيات تتجه نحو الشيوعية، وتطبق أوامر صارمة ضد الأغنياء عمومًا!! وذهب جمال عبد الناصر إلى "موسكو"، وهناك قيل له: إن ترك الجماعات الإسلامية – خصوصًا الإخوان المسلمين – ينشطون على هذا النحو، سوف يدمّر مستقبل الاشتراكية!

فأسرع جمال – وهو لا يزال في موسكو – بإعلان الحرب على الإخوان، وإنذارهم بالويل والثبور!

الغزالي وحسن البنا والإخوان

الغزالي وحسن البنا والإخوان:

ولا مفر هنا من ذكر علاقة الإمام رحمه الله بالإمام البنا، والإخوان المسلمين، الذين أحبهم، وحمي لهم، وناصرهم: وهو معهم، وهو خارجهم، وهو راضٍ عنهم، وهو ساخط عليهم!

ببساطة؛ لأن هذه شخصيته، لا يعرف التلون، ولا التخلي، ولا الاصطياد، ولا الارتفاع على جثث الآخرين، ولا الطعن من الظهر!

وقد انضم لهم؛ انبهارًا بالشيخ الباهر حسن البنا، وافتتانًا بشخصيته، وفكره، ورسالته، وفراسته، واقتداره على معرفة من أمامه، وقراءة قدراته؛ فقد كان الإمام قياديًّا مقتدرًا، ووالدًا حانيًا، وذا فراسة في فهم من أمامه، وتجييش ذوي الاقتدار، وشحذ فاعلياتهم للعطاء، البذل، والتألق، ووضع كل منهم في مكانه الذي يرفعه ويرتفع به:

يحكي الشيخ عن بداية لقائه بالإمام: (كان ذلك أثناء دراستي الثانوية في المعهد الديني بالإسكندرية، وكان من عادتي لزوم "مسجد عبد الرحمن بن هرمز" حيث أقوم بمذاكرة دروسي،

وذات مساء نهض شاب لا أعرفه يلقي على الناس موعظة قصيرة شرحًا للحديث الشريف: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) وكان حديثًا مؤثرًا يصل إلى القلب! ومنذ تلك الساعة توثقت علاقتي به، واستمر عملي في ميدان الكفاح الإسلامي مع هذا الرجل العظيم؛ إلى أن استشهد عام 1949 م.

كان حسن البنا موفَّقًا في انتقاء الرجال، وكانت كلماته البارعة تأخذ طريقها المستقيم إلى عقولهم فتأسرها؛ وذلك أمر يرجع إلى فضل الله؛ أكثر مما يرجع إلى المهارة الخاصة، واقتياد الكلمة من فم القائل إلى شغاف قلب السامع، يمكن أن يُقال فيه: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)!

وقد سمعت بعض تلامذة الإمام الشهيد يرددون المعانيَ نفسها التي كانت تجري على لسان الرجل، ويستحيل أن تجد في كلامهم عوجًا، ومع ذلك فإن الفتح بها محدود! إن السماء وحدها التي تضع للإنسان القبول في الأرض، وقد كان حسن البنا ملاحَظًا بعناية الله من هذه الناحية المهمة!

ومن هذا القبول، وهذا الوعي، وهذه الفراسة، عرف الإمام ماذا يعني محمد الغزالي، وماذا يرجى منه؛ وأنه سيخدم دينه؛ لذا أحسن وضعه في مكانه اللائق!

وتجلى ذلك في أكثر من موقف ذكرها الإمام الغزالي بنفسه:

- كتبت يومًا مقالًا، وأرسلته إلى مجلة الإخوان، وارتقبت نشره، فلم ينشر، وساء ظني بنفسي فتركت الكتابة! وبغتة تلقيت بالبريد رسالة من المرشد العام، عرفت فيما بعد نبأها:

لقد دخل إدارة المجلة، وسأل الأستاذ صالح عشماوي رئيس التحرير: لماذا لا أقرأ للإخوان مقالات جيدة؟ وما السبب في ضعف المجلة؟

ومدّ يده – غير متعمد – إلى ملف المحفوظات، المنتفخ بالمقالات التي رُئي عدم نشرها، ووقع بصره على مقالي! وغضب غضبًا شديدًا لإهماله، وأمر بجعله افتتاحية العدد المقبل. وبعث إلى برسالة شخصية هذا نصها:

أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: قرأت مقالك: الإخوان المسلمون والأحزاب، فطربت لعبارته الجزلة، ومعانيه الدقيقة، وأدبه العفِّ الرصين، هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون. اكتب دائمًا وروح القدس يؤيدك، والله معك.

أخوك حسن البنا، المرشد العام للإخوان المسلمين

وأصبحت بعد هذه الرسالة من كتاب الجماعة الأوائل، واستبشرت بأن الله سيلهمني الرشد فيما أكتب!

- وفي موقف ثانٍ يقول الغزالي:

أنشئت فِرَق العمل، أو ما سمِّي بعد ذلك بالنظام الخاص، وأساس تكوينه مواجهة الوضع في فلسطين، بعد عربدة العصابات اليهودية فيها، وإتمام تحرير مصر بالسلاح؛ إذا لم يخرج الإنجليز طوعًا! وكتب اسمي بين عدد كبير من المرشحين للتدريب!

وعُرضت قوائم الأسماء على الأستاذ المرشد، فلم يوافق على تجنيدي!

وقال له المسؤول عني، هذا رجل مخلص! فقال له: أعرف ذلك من قبلك، لكن هذا نظام عسكري يتطلب طاعة مطلقة! والشيخ الغزالي يعترض على ما لا يروقه من أوامر، ويقول لك: ما السبب؟ وأين الدليل؟ ثم هو لا يحسن الكتمان، إذا سخط بدا سخطه على وجهه، والسرية المطلقة أساس هذا النظام!

دعوه يكتب ويخطب وينشر الدعوة الإسلامية في الميدان الذي يصلح له ولا يصلح لغيره! وبعدها أطلق الإمام البنا عليه لقب: أديب الدعوة، لجزالة منطقه، وسحر بيانه، وعاطفته الجياشة!

فانظر إلى دقته، وفهمه الثاقب لشخصية من أمامه، وخصائصه!

وموقف ثالث يرويه الغزالي، كان للأستاذ البنا فيه فراسة:

.....مع تسلمي للعمل الحكومي تم زواجي، وكان الأستاذ حسن البنا تدخّل في المسألة التي بدأت معقدة، فإن والد الفتاة التي اخترتها، كان يطمع في زوجٍ أغنى مني؛ إنه من قريتنا، وإن كان موظفًا بوزارة العدل في القاهرة، وعلم أن مرتبي ستة جنيهات، أعطي أبي نصفها تقريبًا!

لكن الأستاذ المرشد أقنع الرجل بأني أفضل من غيري، والمستقبل بيد الله، وسيكون خيرًا!

وتزوجت، وسألني الأستاذ المرشد: ماذا فعلت مع فلان – يعني صهري – فقلت له: دخلت بابنته! قال عاتبًا: لِمَ لم تدعني؟ وتمثل بقول الشاعر، وهو يبتسم:

وإذا تكون كريهة أُدْعَى لها *** *** وإذا يحاس الحبس يدعى جندب!

فقلت: لم تكن هناك وليمة! اكتفينا بأشربة حلوة، تناولها بعض الزملاء، وأوسع لي الرجل غرفة في بيته والحمد لله... فدعا لنا بالبركة!

وبارك الله للغزالي رحمه الله حتى إنه بكى زوجه كثيرًا لما سبقته إلى الله؛ رحمهما الله!

ولعل هذه الفراسة، وفهم النفسيات – مع الصفات الأخرى الكثيرة – مما جعل الغزالي منبهرًا بالإمام البنا؛ حتى قال فيه ما لم يقل في أحد؛ ومن ذلك: (إن حسن البنا كان أنجحَ الدعاة في هذا العصر، وقد أعانه على بلوغ ذلك علمٌ غزيرٌ، واطلاعٌ واعٍ على الثقافة الاسلامية؛ قديمها وحديثها:

أذكر أنه كلَّفني مرةً مع بعض الزملاء بنقل مكتبته من حي السبتية بالقاهرة إلى مسكنٍ جديدٍ اختاره، قريبًا من المركز العام بالحلمية، فقلَّبتُ ألوف الكتب في شتى علوم الدين والأدب، بل لقد رأيتُ في مكتبته رسائل في القضايا التافهة، مثل: حكم حمل المسبحة! ويخطئ مَن يحسب حسن البنا واعظًا يجيد التعليم والتربية وحسب، إننا بلوناه؛ فرأينا لديه فقهَ الأئمة الكبار من علمائنا، كما رأينا لديه فكر المجددين المعاصرين العباقرة)!

ويقول: (أنا واحد من الذين صحبوا حسن البنا، وتربوا على يديه، وأفادوا من علمه! كنت وما زلت تلميذًا لحسن البنا؛ أذكر دروسه وأترسم خطاه، وأفيد من تجاربه، وأنا مستبشر بدعائه لي ورضائه عني، ونظرتي إلى ذلك الإمام الشهيد أنه من قمم الفقه الإسلامي، ومن بناة أمتنا الفقيرة إلى الرجال، بل هو بلا ريب مجدد القرن الرابع عشر الهجري، وأشهد بأن له – بعد الله – الفضل الأول في توجيهي وتثقيفي)!

(وقد لاحظت في دراستي الطويلة للرجال أن الله جمع في حسن البنا مواهب عددٍ من الزعماء الإسلاميين الكبار أمثال: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، فكان إذا تحدَّث بين الناس التقى في حديثه ما تميز به أولئك الرجال، كما تلتقي الأشعة في عدسةٍ صافيةٍ تجمع ما تفرق وتضاعف أثره!

- ✓ كان الأفغاني أول مَن أبصر الحقدَ التاريخيَّ في ضمير الاستعمار الغربي، ونبَّه المسلمين إلى أن أوروبا لا تزال تحمل ضغائن بطرس الناسك، في تعاملها مع المسلمين!
- ✓ وكان محمد عبده أول مَن أحسَّ حاجة الأمة إلى تربيةٍ واعية، تتعهد سلوكها بالعقل المؤمن، وتحرس نظامها بالروح العامة!
- ✓ وكان محمد رشيد رضا ترجمان القرآن، وشارة السلفية الصحيحة، والمفتي العارف بأهداف الإسلام والمستوعب لآثاره!

وشاء الله أن يكون حسن البنا وريث هؤلاء؛ فكانت محاضراته في المدن والقرى علمًا وأدبًا وثقافةً وكياسةً، وقلَّما يفلت سامعٌ له من التأثر به والانقياد له)!

(لقد مشيت وراء الرجل الذي عرفته في طريق الحق وعبادة الله! لم يكن حسن البنا محترف سياسة، ولا صاحب دهاء وحيل، وإنما كان ربانيًّا عامر القلب بذكر الله، وبجمع الشباب والشيب في الصلوات الخاشعة والتلاوة الباكية، والخطابة التي ترفع مستمعيها إلى مستوى رفيع من الروحانية والتجرد وحب العلم لله والذود عن دينه...

وكانت هذه المشاعر الجياشة تنقص أساتذتنا في كلية أصول الدين، إذا كانت الدراسة نظرية شاحبة، تجري على الألسنة ولا تتحرك بها القلوب)!

(وكان المنهج الذي نعرضه من خلال دعوة الإخوان هو في نظري خير ما يقال للناس، وكان حسن البنا – فيما رأيت منه – قائدًا عابدًا، ومجاهدًا صامدًا، ومربيًا قديرًا، وداعيًا متفانيًا، يضنّ باللحظة من عمره أن تضيع في غير عمل للإسلام)!

وانبهارًا بالإمام البنا انتسب الشيخ الغزالي للإخوان، وأوذي معهم، وسجن، وبقي متحمسًا منافحًا حتى اغتيل البنا رحمه الله، فما لبث أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته، فوقع بعضهم فيه ووقع فيهم، وقامت خصومة شهدتها الصحف والمحافل؛ مع حدة طبيعة الشيخ، ولذع قلمه، ثم طوي الخلاف، وتدورك الأمر، واستوت سفينة الأخوة على جودي الاتفاق، لكنه بقي بعد ذلك حرًّا في دعوته، غير منتمٍ، ولم يعد لسلك الإخوان!

وعن هذه المرحلة – بعيدًا عن تفاصيلها – كتب الأخ الشيخ عصام تليمة (الشيخ الغزالي وجماعة الإخوان):

......حدثت ضبابية في المواقف، وحدث ما أدى إلى فصل الغزالي من الجماعة، بعدها قرر أن يمضي في طريقه للدعوة! لكن لم يترك الغزالي في طريقه يعمل؛ فقد ناوشه البعض، وهاجمه البعض الآخر، وهو صاحب قلم، وأسلوب لاذع، فكتب كلاما قاسيًا وشديدًا على الهضيبي – وهذا وصف الغزالي نفسه لكلامه – ثم بعد فترة عاد إلى نفسه وكتب كلامًا آخر يعتذر فيه للهضيبي عما بدر منه تجاهه، وكتب ذلك كله في كتابه: (من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث)!

ولما خرج الهضيبي من السجن ذهب إليه وزاره، وصفى ما بينهما من شحناء وخلاف، وكذلك زار الأستاذ سيد قطب بعد خروجه قبل سجنه الأخير الذي شنق فيه شهيدًا، وقد كان بينهما خلاف أيضًا. فالغزالي رحمه الله لم يعتقل في محنة 1954م لأنه لم يكن في تنظيم الإخوان، وكذلك في

محنة 1965م فقط اعتقل ليومين أو ثلاثة، وليس لأنه من الإخوان، بل لأنه طلب منه أن يتكلم في الإذاعة ويسب الإخوان، فرفض، فلما أرادوا استفزازه وقالوا له: لقد فصلوك، فقال رحمه الله: إذا استقووا علي في وقت ضعفي، فلن أستقوي عليهم في وقت ضعفهم، ليس من خلقي أن أجهز على جريح.

وما يثبت عدم عودته مطلقًا للتنظيم هو كتابه (قذائف الحق) الذي ألفه سنة 1970م، وفيه يتكلم عن فصله من الجماعة وعدم عودته لها، ثم بعد ذلك عندما طلب الإخوان بعد وفاة الهضيبي أن يتولى القرضاوي مهمة المرشد، فاعتذر ورشح لهم الغزالي، فاعتذروا بما كان من الغزالي!

ثم جاء الأستاذ عمر التلمساني، وكان رجلا لطيفًا هادئًا، يميل للاستفادة من كل الطاقات، ولا يعمل بمعايير التنظيم الضيقة، فطلب الاستفادة من الغزالي، وهذا ما نشره الغزالي في بيان في مجلة الاعتصام في نهاية السبعينيات: أنه كان في الإخوان ثم خرج، ولما خرج الهضيبي تعاون معه للعمل للإسلام، وكذلك التلمساني، هكذا كتب الغزالي بيانه بصيغة واضحة.

وكان ينشر مقالات في مجلة (الدعوة)، وقد كتب مقالًا عن التعددية الحزبية، ولم يكن موقف الإخوان قد تغير بعد، فكان مقال الغزالي عن تأييد التعددية الحزبية، فلم ينشروا مقاله، فاعترض، وقال: تمنعون مقالًا لي من النشر؟! هذا فراق بيني وبين النشر في المجلة، ولم ينشر بعدها.

هذا مجمل تاريخ الغزالي مع التنظيم مختصرًا، ولكنه واضح أنه لم يعد مطلقًا للتنظيم. أ.هـ.

ويستخدم خصوم الإسلام – للأسف – كلمات الغزالي في الجماعة، ومرشدها الهضيبي، لضرب الإخوان، وتشويه الإسلام كله، وتأييد باطلهم!

لكن الغزالي الفارس لم يوظف خصومته في أذى إخوانه الذين خالفهم الرأي؛ يقول في مذكراته رحمه الله: ...... السبب المباشر الذي أدَّى إلى اعتقالي، وزجِّي في سجن طرة:

طُلبت إلى الإذاعة، فلما ذهبت وجدت عددًا من الشيوخ والإخوان الأقدمين. وكانت التعليقات محددة: إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين، وتحذير الأمة من الثقة بهم أو التعاون معهم، ويجب أن تقوم بهذا الواجب الوطني على عجل!

تَمَلْمَلتُ فوق كرسيٍّ ضائقًا، ولاحظ ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني، ثم كلفوني – بوصفي مفصولًا من الإخوان– أن أبدأ التسجيل!

كان جوابي حاسمًا: أنا على استعداد للحديث عن الإسلام، وضرورة إحياء ما مات من أحكامه! ومستعد لإرشاد المخطئين، حكامًا كانوا أو محكومين، لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ، أمّا شتم الإخوان وحدهم، فليس من خلقي أن أجهز على جريح!

قيل: إنهم فصلوك من جماعتهم؟ فلماذا تُبقي عليهم؟ قلتُ: إذا استضعفوني أيام قوتهم، فلن أستضعفهم أيام حريتي!

وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي! جاءت الشرطة بعد منتصف الليل بساعة، وطرقت الباب ففتحتُ، ودخلوا يديرون عيونهم في أرجاء المكان، ثم أفهموني بأدب أن أجيء معهم! وعرفت الوضع، وكانت إحدى بناتي قد استيقظت، فصاحت: بابا، فأمسكتها بلطف، وقلت لها: لا تخافي، سأعود بسرعة إن شاء الله، وقلت لزوجتي: أعدي حقيبة فيها عدد من الثياب...

ويقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى في مذكراته:

.....قررت أن أتفرد بالعمل للدعوة، على النحو الذي أختار، وبالطريقة التي أُحسن، وأمامي ميدانان فسيحان: ميدان التأليف، وقد وضع الله لي القبول فيه، وميدان المساجد، وأنا قادر على إلقاء الدروس والخطب، وعلى توجيه ألوف الأئمة إلى الغاية الأرشد، والنهج الأمثل!

لقد هاجمت الإخوان، وهاجموني يوم فصلتُ، وكان تظالمًا وخيم العقبى على مستقبل الجماعة، يغفر الله لنا فيه ما كان مني ومنهم! فلما حَلّت الدولة الجماعة للمرَّة الثانية، وأحسست أن ذلك لا يستفيد منه إلا اليهودية والنصرانية، سكتُّ مبتئسًا!

فلما بدأ التعذيب والتقتيل انضممتُ بقلبي وكياني كله إلى المستضعفين في الأرض، وبكيت لهم ما يلقون! وماذا عساي أفعل؟ إن المأساة التي يجب كشفها أن الإسلام نفسه يُضرب، باسم ضرب الإخوان!

لو أن واحدًا أو أكثر يعاقبون لأخطائهم باسم الدين، لقلنا: العدل يأخذ مجراه! أما أن تصادر نصوص، وتطمس تعاليم، ويلغى نصف الكتاب والسنة، لأن جماعة ما أخطأت، فهذا هو العجب)!

(ثم جاء نبأ آخر: حُلّت جماعة الإخوان المسلمين، وصودرت أموالها، وألقي القبض على أعداد كبيرة من أعضائها. ولقد كنت مفصولًا بقرار عرفه القاصي والداني، فلما وقعت هذه المصيبة أحسست أن رياحًا عاصفة تهب بعنف لتدمر حاضر الإسلام ومستقبله، ووقفت من بعيد أرقب، وماذا عساي أن أفعل)!؟

إخواني الهوى، من خارج الإخوان:

ومذ عملت في السلك الإداري، وأنا أرفض الاكتفاء به، وأركض ركضًا إلى المساجد والأندية والكليات، أتحدث عن الإسلام، أذود عنه الهاجمين، وأكشف كامنه للمتوسمين، وأتعرض للمدح والقدح والتكريم والإهانة!

كنت أول موظف كبير يدخل الديوان، أستفتح عملي بقراءة جزء من القرآن على أحد شيوخ المقارئ، ثم أنظر في الملفات المعدَّة، وأتتبع مصالح الناس بالإنجاز، وأغشى عشرات المكاتب؛ شفاء لهذا، أو إعانة لذاك، كنت كما وصف المأمون نفسه: (حُبِّبَ إليَّ فعل الخير، حتى ظننت ألا أُوجر عليه)!

وقد أحصى مكتب الاستعلامات في الوزارة من يطلبون الدخول إليها، فوجد ثلاثة أرباعهم يذكرون اسمي، ولما كُلِّمتُ في ذلك قلت: معنى موظف عام أنه خادم للجماهير حقيقة لا دعوى!

إن الذين يستكبرون عن ذلك إنما يأكلون السحت!

وبديهي أن يكون الإخوان المسلمون – فرادى – أول من يسعهم هذا النشاط، طالما هَشَشتُ للقائهم، وطمأنت قَلَقهم، وأريتهم من نفسي الاستعداد التام لعونهم)!

(ما معنى أن يعلن رئيس دولة إعجابه بشخص مرتدّ كمصطفى كمال، وأن يأمر بإصدار طوابع بريد لتخليد ذكراه؟ كيف تخلد ذكرى فصل الدين عن الدولة، وجعل الحكم عَلمانيًّا؟ كيف تخلد ذكرى ضرب الإسلام، وإسقاط رايته وخلافته؟

والأعجب أن يصمت علماء السوء؛ فلا يقولوا كلمة أبدًا في هذا الفسوق، ثم تراهم بعد يتسابقون في هجاء الإخوان؛ لأنهم خرجوا على الحاكم؟ هل ولاؤكم أنتم له هو الإيمان؟

قال لي صديق يشتغل في الإعلام: طلبنا من فلان أن يضع لنا جملة أحاديث في تحديد النسل. قال: تريدون أن أكتب بالتحليل أم بالتحريم؟ فقال له المجيب ساخرًا: خمسة أحاديث بالحلّ، وخمسة أخرى بالحرمة!

قلت: هذا الشيخ يصلح مفتيا للجمهورية، أو وزيرًا للأوقاف! قال: أو شيخًا للأزهر؟

قلت بعد تريُّث: أو شيخًا للأزهر!

إن أولئك الثلاثة – في إبّان حكم العسكر – حمَّلوا الإسلام ما لا يطيق، لا في مصر وحدها، بل في أقطار أخرى! إنهم ونظرائهم سخروا الفقه لهوى الرجال والنساء، واخترعوا أحكامًا ما أنزل الله بها من سلطان! وما كسبوا إلا غضب الله سبحانه وكراهية الصالحين من عباده، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها! وفي هؤلاء يقول أحمد محرم:

أرى علماء الدين لا يحفظونه	ولا يرفعون اليوم رايته العليا
هم اتخذوا ما أحرزوا من علومه	سبيلًا إلى ما يبتغون من الدنيا
إذا ما أتاهم جاهل بضلالة	أتَوه بألفي عالم يحمل الفُتيا

ولعل في هذا المقدار كفاية.

الغزالي معتزًّا بنفسه معتدًّا:

الغزالي معتزًّا بنفسه معتدًّا:

ونحن أناس لا توسط بيننا	لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ
تَهُونُ عَلَيْنا فِي المعَالِي نُفُوسنَا	وَمَنْ خَطَبَ الحَسْناء لَمْ يُغْلِهَا المَهْرُ
أعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العُلا	وأكرم من فوق التراب ولا فخر

هكذا كان لسان حال الإمام الغزالي في أحواله كلها: في فقره وغناه، في سجنه وحريته، مع المسؤولين والكبراء، أمام الدعوات المتطوسة المنتفشة، والمتكبرة المتسلطة: ربه أكبر، ورسوله أعظم، وكتابه أولى، ودعوته أعز وأجلى!

منطلقه قول ربنا تبارك وتعالى، في سورة المائدة/54: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ: مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ، وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء، وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) ويقول تبارك وتعالى: (وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ، وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) محمد:35! ووقول العزيز تبارك وتعالى آمرًا نبيه العزيز بربه، صلى الله عليه وسلم: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي؛ أَدْعُو إِلَى اللّهِ! عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يوسف:108!

فرغم بساطته وورعه – ولا أزكيه على الله تعالى – كان الشيخ رحمه الله من بداياته معتزًّا بنفسه، واثقًا، وربما كان هذا من أسباب اندفاعه، وحدته! وهو الذي يقول –كما يروي الأستاذ رجب البنا في مقاله: طه حسين والغزالي.. خصومة فكرية نبيلة –: وقد كنت حريصًا على الصمت الجميل يوم عرفت أني سأعمل للإسلام وحدي، بيد أن أحدًا من خلق الله اعترضني ليقول لي: إن

تكلمتَ قُتلِت(!)، فكان ذلك هو الحافز الفذ على أن أتكلم وأطنب! إن اللفظة الرقيقة تطوق عنقي فأستسلم، أما التحدي فإنه يهيج في طبيعتي غرائز الخصام.

ويقول رحمه الله تعالى، وقد استفزه حالنا: لقد فكرت طويلًا في هذا المسخ الذي أصاب طوائف من أمتنا، فأصابها ما أصاب اليهود قديمًا؛ عندما جعلهم الله قردة وخنازير! إن هذا المسخ بدأ بين المثقفين الذين احتقروا لغتهم، وأهانوا تراثهم الأدبي، وشعروا ألا كيان لهم إلا إذا تحدثوا بلسانٍ أجنبي، وتعاملوا بتقاليد مستوردة!

ومما رواه رحمه الله في سيرته، من اعتزازه بنفسه وبقدراته من بداياته: أنه – عندما تخرج في كلية أصول الدين بالأزهر عام 1941 وتقدم إلى وزارة الأوقاف لشغل وظيفة الإمامة والخطابة والتدريس الخالية في مساجدها – كان عليه أن يجتاز الاختبار التحريري والشفوي. وفي الامتحان الشفوي وقعت بينه وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة يقول عنها:

بدأت بعمل مني كان طائشًا: كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيدًا، وأجبت عن كل ما سئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، وينتقل بي من صفحة إلى صفحة، وأنا ماضٍ في التلاوة، وردني في كلمة، فتوقفت، ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة:

ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق؛ هل أخطأت حقًّا؛ فأنا أحفظ جيدًا! وشتمني رئيس اللجنة؛ وكان الأستاذ أحمد حسين، شقيق طه حسين، وهو يومئذ مفتي الأوقاف.

وجاء دور الأستاذ أمين الخولي، الذي طلب مني تفسير آيات، قرأتها، وأجبت، فخطأني، وذكرت رأيًا آخر في التفسير فخطأني، فقلت؛ وأنا أضبط أعصابي: وددت لو أعرف الحق، فقد ذكرت كل ما أعرف!

فقال الشيخ أمين الخولي: ذاك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان. قلت: لا جواب إلا ما قلت، وأتحدى إذا كان هناك جواب آخر!

وعاد الشيخ أحمد حسين لتوبيخي، أما الأستاذ أمين الخولي فأدار ظهره، معرضًا عني، منهيًا المناقشة! ومما رواه الشيخ في مذكراته:

- أذكر أن وكيل الوزارة كلَّفني يومًا أن أضع خطبة محترمة في تحديد النسل، لأن المشروع موشك على الفشل! فقلت له: إن مشكلة الانفجار السكاني في العالم لا تحلّ على حساب المسلمين وحدهم! قال: ماذا تعني؟ قلت: التعليمات صدرت لغيرنا أن يتكاثروا، فلا أعمل أنا على تقليل المسلمين!

فقال في عبوس: أنت موظف، وقد أمر الرؤساء بشيء فيجب تنفيذه!

فقلت في صرامة: أنا لست موظفًا في بيت أحد الرؤساء، أنا وأي رئيس موظفون في جهاز إسلامي حسيبنا فيه الله، فأنا أرعى ربي قبل أي امرئ آخر، أنا ورئيس الدولة نأخذ مرتباتنا من وعاء واحد، من مال المسلمين، أنا لا آخذ مرتبي من كيس أحد؛ حتى أجعل ولائي له من دون الله!

فأشاح معرضًا، وانصرف مغضبًا، وبعد أيام أرسل إليَّ، وقال: يا سيدي كتب الخطبة غيرك! قلت: ليكتب من شاء ما شاء، أمّا أنا فلا أبيع ديني لأحد!

إنني أكره الشيوخ الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوى الجهلاء، إنهم يدورون – في القاهرة وفي كل عاصمة – بذممهم، كما يدور سائقو سيارات الأجرة بعرباتهم، يتلفتون: هل من راكب؟ قبحهم الله، وقبّح من كلّفهم، وقبل منهم!

ومما رواه أيضًا: وفي أيامي الأخيرة (في الأوقاف) رأى الأستاذ الدكتور زكريا البري أن يكشف الحيف النازل بي، وأن يجعلني وكيلًا لوزارة الأوقاف، وقدر على إقناع أنور السادات بذلك؛ وأنا

أرى أن المناصب فرص متاحة لعمل خير كثير، وكلما كبر المنصب كانت دائرته أرحب في نفع الأمة، وما أخشى أن أكون في منصب ما، ما دمت أنوي تسخيره فيما أنشيء من أجله، والمناصب أنشئت للنفع العام وحده!

وسألني أحد الناس: لمن سيكون ولاؤك؟ قلت: لله بداهة!

قال: وإذا وُكّلتَ بمدح الحكام، وتسويغ سياستهم؟ قلت: ليس هذا عملي، أنا أعمل للإسلام وحده! قال: إنك تعرف السادات وتنقد سياسته! قلت: ولم أتغيَّر! فمضى عني يائسًا!

وأشار الأستاذ فهمي هويدي خلال مقاله بصحيفة الشروق إلى قصة سمعها من الشيخ محمد الغزالي، بعد أن انتقد في مؤتمر عام تعديلات قانون الأحوال الشخصية، الذي قيل إن قرينة الرئيس السادات كان لها دور في إصدارها، ونقل إلى السادات أنه هاجم السيدة قرينته (ولم يكن ذلك صحيحًا)! وبسبب هذه الوشاية أطيح بالشيخ الغزالي فألغيت وظيفته، ونقل «مستشارًا» في مسجد آخر بالجيزة لم يكن له مكان فيه، فما كان منه إلا أن قبل عرضًا للعمل أستاذًا للشريعة بإحدى الجامعات السعودية.

غاب الشيخ هناك نحو أربع سنوات، ثم عاد إلى مصر، ولسبب أو آخر أصدر السادات قرارًا بتعيينه وكيلًا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة.

أبلغ الشيخ بالقرار، ودعي إلى لقاء الوزير لاستلام منصبه، وفي اللقاء اقترح عليه الأخير أن يبعث ببرقية شكر إلى الرئيس، يحييه فيها ويؤيده. فرفض الشيخ كتابة البرقية، وقال للوزير إن الرئيس هو من أساء إليه، ولكن الله هو من أنصفه ورد إليه اعتباره!

وحين ضغط عليه الوزير خرج الشيخ من مكتبه غاضبًا. وما إن وصل إلى بيته حتى بعث إليه باستقالته من وكالة الوزارة، وقعد في بيته!

ومما حصل له في الجزائر، أثناء وبعد دوره الكبير في إنهاض الإسلام بها أوائل الثمانينيات الفائتة أن اعتبر بعضهم حصوله على وسام الأثير عمالة للشاذلي بن جديد!

تقول الشروق الجزائرية (الغزالي: قصته مع الجزائر والشاذلي والمتشدّدين) 18-02-2013:

......إن الجامعة الإسلامية تدين لشخصين ضمن قافلة الذين بعثوا صرحها، وهما: الراحل الشاذلي بن جديد الذي دشنها عام 1984 والراحل الشيخ محمد الغزالي، الذي رأس مجلسها العلمي لمدة خمس سنوات كاملة، عاشها في مدينة قسنطينة، بعد أن وجد الدعم الكامل من طرف الرئيس الشاذلي بن جديد، ولولا المرض المركب الذي أصابه لأكمل مشواره في الجزائر!

وقد حدث في أواخر أكتوبر من عام 1988 عندما كان الشيخ الغزالي يقدّم دروسًا كعادته في قاعة مالك بن نبي بالجامعة الإسلامية، أن سأله أحد طلبته من المتشددين عن سرّ العلاقة التي تجمعه مع السلطة في الجزائر.

وحاول الشيخ الغزالي التهرّب من السؤال، الخارج عن نطاق الدرس الفقهي، فقام الطالب بعصبية وقال للشيخ الغزالي: كلنا نعلم أنك عميل للرئيس الشاذلي بن جديد!

فطأطأ الشيخ الغزالي رأسه ثم ردّ بالحرف الواحد: لو كنت أبحث عن المال، وملازمة الحكام لما رفضت العروض المغرية من ملوك وأمراء الخليج العربي، مع الإشارة إلى أن الغزالي عندما جاء إلى قسنطينة وقبل بعرض الشاذلي كان حينها رئيسًا للمجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة، وكان قد جاوز السابعة والستين.

وهي الحادثة التي قال بعض تلامذة الشيخ بأنهم لم يروه على مدار تدريسه في قسنطينة أبدًا غاضبًا، كما حدث خلال هذه المحاضرة؛ حتى إنه غادر المدرج والدمعة تهرب خفية من جفنيه، ومع ذلك فلا الجامعة ولا الدولة عاقبت هذا الطالب؛ ما يدل على هامش الحرية الكبير في فترة الشاذلي وأيضًا في تعامل الشيخ الغزالي مع الأحداث الطارئة، فكان يسامح!

الغزالي ثوريًّا

الغزالي ثوريًّا

وبدهي أن يكون رجل حر النفس، حاد الطبيعة كالشيخ، يهتم لأمر دينه، وقيمه، وبلده، إذا رأى ما يضر وطنه، أو يخدش ثوابته، أو يجرح كرامته، يثور، ويشعلها نارًا على من اجترأ أو تمادى! فهو يشعل النار، وتشعل له النار! ويسعر الحرب، وتسعر عليه!

وكم خاض من المعارك مع الساسة النافذين، ومع الشيوعيين، والناصريين، والعلمانيين، ومع أصناف من المتدينين الأغرار التائهين، وعاش حياته كلها في سخونة؛ حتى ختم الله تعالى له بالوفاة مقبلًا لا مدبرًا، كارًّا لا فارًّا، مواجهًا عدو دينه وعدوه!

يقول الشيخ رحمه الله في مذكراته: إنني منذ نعومة أظافري أهتم بالأحوال العامة، وأكترث للمبادئ التي يعتمد عليها الحكم، وأتعشق الحرية والعزة، وأكاد أذوب إذا تورَّطت فيما يعاب، وأصادق بإخلاص، وأعادي الخصوم بنزاهة، وأتطلع إلى الصدارة، وأبذل ثمنها بطيب نفس!

ويقول شيخي القرضاوي: لقد عاش الشيخ الغزالي حياته كلها حر الفكر والضمير، حر القلم واللسان، لم يعبد نفسه لأحد إلا لربه الذي خلقه فسواه، لم يبع ضميره ولا قلمه لمخلوق كان. وكم حاول أصحاب السلطان أن يشتروه، ولكنهم لم يقدروا علي ثمنه. وكيف يمكن أن يشترى من يريد الله والجنة؟! ولقد لوح له بالمناصب التي يسيل لها لعاب الكثيرين من عبيد الدنيا، ولكن الشيخ لم تلن له قناة، ولم يغره وعد، كما لم يثنه وعيد. لقد كان يتمثل بالشافعي رضي الله عنه وهو يقول:

أنا إن عشت لست أعدم قوتًا	وإذا مت لست أعدم قبرا!
همتي همة الملوك.. ونفسي	نفس حر ترى المذلة كفرا!

ومما يذكر للشيخ الغزالي هنا: أنه رفض الخضوع لأهواء العوام، كما رفض الخضوع لسلطة

الحكام. وكتب مرة مقالة يقول فيها: أهواء العامة لا تهادن. ولم يحاول أن يزايد بأرضاء الجماهير، علي حساب ما يراه حقًّا في دينه، كما يفعل ذلك بعض (الأدعياء) الذين يحسبهم الناس (دعاة). وما أعظم الفرق بين الدعاة والأدعياء!

..........لقد عاش الشيخ رحمه الله بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدًا: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يؤتي الدين من قبله وتفريطه، بل يجب أن يتنبه دائمًا لأعدائه في الداخل والخارج، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعًا ذائدًا، بل مقاتلًا مهاجمًا، فخير وسيلة للدفاع الهجوم، لا يلقي السلاح، ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة، والحرب علي الإسلام وأمته دائرة، لم ينطفئ لها أوار، والدم الإسلامي مستباح، وأكثر الموكلين بالحراسة يغطون في نوم عميق، أو مشغولون بالجدل حول فروع المسائل، وصغائر الأمور!

وعن ثوريته المبكرة يقول في مذكراته: وأذكر أن قريتي الصغيرة نكلا العنب، محافظة البحيرة شاركت في الثورة العامة ضد الإنجليز، وقطعت أسلاك الهاتف وأعلنت التمرّد!

وجاءت فرقة من جيش الاحتلال وعسكرت أمام أحد المساجد، واستخفى الناس في البيوت، وقتل أحد الفلاحين الذين لم يلتزموا بتعليمات منع التجول!

وقد علق بذاكرتي ما حدث في ذلك اليوم، وكانت أمي تحملني على ذراعها، ونحن ننظر إلى الجيش الزاحف، من فوق سطح بعيد؛ أظنني يومئذ في الثالثة من عمري، فقد ولدت في 22 سبتمبر 1917، وكانت هذه الثورة سنة 1920 للميلاد!

ولما كنت يافعًا تولّى إسماعيل صدقي باشا الحكم، فألغى الدستور القائم، وجاء بدستور آخر،وقبل ذلك كان محمد محمود باشا قد عطل الدستور مؤقتًا، ومهّد للضربة القادمة!

وكانت الأمة كلها ضد هذه التصرفات، وترى أن القصر وأحزابه يعملون لمصلحة إنجلترا ضد جمهرة الشعب المصري، وكان الطلاب المصريون يقودون حركة تمرُّد لا آخر لها؛ فلم يكن عجبًا أن

يشارك معهدنا في هذه الثورات، ولم يكن مستغربًا أن أكون بين قادتها.

- وقد دفعت ثمن ذلك غاليًا، قدت إحدى المظاهرات العنيفة، وحُقّق معي، ثم أفرجت النيابة عني بكفالة مالية قدرها جنيهان، دفعها أبي وهو يلهث من الإعياء. ومضت القضية في طريقها العتيد، وما كنت أدري ما يفعل بي؛ لولا أن قانونًا بالعفو العام شملها فيما شمل من أمثالها، ونجوت من السجن.
- وقُدت أخرى داخل المعهد، وبعد التحقيق رُئي فصلي سنة من الدراسة، أو بعبارة أخرى رئي منعي من دخول امتحان آخر العام، وكنت في السنة الثانية الثانوية، فعزَّ عليَّ أن أتخلف سنة عن زملائي فتركت الدراسة نهائيًّا، وانفصلت من المعهد، وقلت: أتقدم لامتحان الشهادة الثانوية القسم الأول من الخارج.

وكانت مغامرة لا يقدم عليها أحد! ورأيت أبي رحمه الله يكاد يقتله الحزن؛ لخيبة أمله في مستقبلي، وفي الرؤية التي سيطرت عليه.

- وفي أثناء سجنه أيضًا، كان ثوريًّا متمردًا، يقول شيخي القرضاوي في سيرة ومسيرة:

(...وبمجرد نزول الإخوان إلى أحذيتهم (العنبر أو القطاع الذي سجنوا به) كان أول ما فكروا فيه: أن ينشئوا في كل حذاء مسجدًا، ويختاروا له إمامًا يؤم الإخوة في الصلوات الخمس. ولم يكن المسجد إلا قطعة أرض معلمة ببعض الحجارة المحددة لمساحة المسجد، وتحدد محراب الإمام. ومن حسن حظي أن كان إمامنا الشيخ محمد الغزالي؛ فقد مَنَّ الله تعالى عليّ أن كنت مع الغزالي في حذاء واحد، وأن يكون هو إمامنا في كل الصلوات.

....وقد لاحظ المعتقلون أن ما يُصرف لنا من أطعمة غير مقبول كَمًّا ولا كيفًا؛ فمن ناحية الكَمّ لا يكاد يعطى كل معتقل ما يشبعه، أو ما يقرب من الشبع، ومن ناحية الكيف كانت الأطعمة غاية في الرداءة.

ومن هنا خطب الشيخ الغزالي خطبة الجمعة، ثم قاد المعتقلين في مسيرة أو مظاهرة، تطالب بحقوقهم المنهوبة، وتشهر باللصوص الذين يتاجرون بأطعمة المعتقلين، وهتف الشيخ الغزالي ورددنا وراءه: تسقط اللصوصية المنظمة.. تسقط سياسة التجويع.

وبلغ القائد العسكري للمعتقل – ويسمونه (القومندان) واسمه عباس عسكر– ما جرى بعد صلاة الجمعة، وهيجان المعتقلين ومطالبهم، فجاء إلى المعتقل، ليفاوض ممثلي المعتقلين، ففاوضه الشيخ الغزالي وبعض الإخوة، واتفقوا على أن تتخلى قيادة المعتقل عن التصرف في الأشياء المصروفة للإخوان من قِبل الحكومة، وتسلمها إليهم (عينية)، ويتولى الإخوان طهيها وتوزيعها بأنفسهم).

- ويمكن أن نقول إن الشيخ الغزالي هو الشيخ العالم الوحيد الذي قامت من أجله المظاهرات العامة في مصر تأييدًا له كما ذكر الدكتور جمال حماد في مقاله: الشيخ الغزالي.. السياسي المفكر في وجه الطغيان:

المرة الأولى أيام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أثناء وضع الميثاق الوطني، حين اعترض الشيخ الغزالي رحمه الله على الجانب اليساري العلماني من الميثاق، فرسم الرسام الكاريكاتيري صلاح جاهين – الناصري اليساري المفتون بعبد الناصر وداعيتُه الجلد – رسومًا ساخرة في نصف صفحة في (الأهرام) ساخرًا من الشيخ الغزالي وعمامته، فخرجت الجماهير المصرية المسلمة غاضبة، وحطمت واجهة جريدة الأهرام، واضطر جاهين أن يقدم اعتذارًا، واضطرت الأهرام أن تنشر اعتذارًا أيضًا، (وسيأتي تفصيل ذلك).

- والمرة الثانية في عهد الرئيس الراحل أنور السادات، أثناء تغيير قوانين الأحوال الشخصية فاعترض الشيخ، وخرجت الجماهير المسلمة بتحريض من الشيخ الغزالي.

وعن ثوريته كتب د. محمد مورو (الشيخ محمد الغزالي في ذكرى ميلاده):

دفع الغزالي الثمنَ من حريته مرات: مرة سنة 1949م، وثانية سنة 1965م، ثم ثالثة حيث أُجْبِر على الهجرة عام 1973م بعد أحداث الكلية الفنية العسكرية 1973!

- كان الشيخ محمد الغزالي من أكثر الذين حرَّضوا الفلاحين للثورة ضد ظلم كبار ملَّاك الأراضي، ودافع بعلمه ونفسه عن هؤلاء الفلاحين الذين انتفضوا ضد كبار ملاك الأراضي في كُفُور نجم، وبهوت، وميت فضالة، وغيرها من قرى الريف المصري سنة 1949م – 1951م.
- وقاد الشيخ محمد الغزالي المظاهرات من الأزهر الشريف ضد تطاول رسَّام الكاريكاتير المعروف صلاح جاهين على الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، وفَضَّل الهجرة إلى خارج مصر!
- وبعد عودة الشيخ محمد الغزالي قاد الرجل بنفسه المظاهرات الأسبوعية، التي كانت تخرج من مسجد الفسطاط بضاحية مصر القديمة؛ حيث كان الشيخ الغزالي يخطب ضد كامب ديفيد، أو المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، أو التصدي لتغيير قانون الأحوال الشخصية؛ بما يلائم هوى السيدة جيهان السادات، حرم الرئيس المصري الراحل أنور السادات.
- ولم ينقطع الشيخ الغزالي عن حركته النضالية؛ حتى بعد أنْ تم إبعاده قسرًا عن منبر مسجد الفسطاط في الثمانينيات، وما زال ينتهز الفرصة للخطابة من خلال صلاة العيد في الخلاء، أو خلال الدعوات التي تأتيه من طلاب الجامعات، أو التجمعات الحزبية والسياسية المختلفة، وفي كل مرة يناقش الشيخ محمد الغزالي أوضاع الشعب المصري وكل الشعوب العربية والإسلامية، ولا يترك فرصة إلَّا واستغلَّها للتنديد بالاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وحتى ممارسة النقد الذاتي للحركة الإسلامية).
- وقد يبلغ الأمر بالشيخ حد أن يجازف بنفسه، وستجد في هذا الكتاب مواقف كثيرة من هذا الباب! ومما كتبه الشيخ بنفسه ذات مرة: (ولا بأس أن أقصَّ محنة مرت بي؛ فقد ألفت كتابي: الإسلام في وجه الزحف الأحمر خلال أيام عصيبة، كان صوت الشيوعية عاليًا، وكان السلطان معها، وكان التجهم عليها خرابًا للبيت، وطريقًا إلى السجن!

ونظرت إلى صحائف الكتاب في يدي قبل أن أدفع به إلى مطبعة بعيدة، وقلت: ربما كان موتي في هذا الكتاب! ولكن نفسي قالت لي: بئست الحياة أن تبقى بعد أن يموت دينك، فمضيت في طبع الكتاب، وليكن ما يكون)! رحمه الله تعالى وتقبل منه!

وسيأتي المزيد من ذلك أثناء الكتاب!

الغزالي مقاتلًا

الغزالي مقاتلًا

في مقدمه كتاب: (قذائف الحق) قال الشيخ: أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التي نزلت بأمته، كي يبنوا أنفسهم علي أنقاضها. يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قررنا نحن أن نبقى، وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة، ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة!

....إن الله أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه. وأكد عليهم ذلك في قوله تعالى: (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) آل عمران: 187 فما بد من البيان وعدم الكتمان.

وأعلم أن ذلك قد يعرض لمتاعب جسام، ولكني أقول ما قال صديقنا عمر بهاء الدين الأميري:

الهول في دربي وفي هدفي	وأظل أمضي غير مضطرب!
ما كنت من نفسي على خور	أو كنت من ربي علىِ ريَب!
ما في المنايا ما أحاذره	الله ملء القصد والأرب!

إنه نوع من إعلان الحرب، أو قبول النزال، دون مهابة، ولا ريث، ولا وجل!

وأنا أزعم أن الشيخ رحمه الله ما عاش مساحة من عمره هادئة، بل كان دائمًا في اشتباك مع خصوم الإسلام، ومناوئيه، من كل الأطياف:

- ففي بداياته عارض الإنجليز، وثار من أجل الدستور، والمظالم، وكتب القصائد، ودبج المقالات!
- وعارض الحكومة زمن فاروق، وعبد الناصر، والسادات، ومبارك، ودفع الثمن اعتقالًا وإقصاء وتشويهًا!
- وفضح الصهاينة المحتلين المستبيحين التوراتيين القتلة!

- وكشف عوار اليساريين المجترئين على الإسلام، ودفع الثمن تقبيحًا وتلفيقًا!
- وخاصم العلمانيين الإقصائيين الغلاة، كارهي الدين والاستقامة والطهر!
- وواجه التكفيريين وغلاة الإسلاميين في مصر والجزائر والخليج، وحيث وصلت جهوده!
- وجبه شيوخ السلطان، وفساد المناهج، وهزال الوسائل، وعجز الثقات!
- واشتغل على محاور الكتابة والخطابة والصحافة والإذاعة والتلفاز والمحاضرة والمناظرة..
- وبقى فارسًا على صهوة همته، حتى مات واقفًا في حالة مواجهة مع أبلهٍ يتهمه بعداوة السنة المشرفة، وهو بها حفي، ولها خادم!

والخلاصة أن حياته رحمه الله تعالى كانت صراعًا لا يتوقف، فهو دومًا في مواجهة، في منازلة، وفي مدافعة، وفي استبسال؛ لا يكل، ولا يني!

اعتقل الشيخ بسبب نشاطه المكثف ضمن جماعة الإخوان المسلمين سنة 1949 قبل أن يتركها، وقضى في معتقل الطور في شبه جزيرة سيناء قرابة العام، وقد وصفه شيخي القرضاوي رفيقه في المعتقل بقوله: كان يصلي بنا الصلوات الخمس، ويقنت بنا قنوت النوازل، ويلقي علينا محاضرات في موقف الإسلام من استبداد الحكام!

ثم اعتقل في عهد جمال عبد الناصر لموقفه الشجاع بالإذاعة بعدم وصف الإخوان المسلمين بالإرهابيين قائلًا: أما شتم الإخوان وحدهم؛ فليس من خلقي أن أجهز على جريح!

وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يده، فلم تلن له قناة؛ بل كان همه أن يستبقي للدعوة وجودًا في ذلك الظلام الذي ساد مصر فترة الستينيات!

وصودرت كتبه، ومنع من الترقية الوظيفية بسبب مواقفه ضد الشيوعيين، حيث كوفئ بأن هبط من مدير المساجد المصرية إلى مجرد مفتش لها، ليضيع منه جزاء خمسة عشر عامًا في سلم الوظائف!

ومنع من الخطابة، ثم حاول الرئيس أنور السادات إلصاق تهمة الإرهاب به، حتى اضطر – مع

تلك المضايقات – إلى الهجرة خارج مصر عدة سنوات!

يقول شيخي العلامة القرضاوي:

عاش الشيخ الإمام رحمه الله عمره كله محاربًا للقوى المعادية للإسلام في الداخل والخارج، والتصدي لتياراتها، والعمل علي هدم أوكارها، وهتك أستاها، وكشف عملائها. وهو هنا مقاتل عنيد، لا يستسلم ولا يطأطئ، ولا يلين يومًا.

وقف في وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها (أحقاد وأطماع)/ وفي وجه الصهيونية، التي اغتصبت الأرض المقدسة وشردت الأهل، وخططت لهدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان علي أنقاضه/ وفي وجه التنصير، الذي يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم، ليصبح المسلمون عبيدًا للصليبية الغربية/ وفي وجه الشيوعية التي سماها (الزحف الأحمر) ونبه علي خطرها من قديم، واكتساحها للجمهوريات الإسلامية في آسيا/ وفي وجه الحضارة المادية وإباحتها الجنسية، وعصبيتها العنصرية، ومحاولتها للسيطرة الإمبريالية، وإن لم ينكر ما فيها من عناصر إيجابية يمكن الاستفادة منها/ وفي وجه العلمانية اللادينية، التي تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، تريد الإسلام عقيدة بلا شريعة، وسلامًا بلا جهاد، ودينًا بلا دولة، واتباعًا أعمى للغرب شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع)!

(وقد بدا الشيخ هذه المعركة من قديم، حين رد علي صديقه الشيخ خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نعلم) ولكنه لم يقس عليه، وكان يظن به خيرًا، وأنكر على الأزهر حين فكر بعضهم أن يجرد الشيخ خالدًا من شهادة العالمية، وقد صدقت الأيام ظن الغزالي، وعاد خالد إلى رحاب

الإسلام الذي نشأ في ظله، وتربى في أحضانه.

وبقدر لين الشيخ الغزالي مع الأستاذ خالد، كان نارًا تكوي وتحرق، على العلمانيين المعادين علنًا لشريعة الإسلام. وهو يقول لماذا لا نسمي هؤلاء باسمهم الحقيقي!؟ إنهم المرتدون!

وقاتل الشيخ رحمه الله تعالى على جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام (كما كتبت آية إيهاب) الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه، ويهشمون وجهه من حيث يظنون انهم يدفعون ذبابة عنه! هؤلاء الذين سماهم الشيخ (الدعاة الفتانين) الذين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

لقد كان يشكو من دعاة أغلبهم نكبة علي الإسلام، وقذًى في عينه! انهم لا يقرؤون ولا يعانون، والقليل من الحقائق لديهم لا يضعونه في موضعه الصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة، ولا بكاة، لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضي السحيق، ولا يدركون ما جد حولنا، ولا الطفرات الهائلة التي قفزت بها الحياة علي أرضنا)!

وهو الذي كتب في ذلك عشرات المرات ملتاعًا متحسرًا غضبان أسفًا: (الولاء الشكلي للإسلام مخادعة! ومن المستحيل أن نرتبط روحيًّا ومنهجيًّا بالماركسية أو بالصليبية؛ وفي الوقت نفسه ندعي الإسلام! يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكن عده مسلمًا! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهوًا ولعبًا)!

(وقد تأملت في أحوال ناس يعملون في الحقل الإسلامي، ويتحمسون لنصرة دينهم.. ولكنهم يحملون في دمائهم جراثيم الفوضى القديمة، والجهالة المدمرة! فأدركت أن هؤلاء يتحركون في مواضعهم، وأنهم يوم يستطيعون نقل أقدامهم فسيتجهون إلى الوراء لا إلى الأمام، وسيضيفون إلى هزائمنا الشائنة هزائم قد تكون أنكى وأخزى)!

وأسوق هنا معارك الشيخ رحمه الله تعالى، مع خصوم شتى للعقيدة والأمة والحق والحرية

معاركه مع الحكومات ورموزها:

بدأت معارك الشيخ رحمه الله تعالى مع الحكومات ورموزها في مصر مبكرة، منذ مطالع حياته، وأعتمد هنا على مذكراته الشخصية، وما كتب عن ذلك في وسائل الإعلام وكتابات أخرى!

معاركه قبل ثورة يوليو 1952:

يقول رحمه الله في مذكراته: إنني منذ نعومة أظافري أهتم بالأحوال العامة، وأكترث للمبادئ التي يعتمد عليها الحكم، وأتعشق الحرية والعزة، وأكاد أذوب إذا تورَّطت فيما يعاب، وأصادق بإخلاص، وأعادي الخصوم بنزاهة، وأتطلع إلى الصدارة وأبذل ثمنها بطيب نفس!

لما كنت يافعًا تولّى إسماعيل صدقي باشا الحكم، فألغى الدستور القائم، وجاء بدستور آخر، وقبل ذلك كان محمد محمود باشا قد عطل الدستور مؤقتًا، ومهّد للضربة القادمة!

وكانت الأمة كلها ضد هذه التصرفات، وترى أن القصر وأحزابه يعملون لمصلحة إنجلترا ضد جمهرة الشعب المصري، وكان الطلاب المصريون يقودون حركة تمرُّد لا آخر لها؛ فلم يكن عجبًا أن يشارك معهدنا في هذه الثورات، ولم يكن مستغربًا أن أكون بين قادتها.

وقد دفعت ثمن ذلك غاليًا: قدتُ إحدى المظاهرات العنيفة، وحُقّق معي، ثم أفرجت النيابة عني بكفالة مالية قدرها جنيهان، دفعها أبي وهو يلهث من الإعياء. ومضت القضية في طريقها العتيد، وما كنت أدري ما يفعل بي؛ لولا أن قانونًا بالعفو العام شملها فيما شمل من أمثالها، ونجوت من السجن.

وقُدت أخرى داخل المعهد، وبعد التحقيق رُئي فصلي سنة من الدراسة، أو بعبارة أخرى رئي

منعي من دخول امتحان آخر العام، وكنت في السنة الثانية الثانوية، فعزَّ عليَّ أن أتخلف سنة عن زملائي فتركت الدراسة نهائيًا، وانفصلت من المعهد، وقلت: أتقدم لامتحان الشهادة الثانوية/ القسم الأول من الخارج. وكانت مغامرة لا يقدم عليها أحد! ورأيت أبي رحمه الله يكاد يقتله الحزن لخيبة أمله في مستقبلي، وفي الرؤيا التي سيطرت عليه.

إن هذه الشهادة كانت تمثل آخر تطبيق للنظام الإصلاحي الذي وضعه رجل تتلمذ على الشيخ محمد عبده، وكانت فرقتنا آخر من حصل على هذا النوع من الشهادات، وعُدّلت البرامج بعد ذلك تعديلًا حذف كثيرًا من المواد الرياضية والعلمية والإنسانية العظيمة النفع.

وكنا نتحدث فيما بيننا أن الشيخ المراغي سئم تكاليف الجهاد العلمي وآثر الراحة بالتعاون مع الأحزاب المتعاونة مع القصر، وترك الأزهر حبله على غاربه، فأخذ التعليم الديني ينحدر رويدًا رويدًا!

طلبنا مقابلة رئيس الوزراء – وكان مصطفى النحاس باشا – للتفاهم معه، فحدد لنا الرجل موعدًا ضحى أحد الأيام، ودخلت أتقدم زملائي، فرأيت الباشا مُتجهِّمًا، وبعد أن نظر إلينا بازدراء قال لنا: إنه مؤمن بالله، وإنه أكثر إيمانًا من شيوخنا، وإنه كان في المعتقل لا يدع صلاة! ثم شرع يوجِّه إلينا نقدًا أشبه بالسباب! ونظرت إلى الرجل فوجدته غير متكلف، وشعرت أن لشعبيته أساسًا من بساطة خلقه، ورأيت أن أقاطعه على عجل قبل أن ينال منا! فقلت له: إنك تحكم بلدًا يُصدر تراخيص بالزنا، ويفتح حانات الخمور، ويحل ما حرّم الله! فأين ما تحكي عنه من إيمان وصلاة؟

وقدمت له مطالبنا، فأخذها ورمى بها في وجهي، وكان معه الشيخ محمد البنا وكيل الوزارة

للشؤون الدينية، فقال بأدب جم: مهلًا يا رفعة الباشا، إنهم يطلبون بعض الإصلاحات الاجتماعية التي تفكر فيها، والتي سبق أن كلمتني عنها، وأخذ ورقة المطالب، وانسحب إلى غرفة أخرى.

وكوّنت عدة أحكام على أوضاعنا المختلفة، كان لها أثر في حاضري ومستقبلي! ففي أعقاب لقائي برئيس الوزراء، وزعيم حزب الوفد، مصطفى النحاس باشا، قلت لمن معي: هذه هي الديمقراطية الغربية بخيرها وشرها!

طالبنا بمقابلة الرجل فلقينا، وأسمعنا رأيه فينا، وأسمعناه رأينا فيه! وبعد نقاش عاصف أذن لأحد مساعديه أن يجتمع بنا، ثم عدنا إلى أعمالنا العادية، فما صدر أمر بنقل موظف، أو فصل طالب، أو اعتقال إنسان!

قلت لأحدهم؛ وكان يكابرني: ما الفرق بين دستور سنة 1923؛ والدستور الذي جاء بعد أيام الانقلاب الناصري فقال بعد تحيُّر: لا أدري ولا يضرني هذا الجهل!

قلت: تدري فقط أن تثير الشغب حول الصلاة بالنعل أو بدونها، وحول انتقاض الوضوء من لمس المرأة أو عدم انتقاضه! فإذا اتصل الأمر بقدرة حاكم ما على تخريب البيوت، وتعمير السجون، وحرق الكرامات، وترويع العائلات؛ قلت: الجهل بأسباب ذلك لا يضر!

إن العودة إلى الكتاب والسنة عنوان جميل، وسيكون هذا العنوان على فراغ قاتل يوم يتاح للفراعنة أن يتخطفونا؛ مستندين إلى دستور وضعوه، لم نعرف نحن لِمَ وُضع وكيف؟

قال لي أخ آخر يرقب الحوار: لا تنس أن الدستور الذي نَوَّهتَ به مستورد من الخارج!

قلت: لا أنسى ذلك؛ إنه فعلًا مترجم، ومنقول عن جملة من الدساتير الأوربية الحديثة، وليس كل ما جاء من الخارج يعاب؛ إن القوم حصّنوا أنفسهم ضد المظالم المتوقعة بهذه المبادئ القانونية! فإذا كنا في مصر نتعرض لذات المرض، فلا حرج من مواجهته بالحصانة المجرّبة! إننا نرفض الاستيراد إذا

كان ما نجلبه مضادًا لما عندنا، أو كان عندنا ما يغني عنه!

وفي أواخر الأربعينيات اشتعلت معركة حامية؛ بعد أن ألف كتابه الأول الإسلام والأوضاع الاقتصادية الذي كتب فيه: (من العسير جدًّا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عاريًا»، وقد هاجم فيه الإقطاع وما يتعرض له الفلاحون والعمال من ظلم واضطهاد شديد. وحينها يعتقل الغزالي عام 49 ليقضي في معتقل الطّور عامًا واحدًا، ثم تكرر اعتقاله عام 1965 ليسجن هذه المرة في سجن طرة

وقد كتب من محبسه في معتقل الطور كتابه الإسلام والاستبداد السياسي ليقول عن حاله وحال من كبل رأيهم: (إنه من فضل الله علينا أن رفضنا السير في موكب العبيد، وأننا شننّا حربًا ضارية على الفساد الملكي، وحواشيه وذيوله وظاهره وباطنه، وجرّأنا العامة على النيل منه، والتهجم عليه. ولئن كانت ثورة الجيش قد أفلحت في اكتساح هذه المساخر؛ فإن ذلك بتوفيق الله، ثم بما نشرنا في طول البلاد، وعرضها من أفكار حرة، ضد الاستبداد والفوضى)!

وكم كان معتزًّا بهذا الكتاب؛ حتى قال عنه: (....أشهر كتبي عندما هاجمت فيه الطغيان وفساد الحكم، وأسميته (الإسلام والاستبداد السياسي) وكان ذلك في أواخر الأربعينيات، وكان هذا اليوم من أهم أيام حياتي، وأعتبره نقطة انطلاق لي! بمجرد أن نزل الكتاب إلى الأسواق فوجئت بالحكومة كلها تهتز وتصدر قرارًا بمصادرة الكتاب!

وأحسست أن القصر الملكي اهتز بشدة من هذا الكتاب! وقبض عليّ، وقدمت للمحاكمة بتهمة مهاجمة الحكومة، وخرجت من هذه القضية بدون أن يثبت علي شيء)!

(كنت واحدًا من الذين حاربوا الإقطاعيين أيام الملك السابق، وها أنا ذا في عهد الثورة، وقد ذهب الإقطاع القديم فماذا أرى؟: إن عبود باشا اغتنى من إنشاء شركات أسمدة، وبواخر، وسكر. إلخ، فكيف اغتنى فلان، وأصبح عضوًا في مجلس الشعب؟ قالوا: من تجارة المخدرات!

أكان الأول عدوًّا للشعب لأنه اغتنى من طرق قانونية، والآخر صديقًا للشعب؛ لأنه اغتنى عن طريق الحرام والملق والرشوة؟

ثم ما بال أولئك المنفيين في الواحات والسجون النائية؟ أيُكتب الشقاء على كل امرئ منهم، لأنه قال: أريد الحكم إسلاميًّا! إلى متى يرسفون في قيودهم؟

تساؤلات كثيرة كانت تهجس بها نفسي، وأنا أمشي على صراط أحدٍّ من السيف، وأدَقّ من الشعرة، كي أستبقي للدعوة وجودًا وسط هذا الظلام!

ب: معاركه مع عبد الناصر وفي عهده:

اصطدم الغزالي بعبد الناصر، وحكومته، ودخل في معارك عديدة، وطرد من وظيفته، وظلم في ترقياته، وضيق عليه! وقد رأى في عبد الناصر: خائنًا عميلًا، مارقًا، كذابًا، مهزومًا أبدًا، مفتونًا بموقعه، يتزلف المنتفعون من وجوده، وان يعتبره قد مات فعليًّا سنة 1967! يقول رحمه الله في مذكراته:

وبعد فترة قليلة من قيام ثورة 23 يولية 1952 – وهي في حقيقتها انقلاب عسكري، دُبِّر بعناية لغايات معينة – ألفت عدة كتب، مرَّ بعضها بسهولة، واعترضت وزارة الداخلية على كتابيَّ: الاستعمار أحقاد وأطماع، وكفاح دين.

فأما الأول فقد رفضت النيابة الاعتراض، وتركته ينشر! وأما الثاني فقد أقرت عدم النشر، ورفعت الأمر للقضاء، كي يبتّ في القضية في جلسة أحضرها، وأناقشُ فيها!

وطُلبت إلى المحكمة، فذهبت وأنا شاعر بالحرج؛ لأن مصادرة كتاب لي شيء ثقيل الوطأة على نفسي، والخسارة الأدبية والمادية شديدة، ثم إن عملي في الوزارة أحاطت به الظنون، والأعداء متربصون، وسيقال: استغلّ منصبه الديني في تعكير الأمن العام! ووقفت أمام المحكمة، وكان رئيسها مستشارًا نزيهًا شجاعًا:

– قال: أنت مؤلف هذا الكتاب: كفاح دين؟ قلت: نعم!
– ألا ترى أن فيه فصولًا وبحوثًا مثيرة؟
– قلت: المهم أن تستيقن المحكمة من صدق ما قيل؛ فإذا كان ما أثبته حقًّا فلا أُلام على تقريره!
– قد يكون الكلام حقًّا؛ ولكن ليس كل ما يعلم يقال، فربما أهاج ذكره الخواطر، ونحن بحاجة إلى الهدوء!

– قلت: أنا أحصيت أسماء المساجد التي هدمت في القاهرة وحدها؛ كي أوقف هذا التخريب العمد لبيوت الله، وذكرت أن في مصر الجديدة وحدها 34 كنيسة، و7 مساجد فقط، مع أن نسبة المسلمين هائلة، ونسبة الأقباط دون العشر، فهل أنا أخطأت في ذكر الأعداد؟ إنني استقيت معلوماتي من بلدية القاهرة 1957.

قال الأستاذ المستشار: ليس لديَّ ما يخطّئ هذه الأعداد التي ذكرتها، وإنما المخوف من طريقة العرض؛ فهي تبعث على البلبلة!

– قلت: سيدي المستشار، قد يسير رجل في الطريق فيرى لصًّا يعالج باب دكان يريد كسره ليسرقه، فيقول في نفسه لو تعرضت له ربما أصابني، فيدعه ويمضي لشأنه! قد يعذر على نحو ما هذا الجبان!

لكن ما الرأي إذا كان الفارُّ من وجه اللص واحدًا من رجال الشرطة؟ إنه يعد خائنًا يقينًا، لأن مهمته حراسة الأمن!

– قال الأستاذ المستشار: هذا صحيح!

قلت: فأنا – في وظيفتي الرَّسمية – حارس للإيمان، سأكون خائنًا إذا سكتّ عن هدم المساجد، أو غلبة غيرها عليها!

شعرت بأن الأستاذ العادل رئيس المحكمة قد تغيَّر وجهه، وأخذت صورة من التفكير الجاد والتجرُّد لله تظهر على ملامحه، وأخذ يناقشني بشيء من الحنوّ والهدوء، ويقلب صفحات الكتاب، ويسألني عن بعض الحقائق العلمية، ثم أصدر حكمه برفض المصادرة، وترك الكتاب للتداول الحرّ!

صفّق قلبي بين جوانحي، وخرجت من الجلسة شاكرًا، وإذا رجال الشرطة يلقونني ببرود أقرب إلى السخرية! إن إجراءات الداخلية لا توقفها أحكام القضاء، فقد تفرج المحكمة عن شخص، وتعتقله الداخلية لأسباب لديها!

وصودر الكتاب،فلم يفرج عنه إلا بعد أن مات جمال عبد الناصر فاتح باب الحرية، الرئيس الكبير القلب)!

ويقول رحمه الله تعالى: (...وكانت مصر في أوائل الستينيات تتجه نحو الشيوعية، وتطبق أوامر صارمة ضد الأغنياء عمومًا، وذهب جمال عبد الناصر إلى موسكو، وهناك قيل له: إن ترك الجماعات الإسلامية – خصوصًا الإخوان المسلمين – ينشطون على هذا النحو، سوف يدمّر مستقبل الاشتراكية، فأسرع جمال – وهو لا يزال في موسكو – بإعلان الحرب على الإخوان، وإنذارهم بالويل والثبور!

وكان الشعار الذي تحركت تحته عساكر السلطة هو محاربة الإرهاب! والمرء يدهش للتوافق التام بين منطق الفراعنة في العصر القديم والحديث:

إن موسى لما بعثه الله نبيًا قال لرمسيس؛ فرعون مصر السابق: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسرائيل وَلَا

تُعَذِّبْهُمْ) طه: 47! فكان جوابه بعد أن رأى المعجزات: (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أرضنا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى) طه: 57.

إن موسى يقول له: ابق وحدك في أرضك، وأرسل معنا هؤلاء الذين ضِقت بهم!

فيكون الردّ: أتريد إخراجنا من أرضنا؟ ويمضي فرعون في قلب الحقائق، فيقول: (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ؛ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ، أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأرض الْفَسَادَ) غافر: 26!

فرعون خائف من أن موسى يفسد في الأرض! على هذا العوج في اختلاق التُّهم، والتماس العيب للأبرياء، قيل في دعاة الإسلام إنهم إرهابيون!

ترى لو قال هؤلاء الإرهابيون لأصحاب السلطة: اقتلونا، ونحن بذلك راضون، على شرط أن تتركوا الإسلام يحكم أمته، ويُسيّرها في كل ميدان! أيرضون؟ كلا؛ لأن الحرب ضد الإسلام ذاته!

وفي سبيل ضرب الإسلام ضربة تشرِّد القريب والبعيد، اعتُقل في ليلة واحدة ثمانية عشر ألفًا من العاملين في الحقل الإسلامي، وكنتُ أنا واحدًا من هذه الآلاف!

ومما يروى هنا حكاية تحكي مروءته، واعتداده بقيمه، وربانيته، وقلبه الشفيف، فاقرأ معي:

(قبل أن أصف أحداث هذه الليلة، أريد أن أذكر السبب المباشر الذي أدَّى إلى اعتقالي، وزجِّي في سجن طرة:

طُلبت إلى الإذاعة، فلما ذهبت وجدت عددًا من الشيوخ والإخوان الأقدمين. وكانت التعليمات محددة: إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين، وتحذير الأمة من الثقة بهم، أو التعاون معهم، ويجب أن تقوم بهذا الواجب الوطني على عجل!

تَمَلْمَلتُ فوق كرسيَّ ضائقًا، ولاحظ ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني، ثم كلفوني – بوصفي مفصولًا من الإخوان – أن أبدأ التسجيل!

كان جوابي حاسمًا: أنا على استعداد للحديث عن الإسلام، وضرورة إحياء ما مات من أحكامه! ومستعد لإرشاد المخطئين، حكامًا كانوا أو محكومين، لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ، أمّا شتم الإخوان وحدهم، فليس من خلقي أن أجهز على جريح!

قيل: إنهم فصلوك من جماعتهم؟ فلماذا تُبقي عليهم؟

قلتُ: إذا استضعفوني أيام قوتهم، فلن أستضعفهم أيام حريتي!

وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي! جاءت الشرطة بعد منتصف الليل بساعة، وطرقت الباب ففتحتُ، ودخلوا يديرون عيونهم في أرجاء المكان، ثم أفهموني بأدب أن أجيء معهم!

وعرفت الوضع، وكانت إحدى بناتي قد استيقظت، فصاحت: بابا، فأمسكتها بلطف وقلت: لا تخافي، سأعود بسرعة إن شاء الله، وقلت لزوجتي: أعدي حقيبة فيها عدد من الثياب! وانطلقت السيارة بنا إلى سجن طرة!

نظر الضابط إليّ نظرة سيئة، ثم أمرني أن أخلع ملابسي، وأرتدي ملابس السجن، فاستجبت، ثم نظر مرة أخرى وصاح بغضب: في رجلك جوربٌ؟ ممنوع! فخلعت الجورب، واقتادني اثنان من الجنود إلى الزنزانة المعدَّة لي، وأرياني داخلها، على ضوء خافت، جردلَيْن: أحدهما لقضاء الحاجة، والآخر غطاء! ثم أوصدا الباب وتركاني وحدي في ظلمة يضيئها جو السماء من خلال كُوَّة في السقف!

كان ما حدث كله مباغتة بعيدة التصوُّر! فبقيت مكاني أفكر: كيف سأحيا هنا؟ وعلى أي نحو؟ وهل سأعذب كثيرًا؟

وبينما أنا في استغراقي سمعت أذان الفجر، فصليت إلى ما ظننت أنه قبلة، ولَفَفْتُ حذائي في سراويل معي، وجعلته وسادة، واستغرقت في النوم، بعد أن قلت لربي: جعلت زمامي في يدك،

آمنت بك وتوكلت عليك، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين، لن أفكر في أسرتي أبدًا؛ فهي في ودائعك، اخلفني في أهلي بخير! ثم رحت في سُبات عميق!

وصحَوتُ مع مطلع الشمس، فإذا خنفساء إلى جواري تزحف على الأرض المليئة بالحفر والشقوق، فقلت لها ضاحكًا: متى اعتقلت أنت الأخرى؟ امضي بسلام فلن يمسّك مني سوء!

وبدأتُ قراءة القرآن الكريم، واضعًا نصب عينيّ أن أختمه كل أربعة أيام!

كان الأكل رديئًا جدًّا، ولكنه يقيم الأوَد؛ مهما تقزّز المرء عند تناوله! أما المشكلة التي خشيت منها على حياتي، فهي البرد الذي يهبط من كوّة مفتوحة أبدًا، لأنها المنفذ الوحيد إلى الدنيا، ففي أثناء الليل أشعر بتيار يريد فتح جنبي الأيمن أو الأيسر؛ كلما تقلبتُ! وأين المفر؟!

وتضرّعت إلى السجّان – بعد أن آنست منه نظرات عطف – أن يصنع لي شيئًا، فأتاني بقطعة خيش كبيرة، جعلتها على الأسفلت، واتخذت البطانيتين المهلهلتين غطاءً!

وأحسّ الإخوان المسجونون بمقدمي، وكان بعضهم يتطوع مع الموظفين الرَّسميين في الخدمة والنظافة، فاتفقوا على إراحتي من كنس المكان الذي أعيش فيه، ومن رمي فضلاته بعيدًا، وعرفت بعدُ أن الذي قام عني بهذه المهمة مدرس بإحدى المدارس الثانوية!

في غبش الفجر يومًا ما جاء المدرس النبيل، ومعه أخصائي اجتماعيّ معتقل مثله، وأخذا يؤديان عملهما! ونظرت إلى أنضر شباب مصر يُهانُ عمدًا؛ لأنه مسلم! وهزّني الألم، بيد أني تماسكت حتى انصرفا، فوضعت وجهي تلقاء الجدار، وبكيت في صمت! فلما سمعت خفق أقدامهما عائدين أصلحت هيئتي بسرعة، وكلّماني فرددت عليهما، ونمَّ صوتي عما بي، فإذا هما يقولان: أكنت تبكي؟ فقلت: والله من أجلكما!

فضحكا وقالا: لا تعذيب هنا، نحن هنا في راحة، التعذيب في السجن الحربي، وفي القلعة، وفي...

وذكرا أماكن أخرى! الأهوال هناك أهوال من وراء الخيال!

إنني في كتابي قذائف الحق، نقلت أطرافًا من صنوف النكال الذي نزل بأولئك الشباب فهلك منهم من هلك، وفقد من بقي صوابه أو سكينته، أو طعم الحياة نفسها إلى أن يلقى الله، وذلك كله لتنصرف الأمة عن دينها، لتنسى الإسلام، وتسكت عن المناداة بكتابه وسنته!

ومع المحن السود التي مرّت بالعاملين لهذا الدين إبّان هزيمته؛ فإن ألوفًا مؤلفة من الشباب الأبرار ظلوا أوفياء للحق، مخلصين لله، والغريب أن ضرب الإسلام وبنيه أصبح عادة مألوفة، لكل وغد يملك السلطة، هذا يخدم الشيوعية، وذاك يخدم الصليبية! وكلتا الجبهتين تخدم اليهود، وترى أن إسرائيل خلقت لتبقى! وكلتاهما تعتمد في منهجها السياسي على عقيدة صلبة، أما العقيدة عندنا – وهي الإسلام – فمنكورة محصورة، يستطيع أي تافه أن يتناولها بالهمز واللمز، ثم يمضي لشأنه كأنه لم يفعل شيئًا!

وعُدْت من خواطري إلى الواقع الذي يحيط بي، وتذكرت أهلي وأولادي وعزلتي، ثم لمتُ نفسي سريعًا على هذا الضعف: إنني استودعتهم الله، فلا معنى للخشية، ولقد بقيت في منفي الطور قريبًا من عام؛ فماذا حدث لهم؟ وهذا فلان ترك ابنته طفلة، ثم خرج من السجن فوجدها تزوجت، إنه غاب عنها طويلًا، فهل غاب الله عنها لحظة؟ كلا! وعادت السكينة إلى نفسي، وقررت أن أنكبَّ على تدبُّر القرآن الكريم ما بقيت هنا، وأن أضع نصب عيني قول الله لنبيه: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ، وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا* رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) المزمل: 8-9. وشرعت في إنفاذ خطتي العلمية، مستبعدًا الأمل في مخرج قريب!

وبعد أن صليت العشاء سمعت ضجة غير معتادة، وانفتح الباب، وتدلّى سلك من الكوّة فيه مصباح كهربيّ، ودخل ضابط كبير عرفت أنه رئيس المعتقل، وسألني: شيخ غزالي: تطلب شيئًا؟ قلت: الملابس عندكم! فأمر فجيء بها! وشرعت أرتديها، واقتادوني إلى إدارة السجن، فشربت كوبًا

من الماء لأول مرة من عشرة أيام في إناء زجاجي! ثم نقلتني سيارة إلى وزارة الداخلية، فقلت في نفسي: الآن يبدأ التحقيق!

ووقفت أمام ضابط جالس في ركن الحجرة، وقفت على بعد منه، وتهيأت للأسئلة، وإذا هو يقول لي: تفضل! فنظرت حولي فلم أجد كرسيًّا أجلس عليه!

فأعاد الأمر: تفضل! فقلت له: ماذا أفعل؟ قال: تفضل عد إلى بيتك!

فخرجت وأنا لا أصدق نفسي ولا ما حولي، وسرت قليلًا بجوار الوزارة فوجدت عمارة شاهقة مكتوبًا عليها اسم الجلالة منارًا بالكهرباء!

شعرت برغبة عميقة أن أقبِّل اسم اللهَ لكن كيف؟ طويت حبي في قلبي، وأخذت سيارة إلى بيتي، وكان منظر القاهرة غريبًا أمام عيني، لقد كنت في الجبّ، والآن أن على ظهر الأرض، وعلى قيد الحياة، ما أجمل الحرية! وما أجملها مع الأمن والإيمان!

إذا كان الله قد فكّ إساري فليكن شكري لنعمائه أن أسعى في فكّ إسار الآخرين! لأقل للناس: إن الله حق، وإن الجهاد في سبيله مضمون الثمرات في الدنيا والآخرة!

صحيح أني أهون المؤمنين عذابًا، بيد أني أسرعهم إلى الله كلما دهمني كرب، وما زلت أرجو عافيته، وأفرح بها لنفسي ولغيري من عباد الله!

وفيما أنا أستعد لاستئناف نشاطي، جاء بيتي المهندس أحمد عبده الشرباصي، والشيخ أحمد حسن الباقوري، فخفَفتُ لاستقبالهما! فقال لي الشيخ الباقوري بعد التهنئة بالإفراج: تدري من أخرجك؟

فقلت بصوت عالٍ عجل متحمِّس: الله! وكانت اللهجة مفعمة باليقين والتقدير لربِّ العزَّة!

فسادَ صمتٌ طويل، احترامًا لهذا الإيمان، ثم قال المهندس الشرباصي بلطف: حقًّا إن الله وراء كل

فضل، وهناك مفاتيح للخير، تكون سببًا فيه، وهناك من أجرى الله على يده!

قلت في استغراب: من؟ قال: جمال عبد الناصر، إنه لما حضر من مؤتمر المغرب، بُلّغ بمن اعتقُلوا في غيابه، وكنتَ أحدهم، فسأل: ماذا حدث منه؟ فلم يلق من أحد جوابًا! فأمر بإخراجك فورًا! فنُفّذ أمره ليلًا ساعة صدر!

ألجم هذا الخبر لساني، وكان له دويٌّ هائل في نفسي، ثم قلت: إذن سأذهب إلى قصر عابدين، وأكتب شكري في سجل الزيارات! غدًا الجمعة، سأؤدي واجبي بعد غد!

ولكن يوم السبت لم يجيء حتى أُلقيَ القبض على زوجِ ابنتي الكبرى، وزُجَّ به في السجون مع آخرين، فقلت: أهذا يليق؟ علام الشكر بعد هذا؟ لن أذهب!

وبقي صهري في السجن أربعة أشهر، ثم أفرج عنه، ما سئل في شيء، ولا نُسب إليه شيء!

أحسست أن العمل للإسلام مضطرب، وأن التقوى عقبة أمام صاحبها، تعترض طريقه، فلا يمضي إلى الأمام أبدًا، وأن الكفاية الشخصية جريمة ترشح من أصيب بها للخلف، والاستخفاء، وخَلَتْ مساجد من الشبان فما يصلي الفجر فيها إلا الشيوخ الفانون! الحكم الفردي يأبى أن يسمع من بشر هذه الكلمة:

خُلقتُ عَيوفًا؛ لا أرى لابن حرة *** علىَّ يدًا أُغضي لها حين يغضب!

إنه يفضِّل رجلًا له زلَّة يسترها عليه، لينكّس بها رأسه أبدًا، ويقفه أمامه عبدًا، أما ذو الكفاية الشامخ الذي يناقش طلبًا للحقيقة، ويقررها غير هيّاب، فهذا لا مكان له، ولا ينبغي أن يبقى!

العملة السائدة هي الملق والزلفي، أما الخبرة والنزاهة فتلك عاهات لا أوسمة! وقد فُرضت هذه السياسة على كل شيء في مصر، وأول الميادين نصيبًا من هذا البلاء، الجيش، ثم الأزهر)!

الغزالي في الاتحاد الاشتراكي:

أذكر أن عبد الناصر أنشأ – لغسل عقول الجماهير، وشغلها، وتكوين الأنصار، ونشر الفكر الرافض – تحت ستار الاشتراكية: هيئة التحرير، ثم الاتحاد القومي، ومنظمة الشباب الاشتراكي، والاتحاد الاشتراكي، وقد رأيت مبنى الاتحاد القومي على ناصية شارعنا تقريبًا، ثم في بداياتي دخلت مقر الاتحاد الاشتراكي في قصر السيد بك كشك، على النيل، في زفتا المحروسة، والذي صار بعد ذلك مقر الحزب الوطني أيام سادات كامب ديفيد، أو: معسكر داود!

ولأن الغزالي داعية مختلف، مرن التفكير، فقد رأى أن ينضم للاتحاد الاشتراكي لعله يستطيع من خلاله أن يحق حقًّا، ويبطل باطلًا؛ يقول رحمه الله في مذكراته:

على أية حال، إننا نحن المسلمين نتبع دينًا واضح المحجة، منير النهج، وقد أبحت لنفسي، وأنا في مصر، أن أدخل فيما يسمَّى الاتحاد الاشتراكي، وقررت عن طريقه أن أحاول خدمة الإسلام ونشر الدعوة!

لقد كان أستاذي حسن البنا يقول: أنا لا أخاف العمل مع الشيطان، فلنسر معًا، وسنرى من يفرّ من صاحبه! وإنني سأدخل هذه الهيئة، وسأرى هل سأنتصر بالإسلام أم لا؟

ودخلت الاتحاد الاشتراكي، وكانت تجربة شاقة، لا عهد لي بمثلها: فهناك لجنة أساسية ينتخب الجمهور أعضاءها بطريق القوائم في كل وزارة، أو حيّ، أو مصنع... إلخ؛ ثم يجتمع مندوبو اللجان الأساسية في كل قسم؛ لينتخبوا لجنة القسم أو المركز، ثم يجتمع مندوبو المراكز أو الأقسام لينتخبوا لجنة المحافظة، ثم تجتمع لجان المحافظات لتختار ضعف الأعضاء المطلوبين للجنة المركزية، فيُختار نصفهم لعضوية اللجنة المركزية، ومن اللجنة المركزية تكون اللجنة التنفيذية التي تدير شؤون الدولة تقريبًا؛ لأن الوزراء منها، أو خاضعون لها!

ومن السهل إدراك أن هذا التنظيم صورة لتنظيم الحزب الشيوعي في أي بلد اشتراكي، فالقمة تصنع القاعدة أكثر مما تصنع القاعدة القمة!

وقد رأيت أني في المركز أشاهد أناسًا لا أدري كيف نبتوا، فلا يكاد يعرفهم أحد! يمشون معنا ليصلوا – بقدرة قادر – إلى مستوى المحافظة، ثم يتم تصعيدهم إلى اللجنة المركزية، بطريق الاختيار الصريح من أعلى!

وشاء الله أن أصعد في هذه الدرجات مستوًى بعد مستوًى، حتى بلغت اللجنة المركزية، فاختار المسؤولون أسماء ارتضوها، ورُدَّ اسمي لأنه لا يوثق به! قلت: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون! وأخذت أعمل مكاني، أحاول خدمة ديني!

كان الجو موبوءًا؛ فالشيوعيون رتبوا صفوفهم لقيادة البلد، وغيرهم بين متملق يتسكع على أبواب الرؤساء، أو أناني لا تحركه إلا مآربه المكشوفة؛ وإذا جاء وقت صلاة فما يتحرك إلا قليل! والفكر الإسلامي غريب، واتخاذه شعارًا أغرب، والقضايا تهبط من فوق لتلقى التأييد، والشيطان يذرع الساحة كلها جيئة وذهابًا!

وأذكر أننا في أحد المؤتمرات، سمعت المقرر يعلن باسمنا أننا قررنا تعديل قوانين الأحوال الشخصية! فنهضت من مكاني صائحًا: هذا غير صحيح، لم نقرر شيئًا من هذا، هذا افتعال لا أصل له!

وتواثب الحراس من حولي يشدونني لأجلس، ولما لم يقم أحد معي يرفض هذا الزيف؛ صحت: أنا منسحب من المؤتمر، وخرجت عائدًا إلى بيتي!

ويظهر أن هذا الموقف كان له بعض الأثر، فقد أعيد تنظيم لجنة الأسرة، ووضعت فيها، وكان معنا الدكتور محمد عبد الله ماضي وكيل الأزهر يوم ذاك، وأمكن حجز الشر إلى حين!

لقد لامني بعض الصالحين على قبول عضوية الاتحاد الاشتراكي! والعمل في هذا الوسط الرديء، فقلت له: أنبقى مكتوفي الأيدي والغير يصنع القرارات، ويفاجئنا بما يهوى؟ إن السلبية لا تفيد!

- قال: وماذا صنعت أنت؟
- قلت: أنا وحدي لا أغني شيئًا، إن الجبن في هذه التنظيمات هو سيد الأخلاق! عندما وقفت أعترض المقرر، كان جاري الأيمن وكيل وزارة، والجار الأيسر من كبار الشيوخ في الأزهر، ومع ذلك فإن كليهما فزع، وكأنه لعن الظروف التي قربته مني! إنهما يفقدان شجاعة الإيمان، وقد فهمت لماذا كان حسن البنا حريصًا على التربية الدينية الصحيحة؟

وذكرت أني مسؤول كبير في أجهزة الدعوة، وأني من بضع سنين أخطب الجمعة في الأزهر، فقررت مضاعفة الجهد، وفتق الحيل لعلم إسلامي مثمر، وقلت: تستعد شعبيًّا لعودة أشمل وأسرع إلى الإسلام!

(......ثم جاءت سنة 1967، وجنينا الحصاد علقمًا، لكني ما فكرت قط في أن الخزي الذي نزل يحمل كل هذا السواد، ويلفُّنا في عارٍ لا أول له ولا آخر!

يا أسفًا على بلدي المحروب، وأمتنا المغشوشة؛ في عشرين دقيقة فقط، دُمّرت مطاراتنا كلها، واحترقت طائراتنا وهي جاثمة على الأرض!

ولما كان لدينا أعظم جهاز للكذب في دنيا الناس، فقد خرج الإعلام الموجَّه بجناحيه: الصحافة والإذاعة يقول للناس: إننا دمرنا طائرات اليهود! وما هي إلا أيام تعد على الأصابع، حتى كان الجيش بين قتيل وأسير وهارب، ما أغنى الكذب عنه شيئًا!

وجاءت الأحداث تقول: إن الحكم الفردي الجائر لا يكسب معركة أبدًا! بل الغريب أن أعظم هزائمه كانت في الميدان الذي تخصص فيه!

إن جمال عبد الناصر لم يكسب معركة قط، إلا المعركة التي أدارها ضد إخوانه، وضد الإسلام، وضد كرامات الناس! في هذه المعركة قدر على تخريب آلاف البيوت، وسجن الألوف من الأبرياء، واستطاع أن يدفن في أرض اليمن مائة ألف مسلم، عدا الذين قتلوا سرًّا وعلنًا في مصر!

أسدٌ عليَّ.. وفي الحروب نعامة	فتخاء.. تنفر من صفير الصافر!
هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى!	بل كان قلبك في جناحَيْ طائر!

وإن تعجب فاعجب لجهاز الكذب الذي بقي يعمل دون توقُّف!

قيل لنا: أتظنون أننا انهزمنا؟ كلا، إن العدوّ لم يحقق هدفه! إنه كان يريد إسقاط جمال فخاب سعيه! أرأيت صفاقة أوقح من ذلك؟ وعلمت بعدُ أن هذا الإسفاف منقول عن دعايات البعث العربي، بعد الهزيمة التي مُني بها هو الآخر!

وفي الأزهر والأوقاف أخذت الدعاية تعمل تحت عنوان: نكسة أحد! بالله ما صلة هزيمة 1967 بما أصاب المسلمين في أحد؟ ما صلة السكارى والحشاشين بالصديقين والشهداء؟ ما صلة ناس لم يخسروا شبرًا من أرض، ولم يضيعوا ساعة من الوقت بعد خطأ تورّط فيه تعضهم، فاحتشدوا على عجل، وخرجوا يطاردون العدوّ الذي أصاب منهم غِرّة، ما صلة هؤلاء بمن فقدوا كل شيء دون سبب واضح إلا الغفلة والسفه؟

إن الدين مُرّغ في الوحل كي يرضي الحاكم الصغير عن بعض الناس!

الواقع أن حالة الجيش كانت رديئة؛ لأن أحسن الكفايات أبعدت عنه عمدًا، ولو تمّ تحقيق نزيه في حالة مصر كلها، لظهر أن مصر بعد رُبع قرن من الانقلاب العسكري، كانت تترنح من الناحية الروحية والخلقية، والاجتماعية والاقتصادية!

وإذا كانت الظروف قد كشفت تخلُّفنا السياسي والعسكري، فهي المصادفات التي أزاحت الغطاء عن المستور. ورأيي أننا تقهقرنا إلى أيام الخديوي إسماعيل، وأن تخلفنا الحضاريّ لا يستره ازدياد عدد السكان، وارتفاع المقادير المستهلكة من الطعام والشراب!

لاحظت أن الحس الديني عند المصريين جعلهم يردُّون الهزيمة إلى هجران الدين ومحاربة أهله! فماذا فعل جمال عبد الناصر ليعلن انعطافه إلى الدين، وصلحه مع الله؟ انتظر أول حفل لمولد النبيّ

صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى مسجد الحسين ليشارك فيه! ذهب بعد صلاة المغرب، وانصرف قبل صلاة العشاء!

إن الرجل انقطعت علاقته بالإسلام من أمَدٍ بعيد، وأظن ذلك يرجع إلى صداقته مع تيتو وسوكارنو ونهرو وغيرهم، فقد حسب أن أولئك الرهط من الرؤساء على درجة عالية من الثقافة والمكانة، فأحبَّ التشبُّه بهم، والنسج على منواهم! ولم تكن لديه حصيلة من المعرفة واليقين تنأى به عنهم، فألحَدَ مثلهم؛ ليكون عظيمًا هو الآخر!

ولعل مما أعانه على مروقه شيوخ الأزهر الذين ازدلفوا عنده طلاب دنيا! ولو كان فيهم من يهاب الله لتماسك الإيمان قليلًا في نفس هذا البائس!

وحدثت بعد الهزيمة تمثيلية الاستقالة والنكول فيها، ورأى الناس في مجلس الأمة المصري منظرًا نُقِلَ إلى القارات كلها؛ لما يصرخ به من دلالة مهينة؛ فقد وقف عضو في المجلس يرقص؛ لعودة الرئيس في استقالته! والعضو الراقص يفعل فعلته تلك، وعشرات الألوف من جنودنا أسرى لم يطلق سراحهم، وآلاف القتلى والجرحى يملؤون البيوت أحزانًا!

إن هذا العضو لا يحسن تمثيل نفسه ولا أسرته، ولكن النظام الذي وضعه الحاكم الفذ الذي استكثر من هذا النوع، وجعله – وهو الجدير بأن يُحجرَ عليه – قوّامًا على شؤون الأمة! إنه يرقص لأنه سيبقى هو، فلو جاء حكم شرعي لا زيف فيه، لعاد إلى الفلاحة؛ أو إلى أي حرفة آلية يأكل منها، وحسبه ذلك!

إن الاستبداد الأعمى يحتاج في سناده إلى أشخاص غير طبيعيين يتبادل معهم المنفعة، يسترون نقصه، ويتجاوز عن قصورهم، ويتعاونون جميعًا على قيادة القافلة... إلى الهاوية!

الحق يقال: إن سوق الجهل نفقت في هذه السنوات العجاف: انهزمت الرجولة والخبرة والديانة، وتقدم مجيدو الانحناء والتزوير والاستغلال!

إنني أعتبر أن جمال عبد الناصر مات سنة 1967، وإذا كان قد تأخر (ثلاث سنين) عن ترك هذه الدنيا، فإنه – على أية حال – ورَّث العرب عارًا تسودُّ له الوجوه، وورَّث اليهود نصرًا لم يحلموا به يومًا، وورَّث المسلمين مشكلات أعقد من ذَنَب الضَّبّ!

(والحق أني حائر في فهم جمال عبد الناصر، لقد كنت كما يعلم الناس من جماعة الإخوان المسلمين، وأقرر أنّ جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بايعا في ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه، وقد كنت قريبًا من مشهد مثير وقف فيه جمال عبد الناصر أمام قبر حسن البنا يقول:

نحن على العهد وسنستأنف المسيرة!

كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل. وقد وضع كتّاب مسلمون كبار مقدمات للرسائل التي كانت تصدر تحت عنوان: (اخترنا لك) أمضاها جمال عبد الناصر، وفيها أشرف ما يؤكده زعيم مسلم نحو أمته ودينه!

لا أدري ما حدث بعد ذلك! إنه تغير رهيب في فكر الرجل وسيرته، جعله – في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر – ينضم إلى الطرف الآخر:

– انضم إلى الهند في خصومتها المرة ضد باكستان المسلمة!

– وانضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على أريتريا!

– انضم إلى تنجانيقا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التي أوقعتها بشعب زنجبار المسلم، ورحب أحرّ ترحيب بنيريري الذي يتظاهر بالاشتراكية، وهو قسيس كاثوليكي!

– انضم إلى القبارصة اليونان في نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل (مكاريوس) عدو الكيان الإسلامي للأتراك.

– كان أسدا هصورًا في قتال اليمن، وحملًا وديعًا في قتال اليهود حتى جعل اليهود – وهم أحقر

مقاتلين في العالم – يزعمون أنهم لا يُقهرون في حرب!

سريع إلى ابن العم يلطم خده *** *** وليس إلى داعي الندى بسريع!

– ولقد ساند (البعث العربي) الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أي تجمع إسلامي، واخترع حكاية القومية العربية لتكون بديلا عن العقيدة الإسلامية)!

(وظاهر أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله لورد كرومر! ماذا تكون دنشواي بجانب مجازر طرة والحربي وغيرهما من سجون!

ومعلوم أن مصر، والعرب كلهم، والمسلمين في القارات الخمس مكلفون بالتفريط في عقيدتهم وأرضهم! وإن مأساة فلسطين نموذج لمآسٍ أخرى عديدة.

ومعلوم أن الحرب المعلنة علينا تعتمد على جماح ديني عند اليهود، والنصارى، أعني المستعمرين منهم، وأن الدفاع لن يتماسك أو يقم أو ينجح إلا بعاطفة دينية مقابلة، ترد الجماح المعتدي.

لقد كانت رسالة الزعيم المصري أن يميت العاطفة الدينية عند المسلمين، وأن يطارد كل أثارة من الإسلام! أي كان يمهد للتعصب الزاحف، ويدع الطريق أمامه مفتوحًا: (أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ* ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ) هود: 18، 19!

وقد هززتُ رأسي أسفًا وأنا أسمع شابًا يتبرأ من الانتساب إلى الإخوان فيقول لقضاته: أنا عمري ما ركعتها، ويعلم صحبي أني أشرب الخمر، وأفعل كذا وكذا!

وقد استمع النّاس إلى أحد "نجوم الفكاهة" في مصر يذكر أن امرأة اقتيد زوجها إلى السجن فسئلت: أهو من الإخوان؟ فقالت: "فشر! زوجي حرامي قد الدنيا"!

وهكذا أصبحت اللصوصية شرفًا! أو نسبة لا حرج فيها على الأقل!

والواقع أنه مرّت ببلدنا أيام كالحة الوجه، مشؤومة العقبى، كان التديّن فيها تهمة تخرب البيوت، وكان عدد من الشبان المؤمنين يختفي بصلاته وتقواه، وقلّ تردده على المساجد؛ لأنه أشيع أنّ نفرًا من الذين صلّوا الفجر في مسجد كذا قد اعتقلوا!

وهاهي تكرر نفسها يا مولانا الشيخ؛ لكن أشد وأنكى! وحسبنا الله ونعم الوكيل!

في ١٩ نوفمبر عام ١٩٧١ كانت سيارة تحمل رجلا وشقيقه في طريقهما الى القاهرة عائدين من الاسكندرية عندما واجهتهما فجأة سيارة نقل محملة بأسياخ الحديد واصطدمت بسيارتهما وماتا على الفور. كان المفجع أن اسياخ الحديد اخترقت جثة سائق السيارة والذى لم يكن سوى الفريق حمزة البسيونى مدير السجون الحربية فى عهد عبد الناصر. وقتها رقص الناس طربا ومرحا كما ينقل مصطفى أمين لمصرع الرجل الذى عذّب وقتل العشرات فى سجون الثورة المباركة. ولاشك ان قصة الرجل تصلح كبحث مختصر حول آخرة الطغيان والظلم.

غدا ٣٩ عاما على مصرعه فى حادث غامض:

اللواء حمزة البسيوني.. العسكري الأسود!!

ابتكر أحدث وسائل التعذيب وتفنن فى قتل ضحايا النظام الناصرى بالسجن الحربى

بدايات غامضة

لم يرد اسمه فى مذكرات قادة ثورة يوليو كواحد ممن لعبوا دورا فى تنظيم ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وانما نسب الى الضباط الاحرار كواحد ممن انضموا الى الحركة قبل ليلة ٢٣ يوليو. وحتى الرغم من أن القائمة التى أعلنها الرئيس الراحل أنور السادات للضباط الأحرار فى القرار الجمهورى رقم ١٢٨٦ لسنة ١٩٧٢ لم تتضمن اسمه بين ١٦٨ ضابطا ثم اقرار معاش لهم يعادل معاش الوزراء، الا أنه ورد ضمن قوائم الضباط الأحرار المعلنة فى مذكرات كل من عبد اللطيف بغدادى وصلاح نصر والتى تضمنت اكثر من ٢٠٠ ضابط كانوا اعضاء بالتنظيم.

وطبقا لمنهجنا البحثى المستبعد للاحكام الرسمية والمعلومات الصادرة عن مؤسسات الدولة، فإننا سنأخذ بقوائم اعضاء تنظيم ثورة يوليو، وهم خارج السلطة، لذا فإننا نؤكد معلومة عضوية حمزة البسيونى فى تنظيم الضباط الأحرار. وقد ورد اسم الرجل فى قائمة الضباط الاحرار التى كتبها عبد اللطيف بغدادى فى مذكراته ضمن ضباط القاهرة باسم "سيد حمزة حسن البسيونى". وقد كانت رتبة

مصادر الدراسة:

١- زينب الغزالى. صور من حياتى. دار الشروق.
٢- سامى جوهر. الصامتون يتكلمون. المكتب المصرى الحديث.
٣- على عشماوى. التاريخ السرى للاخوان المسلمين. ابن خلدون.
٤- مصطفى امين. سنة أولى سجن. اخبار اليوم.
٥- مصطفى امين. سنة ثالثة سجن. اخبار اليوم.
٦- محمد عبد السلام. سنوات عصيبة. مذكرات نائب عام سابق. المكتب

عبد الناصر وحربه على الأوقاف، وجهاد الغزالي:

وبدأت الأخبار الحزينة تتوالى، فقد صدر قرار ثوري بأن تسلم وزارة الأوقاف كل ثرواتها الزراعية والعقارية لوزارتي الإصلاح الزراعي والإدارة المحلية، وجاءني أحد الموظفين المكلفين بالتنفيذ، يقول لي: إن الوقف الخيري أكبر إقطاعي في مصر! فقلت له: أيوصف أحد بأنه إقطاعي إذا كان ملكه كله للخير؟ إن هذه الأموال لله وحده، حبست عينها، وبقيت ثمرتها تبذل في صالح الإسلام وأمته؛ فكيف تؤخّذ منه؟

إن هذا الاغتصاب أكبر أعمال القهر والاجتياح في تاريخ مصر وماذا عساي أفعل؟ سكتُّ مكظومًا! لقد عرفت سرّ حرص الاستعمار على إلغاء الوقف الخيري، وترك جهات البر لا مورد لها، والحق أن الانقلاب الناصري رسمه الذين نفذوا الانقلاب الكماليّ في تركيا، مع تغيير في العناوين والأساليب، يتفق مع أحوال مصر وطبيعة شعبها!

وقد ذكرت في كتابي كفاح دين أن الطيار عبد اللطيف بغدادي، هدم قريبًا من عشرين مسجدًا في جراحة لتجميل القاهرة! ترى؛ لو كانت هذه معابد يهودية، أكان يفعل ذلك؟ إنها المؤامرة على دين غطَّ حرّاسه في نوم عميق!

إن وظيفة المسجد في المجتمع الإسلامي عظيمة الخطر! إنه صانع الفكر والضمير، ومطهِّر البدن، ومنظم الصفوف، وصائغ العلاقات الإنسانية المشربة بالحب والإخاء!

وقد اجتهدنا – أنا وصديقي الشيخ سيد سابق – في ربط الناس بالمسجد، وإحسان التوجيهات الثقافية التي تصدر عنه. وكان من بين المقترحات التي نفذناها، إنشاء جمعية أهلية لكل مسجد تتعاون مع الإمام في تحسين أدائه المادي والروحي! فاتهمنا الأفَّاكون أننا نحاول إعادة الإخوان المسلمين (بعد حلهم)!

فحولنا اسم الجمعية إلى مجلس المسجد، على غرار مجالس الآباء التي أُنشئت في مدارس وزارة

التربية والتعليم، كما وضعنا مناهج وكتبًا يدرسها الإمام طوال الأسبوع، وكراسات للتحضير، تُدوَّن فيها المادة العلمية المقروءة أو المخطوبة! بيد أن الأمور كانت تسير إلى وجهة أخرى!

وظهر ذلك بوضوح لما تولّى الوزارة السيد حسين الشافعي، و....كان يومئذ من رجال الثورة السائرين وراء جمال عبد الناصر! فتبنَّى فكرة غريبة: أن توكل المساجد إلى جمعيات شعبية تديرها، وتُسأل عنها، وتمنحها الوزارة الإعانة الكافية، وتكون هذه الجمعيات تحت رقابة وزارة الشؤون الاجتماعية! وسألت: لم ذلك؟ قيل: هذا أفضل! سألت: هل سيصنع هذا بالمدارس التي تتبع وزارة التربية والتعليم؟ قيل: لا! فأدركت أن المقصود جعل الدولة علمانية، لا صلة لها مباشرة بالدين!

وقمنا بحركة هائلة شملت المساجد في القطر كله، وقابلني مندوب الأهرام، الأستاذ محمود الكولّي، وقال لي، إنه علم أن هذا هو النظام المتبع في يوغسلافيا! وصدر ضد هذا المقترح بيان شديد الغضب من اتحاد الأئمة في الإسكندرية، وشاء الله أن يوضع المشروع على الرفّ، لأسباب نجهلها!

عبد الناصر، والإخوان، والتقرير الاستئصالي المجرم:

كالعادة أدع الشيخ هنا يكتب؛ حتى تكون المعلومة دقيقة، وقد قرأت له مقالة عنوانها: الإسلام وجماعة الإخوان https://www.ansarportsaed.com/News-16904.html قال فيها:

انتسبت لجماعة الإخوان في العشرين من عمرى، ومكثت فيها قرابة سبع عشرة سنة، كنت خلالها عضوًا في هيئتها التأسيسية، ثم عضوًا في مكتب الإرشاد العام. وشاء الله أن يقع نزاع حاد بيني وبين قيادة الجماعة، انتهى بصدور قرار يقضي بفصلي، وفصل عدد آخر من الأعضاء.

وبعد عدة شهور من ذلك الحدث صدر قرار حكومي بحل الجماعة كلها، والإجهاز على جميع أنشطتها.

وأريد أن أكون منصفًا، فإن الزعم بأن جميع الإخوان أشرار سخف وافتراء، والزعم بأن الجماعة

كلها كانت معصومة من الخطأ غرور وادعاء! وليس ذلك ما يعنيني هنا، إنما الذي يعنيني أمر آخر هو الأهم والأخطر، عند الله وعند الناس: أمر الإسلام نفسه.

- قال لي أحد الناس: ليذهب الإخوان إلى الجحيم!
- قلت له: اسمع، مصاير الناس بيد الله وحده، وليذهب من شاء إلى الجحيم؛ لكن هل يذهب الإسلام إلى الجحيم معهم؟
- قال: لا. قلت: دعني من العناوين ولنتحدث في الموضوع. هل نترك كتاب ربنا وسنة نبينا؛ أم نتشبث بهما ونحرص عليهما؟
- فأجاب بعد تريث: لا نترك ديننا!
- قلت: هل ننفذ من ديننا ما نحب ونهمل ما نكره، أم نطيع الله في كل ما أمر به ونهى عنه؟ إن هناك نصوصًا في الكتاب والسنة معطلة محكومًا عليها بالموت، ونصوصًا أخرى تنفذ جزئيًّا، ولا يؤذن بتطبيقها على وجه كامل، فهل تبقى هذه الأوضاع أم ينبغي إصلاحها؟
- قال: لكن هذا ما يقوله الإخوان المسلمون!
- قلت له: دعني من جماعة الإخوان، فقد نفضت يدي من العناوين، أنا أتحدث عن الإسلام نفسه، وعن المنحدر الذي وقع فيه، وعن الأمة الكسيرة التي تنتمي إليه، ألم نتفق على ضرورة التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا؟ قال: بلى!
- قلت: وذاك ما نريد أن نتعاون على بلوغه، ونرسم الخطة المثلى لتحقيقه! ولعلك ترى معي بعد ذلك أن الانتساب للإسلام ليس جريمة، وأن الجريمة هى تشويه نهجه وإنكار هديه وترك أعدائه أحرارًا في النيل منه!
- قال: أشعر أنك تجرني بدهاء إلى جماعة الإخوان!

قلت له: يا أخي تخل عن هذه العقدة التي تحكمك؛ إننى أريد أن أعمل للإسلام الذي رفع علمه خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وخلفه على مواريثه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي! هذا

المصحف المهجور في دواوين السلطة، وفي أرجاء المجتمع، نريد أن نؤنس وحشته ونرفع شعاره! دعني من أي تجمع حدث في هذا العصر، ولننس الأشخاص الذين اشتهروا، ولنطو صحائفهم – بما فيها من خطأ وصواب – ولنعمل للإسلام وحده! فسكت مترددًا حائرًا.

- قلت له: اسمع، إن هناك قومًا يكرهون الإسلام ذاته، ويخدمون بكراهيته القوى الثلاث التي تجمعت ضده اليوم: الشيوعية، الصهيونية، الصليبية! وهؤلاء يريدون أن يجعلوا من كلمة الإخوان سيفًا مصلتًا على عنق كل مخلص له عامل في حقله، وأنا أرفض هذا الخلط!

إن إرهاب المجاهدين في سبيل الله بوصفهم إخوانًا، ووضع العوائق أمام النهضة الإسلامية؛ بزعم أن ذلك منع لعودة الجماعة المنحلة، إن هذا وذاك خيانة عظمى، وارتداد عن الملة!

لقد أصبح التجمع على الإسلام ضرورة حياة في وجه اليهود الذين احتلوا أجزاء حساسة من أرضنا، ويوشك أن تكون لهم وثبة أخرى؛ ربما كانت نحو عواصمنا وبقية مقدساتنا، فاصطياد الريب لهذا التجمع لا أستطيع وصفه إلا بأنه عمل لمصلحة بني إسرائيل!

إن الخطة التي وضعت لمحاربة جماعة الإخوان لا يسوغ أن تستغل لمحاربة الله ورسوله. ويسوؤني أن الذين رسموا هذه الخطة يحاولون أن يقضوا بها على الدين نفسه، والفرق واضح بين دين له قداسته ونفر من الناس لهم خطؤهم وصوابهم.

تقرير يفضح دور عبد الناصر ورجاله في الحرب الاستئصالية للإسلام؛ تحت غطاء حرب الإخوان:

اقرأ معي – والكلام لا زال للشيخ رحمه الله تعالى – تقرير اللجنة المؤلفة برياسة زكريا محيي الدين رئيس الوزراء في حينه، بشأن القضاء على تفكير الإخوان، بناء على أوامر السيد الرئيس بتشكيل لجنة عليا، لدراسة واستعراض الوسائل التي استعملت، والنتائج التي تم التوصل إليها، بخصوص مكافحة جماعة الإخوان المسلمين المنحلة، ولوضع برنامج لأفضل الطرق التي يجب

استعمالها في مكافحة الإخوان بالمخابرات، والمباحث العامة، لبلوغ هدفين:

أ. غسل مخ الإخوان من أفكارهم.

ب. منع عدوى أفكارهم من الانتقال إلى غيرهم.

اجتمعت اللجنة المشكلة من:

1. سيادة رئيس مجلس الوزراء

2. السيد / قائد المخابرات العامة

3. السيد / قائد المباحث الجنائية العسكرية

4. السيد / مدير المباحث العامة

5. السيد / مدير مكتب السيد المشير عبد الحكيم عامر

وذلك في مبنى المخابرات العامة بكوبرى القبة، وعقدت عشرة اجتماعات متتالية! وبعد دراسة كل التقارير والبيانات والإحصائيات السابقة، أمكن تلخيص المعلومات المجتمعة في الآتي:

1. تبين أن تدريس التاريخ الإسلامي في المدارس للنشء بحالته القديمة يربط السياسة بالدين في لا شعور كثير من التلاميذ منذ الصغر، ويتتابع ظهور معتنقي الأفكار الإخوانية.

2. صعوبة واستحالة التمييز بين أصحاب الميول والنزعات الدينية وبين معتنقي الأفكار الإخوانية، وسهولة وفجائية تحول الفئة الأولى إلى الفئة الثانية بتطرف أكبر.

3. غالبية أفراد الإخوان عاش على وهم الطهارة، ولم يمارس الحياة الجماعية الحديثة، ويمكن اعتبارهم من هذه الناحية "خام".

4. غالبيتهم ذوو طاقة فكرية، وقدرة تحمل، ومثابرة كبيرة على العمل، وقد أدى ذلك إلى اطراد

دائم وملموس في تفوقهم في المجالات العلمية والعملية التي يعيشون فيها، وفي مستواهم الفكري والعلمي والاجتماعي بالنسبة لأندادهم؛ رغم أن جزءًا غير بسيط من وقتهم موجه لنشاطهم الخاص بدعوتهم المشؤومة.

5. هناك انعكاسات إيجابية سريعة، تظهر عند تحرك كل منهم للعمل في المحيط الذي يقتنع.

6. تداخلهم في بعض، ودوام اتصالهم الفردي ببعض وتزاورهم، والتعارف بين بعضهم البعض يؤدي إلى ثقة كل منهم في الآخر ثقة كبيرة.

7. هناك توافق روحي، وتقارب فكري وسلوكي يجمع بينهم في كل مكان؛ حتى ولو لم تكن هناك صلة بينهم.

8. رغم كل المحاولات التي بذلت منذ عام 1936 لإفهام العامة والخاصة بأنهم يتسترون وراء الدين لبلوغ أهداف سياسية إلا أن احتكاكهم الفردي بالشعب يؤدي إلى محو هذه الفكرة عنهم، رغم أنها بقيت بالنسبة لبعض زعمائهم.

9. تزعمهم حرب العصابات سنة 1948 والقتال سنة 1951 رسب في أفكار بعض الناس صورهم كأصحاب بطولات وطنية عملية، وليست دعائية فقط، بالإضافة إلى أن الأطماع الإسرائيلية والاستعمارية والشيوعية في المنطقة لا تخفى أغراضها في القضاء عليهم.

10. نفورهم من كل من يعادي فكرتهم جعلهم لا يرتبطون بأي سياسة خارجية سواء كانت عربية أو شيوعية أو استعمارية، وهذا يوحي لمن ينظر في ماضيهم أنهم ليسوا عملاء.

وبناء على ذلك رأت اللجنة أن الأسلوب الجديد في المكافحة يجب أن يشمل أساسًا بندين متداخلين وهما:

أ. محو فكرة ارتباط الدين الإسلامي بالسياسة.

ب . إبادة تدريجية مادية ومعنوية وفكرية للجيل القائم فصلًا من معتنقي الفكرة.

ويمكن تلخيص أسس الأسلوب الواجب استخدامه لبلوغ هذين الهدفين في الآتي:

أولًا: سياسة وقائية عامة:

1. تغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين في المدارس، وربطها بالمعتقدات الاشتراكية كأوضاع اجتماعية واقتصادية وليست سياسية! مع إبراز مفاسد الخلافة – خاصة زمن العثمانيين – وأن تقدم الغرب السريع إنما كان عقب هزيمة الكنيسة، وإقصائها عن السياسة.

2. التحرى الدقيق عن رسائل وكتب ونشرات ومقالات الإخوان المسلمين في كل مكان، ثم مصادرتها وإعدامها.

3. يحرم بتاتًا قبول ذوي الإخوان وأقربائهم – حتى الدرجة الثالثة في القرابة – من الانخراط في السلك العسكرى أو البوليس أو السياسة، مع سرعة عزلة الموجودين من هؤلاء الأقرباء من هذه الأماكن، أو نقلهم إلى الأماكن الأخرى في حالة ثبوت ولائهم.

4. مضاعفة الجهود المبذولة في سياسة العمل الدائم على إفقاد الثقة بينهم وتحطيم وحدتهم بشتى الوسائل، وخاصة عن طريق إكراه البعض على كتابة تقارير عن زملائهم بخطهم، ثم مواجهة الآخر بما معها مع العمل، على منع كل من الطرفين من لقاء الآخر أطول فترة ممكنة؛ لنزيد هوة انعدام الثقة بينهم.

5. بعد دراسة عميقة لموضوع المتدينين من غير الإخوان، وهم الذين يمثلون "الاحتياطي" لهم وجد أن هناك حتمية طبيعية عملية لالتقاء الصنفين في المدى الطويل، ووجد أنه من الأفضل أن يبدأ بتوحيد معاملتهم بمعاملة الإخوان، قبل أن يفاجئونا كالعادة باتحادهم معهم علينا.

ومع افتراض احتمال كبير لوجود أبرياء منهم إلا أن التضحية بهم خير من التضحية بالثورة في يوم

ما على أيديهم! ولصعوبة واستحالة التمييز بين الإخوان والمبتدئين بوجه عام فلا بد من وضع الجميع ضمن فئة واحدة، ومراعاة ما يلي:

أ . تضييق فرص الظهور والعمل أمام المتدينين عمومًا في المجالات العلمية والعملية.

ب . محاسبتهم بشدة وباستمرار على أي لقاء فردي، أو زيارات، أو اجتماعات تحدث بينهم.

ج . عزل المتدينين عمومًا عن أي تنظيم أو اتحاد شعبي أو حكومي أو اجتماعي أو طلابي أو عمالي أو إعلامي.

د . التوقف عن السياسة السابقة في السماح لأي متدين بالسفر للخارج للدراسة أو العمل؛ حيث فشلت هذه السياسة في تطوير معتقداتهم وسلوكهم، وعدد بسيط جدًا منهم هو الذي تجاوب مع الحياة الأوربية في البلاد التي سافروا إليها . أما غالبيتهم فإن من هبط منهم في مكان بدأ ينظم فيه الاتصالات والصلوات الجماعية أو المحاضرات لنشر أفكاره.

هـ . التوقف عن سياسة استعمال المتدينين في حرب الشيوعيين، واستعمال الشيوعيين في حربهم بغرض القضاء على الفئتين، حيث ثبت تفوق المتدينين في هذا المجال، ولذلك يجب أن نعطى الفرص للشيوعيين لحربهم وحرب أفكارهم ومعتقداتهم، مع حرمان المتدينين من الأماكن الإعلامية.

و . تشويش الفكرة الشائعة عن الإخوان في حرب فلسطين والقتال، وتكرار النشر – بالتلميح والتصريح – عن اتصال الإنجليز بالهضيبي، وقيادة الإخوان، حتى يمكن غرس فكرة أنهم عملاء للاستعمار في أذهان الجميع.

ز . الاستمرار في سياسة محاولة الإيقاع بين الإخوان المقيمين في الخارج وبين الحكومات العربية المختلفة وخاصة في الدول الرجعية الإسلامية المرتبطة بالغرب، وذلك بأن يروج عنهم في تلك الدول أنهم عناصر مخربة ومعادية لهم، وأنهم يضرون بمصلحتها، وبهذا تسهل محاصرتهم في الخارج أيضًا.

ثانيًا: استئصال السرطان الموجود الآن، وبالنسبة للإخوان الذين اعتقلوا أو سجنوا في أي عهد من العهود يعتبرون جميعًا قد تمكنت منهم الفكرة، كما يتمكن السرطان في الجسم ولا يرجى شفاؤه، ولذا تجرى عملية استئصالهم كالآتي:

المرحلة الأولى:

إدخالهم في سلسلة متصلة من المتاعب، تبدأ بالاستيلاء أو وضع الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم، ويتبع ذلك اعتقالهم! وأثناء الاعتقال تستعمل معهم أشد أنواع الإهانة والعنف والتعذيب على مستوى فردي ودوري؛ حتى يصيب الدور الجميع، ثم يعاد، وهكذا.

وفي نفس الوقت لا يتوقف التكدير على المستوى الجماعي، بل يكون ملازمًا للتأديب الفردي

وهذه المرحلة إذا نفذت بدقة ستؤدي إلى:

بالنسبة للمعتقلين: اهتزاز الأفكار في عقولهم وانتشار الاضطرابات العصبية والنفسية والعاهات والأمراض بينهم.

بالنسبة لنسائهم: سواء كن زوجات أو أخوات أو بنات فسوف يتحررن، ويتمردن لغياب عائلهن، وحاجتهن المادية قد تؤدي لانزلاقهن.

بالنسبة للأولاد: تضطر العائلات لغياب العائل ولحاجتها المادية إلى توقيف الأبناء عن الدراسة، وتوجيههم للحرف والمهن، وبذلك يخلو جيل الموجهين المتعلم القادم ممن في نفوسهم أي حقد أو أثر من آثار أفكار آبائهم.

المرحلة الثانية:

إعدام كل من ينظر إليه بينهم كداعية، ومن تظهر عليه الصلابة سواء داخل السجون أو المعتقلات أو بالمحاكمات، ثم الإفراج عنهم بحيث يكون الإفراج عنهم على دفعات، مع عمل

الدعاية اللازمة لكى تنتشر أنباء العفو عنهم؛ ليكون ذلك سلاحًا يمكن استعماله ضدهم من جديد؛ في حالة الرغبة في إعادة اعتقالهم.

وإذا أحسن تنفيذ هذه المرحلة مع المرحلة السابقة فستكون النتائج كما يلي:

1. يخرج المعفو عنه إلى الحياة؛ فإن كان طالبًا فقد تأخر عن أقرانه، ويمكن أن يفصل من دراسته، ويحرم من متابعة تعليمه.

2. إن كان موظفًا أو عاملًا فقد تقدم زملاؤه، وترقوا، وهو قابع مكانه.

3. إن كان تاجرًا فقد أفلست تجارته، ويمكن أن يحرم من مزاولة تجارته.

4. إن كان مزارعًا فلن يجد أرضًا يزرعها حيث وقعت تحت الحراسة، أو صدر قرار استيلاء عليها.

وسوف تشترك الفئات المعفو عنها جميعها في الآتي:

1. الضعف الجسماني والصحي، والسعي المستمر خلف العلاج، والشعور المستمر بالضعف المانع من أية مقاومة.

2. الشعور العميق بالنكبات التي جرتها عليهم دعوة الإخوان، وكراهية الفكرة، والنقمة عليها.

3. انعدام ثقة كل منهم في الآخر، وهي نقطة لها أهميتها في انعزالهم عن المجتمع، وانطوائهم على أنفسهم.

4. خروجهم بعائلاتهم من مستوًى اجتماعي أعلى إلى مستوًى اجتماعي أدنى؛ نتيجة لعوامل الإفقار التي أحاطت بهم.

5. تمرد نسائهم، وثورتهن على تقاليدهم، وفي هذا إذلال فكري ومعنوي؛ لكون النساء في بيوتهن يخالف سلوكهن أفكارهم، ونظرًا للضعف الجسماني والمادي لا يمكنهم الاعتراض.

6.كثرة الديون عليهم نتيجة لتوقف إيراداتهم، واستمرار مصروفات عائلاتهم.

النتائج الإيجابية لهذه السياسة هي:

1. الضباط والجنود الذين يقومون بتنفيذ هذه السياسة سواء من الجيش أو البوليس سيعتبرون فئة جديدة، ارتبط مصيرها بمصير هذا الحكم القائم؛ حيث يستشعرون عقب التنفيذ أنهم (أى الضباط والجنود) في حاجة إلى نظام الحكم القائم ليحميه من أي عمل انتقامي، قد يقوم به الإخوان للثأر.

2. إثارة الرعب في نفس كل من تسول له نفسه القيام بمعارضة فكرية للحكم القائم.

3. وجود الشعور الدائم بأن المخابرات تشعر بكل صغيرة وكبيرة، وأن المعارضين لن يستتروا، وسيكون مصيرهم أسوأ مصير.

4. محول فكرة ارتباط السياسة بالدين الإسلامي.

انتهى ويعرض على السيد الرئيس جمال عبد الناصر

إمضاء

السيد / رئيس مجلس الوزراء

السيد / قائد المخابرات

السيد / قائد المباحث الجنائية العسكرية

السيد / مدير المباحث العامة

السيد / شمس بدران

أوافق على اقتراحات اللجنة.

جمال عبد الناصر

وقد علق الإمام الغزالي عليه فقط:

هذا تقرير رديء، وقع في الخلط الذي حذرنا منه، ونلاحظ عليه ثلاثة أمور:

. أن الخصومة بلغت حد اللدد والعنت، وسنؤخر الحديث في حقيقة ما وقع إلى آخر هذا الفصل.

. أن عاطفة التدين أمست موضع اتهام، وأن المتدينين جملة لا يرتاح إليهم.

. أن باب المسخ والتحريف الإسلامي نفسه انفتح على مصراعيه، والمتأمل في أسماء واضعي التقرير يرى أن أغلبهم يساري النزعة، وهم في السجون الآن لمحاولات آثمة ارتكبوها ضد حركة التصحيح التي قادها الرئيس أنور السادات!

لقد اتجه الهدم إذن إلى أعمدة الفكر الإسلامي نفسه، وانفسح المجال أمام كل أفاك ليقول ما عنده وهو آمن، على حين احتبست أصوات المؤمنين في حلوقهم.

ولم يتحرك في ميدان الدين كله إلا واحد من رجلين: إما مسلم منحرف يضر الإسلام ولا ينفعه، أو نصراني ذكي اهتبل الفرصة، فامتد إلى ما قصرت عنه آمال أسلافه من ألف عام !

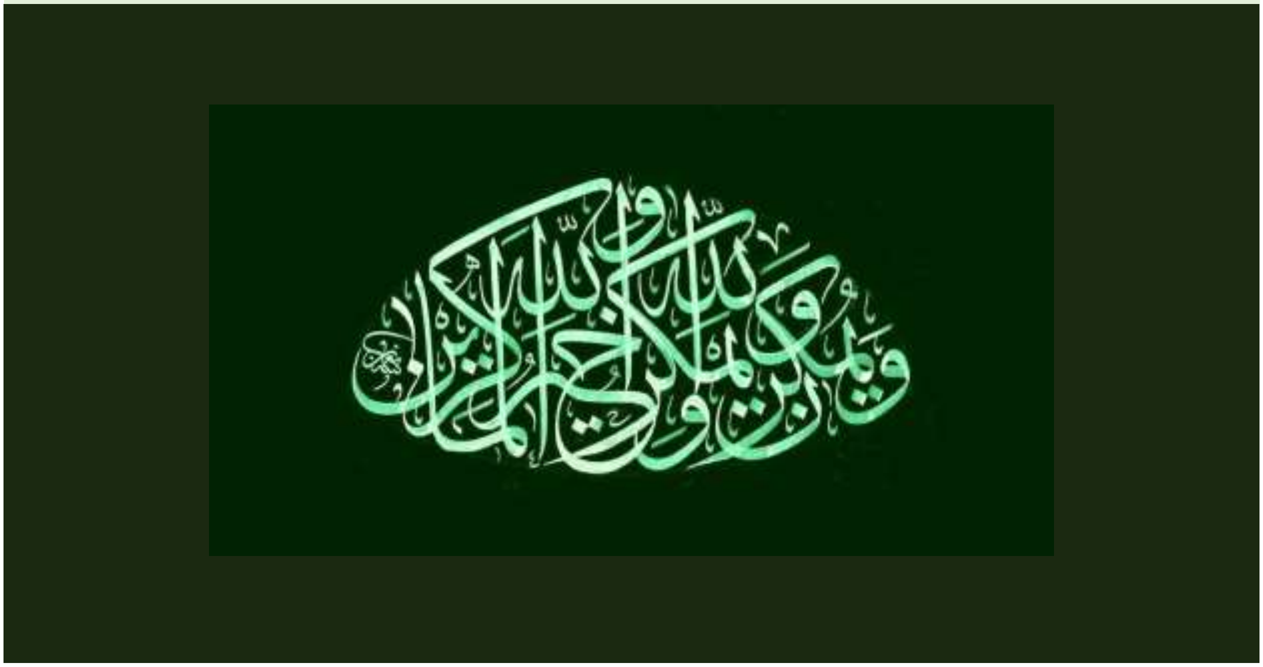

ج: معاركه مع الرئيس السادات:

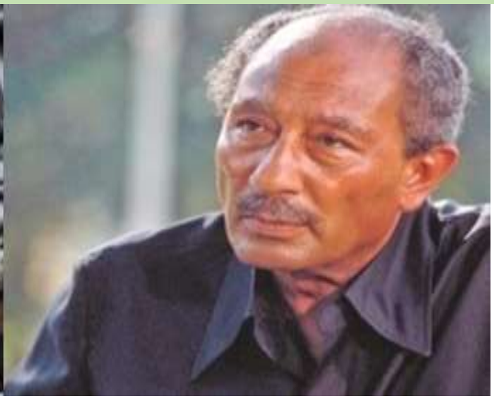

اصطدم الشيخ رحمه الله بالرئيس السادات كما اصطدم قبله بعبد الناصر، وكان رأيه فيه أنه خفيف، سطحي، تافه، غريب الأطوار، خانع أمام اليهود والأمريكان!

وقد ذكر شيخي القرضاوي أنه في أحد اجتماعات الرئيس السادات، سأله رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة آنذاك؛ د. عبد المنعم أبو الفتوح عن سر التفريط في الشيخ الغزالي ليغادر مصر، ويحرم جمهوره منه، وتقريب الضعفاء أو المنافقين! فثارت ثائرة السادات، وهاجم الشيخ الغزالي، واتهمه بأنه من دعاة الفتنة «الطائفية»، وما كان الشيخ يومًا من هؤلاء ولا يكون. ولكنه رجل صريح شجاع، يدق ناقوس الخطر، إذا لاح له ما يهدد الأمة، فلا يمكن أن يغمض عينه أو يصم أذنه، والخطر من حوله يرى ويسمع.

وذكر شيخي القرضاوي أنه في هذا الوقت طلب من الشيخ محمد الغزالي القدوم إلى قطر، عقب تصاعد الخلاف بينه وبين السادات، وحضر الغزالي لجامعة قطر، وعين أستاذًا زائرًا بالجامعة، وأعددنا له إقامة بأحد الفنادق، وأعلن الشيخ قاسم درويش فخرو، أحد رجال الأعمال ومن أهل الدين، عن ترحيبه بالشيخ الغزالي بفندق الواحة، وأعطاه جناحًا، وهيأ له كل أسباب الراحة، وكان طاقم الفندق أغلبه من المصريين، وكانوا يتسابقون لخدمته.

وأوضح القرضاوي أن الغزالي ظل معهم ثلاث سنوات، وكان يخطب الجمعة بأحد المساجد ويؤم المصلين، ويلقي المحاضرات على الناس!

(وفي عهد السادات عارضه الغزالي لينتقد بعض القوانين المقترحة للمناقشة في وقته من فوق منبره بجامع عمرو بن العاص، ومن ثم تم منعه من الخطابة، كما تم اتهامه باسمه في قضية الكلية الفنية العسكرية الشهيرة؛ ما دعا الشيخ – بعد ثبوت براءته – إلى مغادرة مصر، إلى كلية الشريعة بالسعودية)! آية إيهاب/ http: //www.horytna.net/Articles/Details/177/105016/

وكتب في مذكراته التي اعتنى بها الأستاذ محمد جلال لاشين بعد وفاته رحمه الله تعالى أشياء عن السادات بعد ذلك، قال فيها (بتصرف):

- (....وذات يوم عرفنا أن القائمقام أنور السادات نفسه سيخطب الجمعة، فاستغربت لأن المسجد يتبع الجمعية الشرعية، وللقوم تقاليد معينة في زيّ الخطيب!

وفيما أنا أفكر دخل السيد أنور، مرتديًا عباءة عربية، وعلى رأسه عمامة لها ذنب يغطي قفاه، كأنه من رجال الجمعية القدامى! وتأملت وجهه فتذكرت التعايشي، خليفة المهدي السوداني المعروف! كان في سمرته وسمته الديني شيئًا عجبًا!

وألقى الخطبة باللغة العامية حينًا، وبالعربية المشوَّهة حينًا، ثم انتهى منها، وتقدم للصلاة ونحن خلفه، قرأ في الركعة الأولى سورة الماعون، فاضطرب، وقدم وأخر، ثم ختمها على أي نحو! ولطف الله في الركعة الثانية، وسلّم من الصلاة، ونظر إلينا من عل، وكأنه يقول: ما أنتم؟ إذا وُجدْتُ بطل وجودكم!

ولم أكن أعرف الرجل من قبل! مبلغ ما أسمع عنه أن الأستاذ حسن البنا كان يرسل إلى بيته بعض المساعدات، عندما يقع في ورطة، لكنه الآن – فيما أحسست – يجمع بين الكبر والجهل!

وهمست إلى صديق معي: إن الخطأ في العبادات، أو الهزل في أدائها حسابه عند الله! وإن الذي أخشاه أن تعالج أمور الأمة المدنية والعسكرية بالادِّعاء والجهالة معًا، وقد كنا نحفظ قديمًا:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت	فإن تولّتْ فبالأشرار تنقاد

إن وظيفة المسجد في المجتمع الإسلامي عظيمة الخطر! إنه صانع الفكر والضمير، ومطهِّر البدن، ومنظم الصفوف، وصائغ العلاقات الإنسانية المشربة بالحب والإخاء)!

- (...عدت من محاضرة تدريبية لأئمة المساجد إلى وزارة الأوقاف، كي أنجز الأعمال الإدارية المطلوبة مني، فوجدت موظف الاستعلامات ينتظرني بصبر نافذ، ويقول: إن الوزير انتظرك كثيرًا لتذهب معه إلى رئيس الجمهورية، وأوصى أن تلحق به فور مجيئك، فإنه – وشيخ الأزهر – على رأس وفد سيلقى الرئيس السادات!

وكان الموظف من الإخوان، وكان حريصًا على ما يراه الخير، فلما وجدني فاترًا في الاستماع إليه، أقسم عليّ أن أذهب، وأمر سائق السيارة أن ينطلق بي للحاق بالوفد!

إن أنور السادات لم يكن أفضل زملائه بعد جمال عبد الناصر، ربما كان أقلّهم، غير أن الأقدار جاءت به – برغم أنوفهم جميعًا – وقد قبلوه على مضض، وزيَّن لهم الرضا به أن الأمور ستكون في أيديهم، أي أنه سيكون رئيسًا صوريًّا!

والحق أن الجيش كان في أيديهم، والشرطة، والإعلام، وكل ما يورث القوة، على حين كان السادات مجرَّدًا من أي دعم! ومع ذلك فقد انهزموا أمامه، وتغدَّى بهم قبل أن يتعشَّوا به!

ما السبب؟ ألذكاء السادات ودهائه؟ لقائل أن يقول ذلك! أما رأيي فهو أن خذلان الله للقوم حرمهم من كل توفيق، فانتحروا، ولا أقول: انتصروا!

إنهم جميعًا أضربوا عن العمل ظانين أن أجهزة الدولة ستتوقف! فما توقف جهاز، بل ظل كل شيء يدور وفق العادة، كما ظل جنُّ سليمان مسخرين في العمل، يتلقَّون الهوان، وسليمان ميت!

وانتهز السادات الفرصة، وتفاهم مع بعض الرجال الناقمين، واستولى على السلطة، وزج

بخصومه في السجن؛ جنبًا إلى جنب مع الإخوان المسلمين!

وكان منظرًا عجبًا أن الذين كانوا يضربون الإخوان أمس، يتلَقَّون العذاب معهم اليوم!

- **وبعد ما انفرد السادات بالسلطة، هرعت الوفود للتأييد! ألا ما أحقر الحياة!**

.....وقادتني السيارة على عجل فلحقت بوفد الأزهر، وعلى رأسه الشيخ محمد الفحام، ووفد الأوقاف وعلى رأسه الدكتور عبد العزيز كامل(!).

والواقع أن استقبال السادات بالترحاب كان صادقًا؛ فإن العصابة الذاهبة ما تركت وُدًّا في قلب، وبديهي أن يعد الرئيس الجديد بتغيير شامل، وأن يُنتظر منه الخير!

كنت أنا حاضرًا بجسدي، أما فكري فهو سارح في ذكريات مضت عليها سنون، لكن الرئيس السادات لما وقع بصره عليَّ، حيّاني بتقدير خاص، وتساءل: أين أنت؟

وفهم الحاضرون أني موضع الرضا، فعاملوني باحترام أكثر! وقد فهم السادات من الدكتور عبد العزيز أن يضم إلى ذلك إعطائي سلطات وكيل الوزارة في عملي!

قررت أن أؤدي عملي الجديد بأمانة، وقوة، وأن أنوِّه بصنيع الرئيس معي، وأشكره علانية!

إن الجهود المبذولة لخدمة الدعوة في وزارة الأوقاف حسنة جدًّا، وقد تعاونت فيها قوًى كثيرة، فنحن ندرب كل إمام شهرًا تقريبًا في المدينة الأزهرية التي تعيش فيها البعوث الإسلامية! في مبنًى خاص؛ حيث يجتمع عشرات الأئمة، ويتلقون المحاضرات في العلوم التي لم يستكملوها في الأزهر، ويعطيهم أعظم المفكرين ثمرات تجاربهم، ويظلون في عزلتهم العلمية هذه المدة، ثم ينصرفون إلى وظائفهم بعد اختبار يفيدهم في مستقبلهم!

وهناك نشاط علميٌّ آخر: ففي كل عام تجري مسابقة في عدة كتب مختارة، توسع أفق قارئها، وتزيد خبرته بعمله، ويُعطى بعدها جائزة حسنة بعدما تختبر معلوماته!

وقد رأينا أن ننتقل نحن إلى الأقاليم، فنجتمع برجال الدعوة شهريًا لنتدارس ما ينبغي سلوكه لأداء الرسالة على وجه أفضل! ورأينا إمداد المساجد بمكتبات تيسِّر الاطلاع وتقرِّب المعرفة!

وقد تعاونا مع أهل الصدق في النهوض بالدعوة، فإن الشكليات المرعية تقتل الحقيقة، وتعصف باللباب، بيد أن أهل الصدق قليلون!

- وفي أحد الأيام جاءني صديق كثير الدعابة يقول لي: لقد وقعت في شر أعمالك! أتدري أن الدكتور عبد الحليم محمود عُيّن وزيرًا للأوقاف؟

قلت: وأي ضير في هذا؟ قال: ألم تكتب في مجلة لواء الإسلام تصحيحًا لحديث نشره؟ قلت: بلى! ولو أن امرءًا صحَّح لي خطأ بنيَّة حسنة ما وسعني إلا شكره! قال: سنرى!

ودخل الدكتور عبد الحليم الوزارة، وخشيت أن أكون بين مستقبليه حتى لا يقع ما يسوؤني! وبعد قليل جاءني رسول من الدكتور الوزير يطلبني، فذهبت إليه، فأخذني ناحية وقال لي: إنني أريد أن أبدأ عملي في وزارة الأوقاف بخدمة كتاب الله، فأُعلِن عن مسابقة بين طلاب الأزهر، وأرتب جوائز سخية لمن يحفظون القرآن الكريم، وأريد أن أمضي القرار الوزاري بذلك اليوم!

فحمدتُ له هذا الاتجاه، وتمّ إنجاز ما يبغي، وافتتح الرجل الطيب أعماله بتقديم ذلك الخير للمسلمين! لقد كانت علاقتي به حسنة، وكان مستحيلًا في شمائل الرجال أن يضيق بتصحيح علمي قمت به!

- حكايته بالتفصيل في جامع عمرو رضي الله عنه في عهد السادات:

وأرسل إليّ الدكتور عبد الحليم بعد ذلك، يخبرني أنه قد وقع اختياره عليَّ، لأخطب الجمعة في مسجد عمرو بن العاص، فقلت له: إنه ليس بمسجد! لقد تغيرت معالمه، فأصبح أرضًا فضاء بين جدران بالية، وكثيرًا ما تطفح مياه المجاري في صحنه!

– قال: ولهذا اخترتك!

– قلت: لماذا لا أعود إلى إلقاء خطبة الجمعة بالأزهر، وقد ظللت بضع سنين أتطوع بذلك؟

– قال: اليوم الأربعاء، بعد غد سأصلي وراءك في مسجد عمرو بن العاص، فاستعد!

وجاء يوم الجمعة، وكنت في المسجد مبكرًا، لأشرف على تهيئة مكان للصلاة!

كانت أكوام القمامة حول المسجد تصل السقف بالأرض، وكانت هناك سحب من الدخان تغطس المسجد من الفواخير المبعثرة إلى جواره، وكان صحن المسجد قطعة من صحراء مهجورة، يشيع فيا التعرج والالتواء، ونظرت إلى المساحة الشاسعة التي تقع بين أجنحة المسجد المتداعية، ثم قلت: ماذا أصنع في هذا المكان الذي تعوي فيه الرياح!

وصلّيت مع الدكتور وألقيت خطبة عادية، ودعا لي هو بخير! وبدأنا الكفاح الصعب؛ فإذا المسجد يتضاعف رواده، وبعد أن كانوا بضع عشرات لا تصح صلاة الجمعة بهم – في بعض المذاهب – أصبحوا مئات، ثم آلافًا، وقدرت وزارة الداخلية المصلين في بعض الجمع بثلاثين ألفًا!

والسرّ أني اهتممت بالموضوع الذي أعرضه على الناس، وإذا تجاوزنا المناسبات التي تفرض نفسها، فإن التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم كان شغلي الشاغل، وقد تأسَّيتُ في أسلوب العرض، بالشيخ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز، في كتابه النبأ العظيم.

والحق أن المصلين يكرهون الخطب التي ترسل للآذان رنين الفراغ، أو التي تتضمن موضوعًا

سياسيًّا تافهًا! إنني أنا استفدت مزيدًا من العلم والتدبر في كتاب الله، والارتباط بالله سبحانه وتعالى، إذ كانت الخطبة ذكرًا لله، وإحياء لأوامره.

والرجل الذي يرجع إليه الفضل في عمران المسجد هو السيد حمدي عاشور الذي أمر بتنسيق الميدان حوله، والذي أزال مصادر الدخان، وسخّر النقلة فحملوا بعيدًا عن المسجد نحو ألف عربة من القمامة، ثم ألّف لجنة تتولى البناء لما تهدَّم، والصيانة لما أهمل، فإذا المسجد مثابة للمسلمين من كل فجّ، ومدرسة يلتقي فيها الجامعيون أساتذة وطلابًا، ويقصدها العابدون من الوجهين القبلي والبحري!

ولأن حمدي عاشور محافظًا للقاهرة، فإنه أُبعد عن منصبه من أجل هذا الشعور الديني الغالب!

.......ولما بدأت تسلُّم عملي، كان الأمر أعجل مما أتصوَّر، فقد واجهني اختبار لم أر معه بدًّا من ترك منصبي، مع حرصي على أن أبقى فيه لأخدم ربي وديني! لقد تركته بعد يومين اثنين على طريقة ما سلّم حتى ودَّع! (*كان الشيخ رحمه الله قد انتقد قانون الأحوال الشخصية المشهور بقانون جيهان (زوجة الرئيس الراحل أنور السادات) فمنع من الكلام وصودرت كتبه، واضطر أن ينتقل إلى السعودية، واشتغل أستاذًا للدعوة في كليّة الشريعة بجامعة أم القرى بمكّة المكّرمة عام 1397 هـ الموافق لـ1977، وساهم في تأسيس جامعة الإمام عبد القادر الإسلاميّة بقسنطينة في الجزائر عام 1980، وشغل عدّة مناصب جامعيّة في مصر*)!

إن الرؤساء في أمتنا المحرومة يحسبون أنهم اشتروا رجلًا عندما أسندوا إليه منصبًا، وقد نظرت إلى ميدان الأعمال الدينية والأنشطة الإسلامية فوجدت أن الذي تخيَّر الرجال في هذا الميدان كان حاذقًا في رمي الإسلام بكل مصيبة!

وما هي إلا أيام حتى كان النشاط الإسلامي كله في مهبّ عاصفة هوجاء تركته شذر مذر! وقال لي أحد العارفين بالسياسة: كان لا بد أن يقع هذا الدمار في دوائر العمل الديني؛ فإن الرئيس

السادات عاد من أميركا بغير الوجه الذي ذهب به!

قلت: كيف؟ قال: إن اليهود يطلبون أن تكون العلاقات بينهم وبين مصر طبيعية، لا عداء ولا جفاء! ويقضي هذا بتغيير مفاهيم دينية وتاريخية، وتحوير أوضاع اجتماعية واقتصادية!

وما دام التيار الإسلاميُّ في مصر قويًّا ناميًا مهيمنًا على الشباب، ومؤثرًا في مجرى الأمور على النحو المشهود في مصر، فمعنى ذلك كله أن معاهدة مخيَّم داود التي فصلت مصر عن العرب قد فشلت! وأن أيام السادات معدودة بعد هذا الفشل!

قلت: كأن الرجل بضرب الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية يريد توكيد وجوده، واستبقاء حياته، وإشعار بني إسرائيل – ومن ورائهم أميركا – بأنه قوي جدير بثقتهم!

قال: ذلك ما يقصد، وهذا سر صياحه: أنا صاحب القرار، أنا وحدي! أنا سأعلمكم كيف تحترمون الحكام! وهو سر حلفه بعد ما اعتقل رئيسًا للإخوان: والله لن أرحمه! وسر تعليقه على حبس الشيخ الذي ندّد بكثرة استراحاته، فقال بعدما أمر بسجنه: إنه مرميٌّ في السجن كالكلب!

يقولون: إن طالب القوت ما تعدّى، ويبدو أن طالب الرياسة كذلك، يفقد العقل والخلق والدين وراء ما يشتهي! كل هذا الهوان ينزل برجال الإسلام لأنهم يرفضون الصلح مع اليهود!

والطريف في تلك المأساة أنها تتم باسم الشعب، أي شعب؟ لعله الشعب اليهودي!

الملاحظ على السادات أنه تحت عنوان كراهية العيب ألغى الرقابة الإدارية في مصر، وغضّ الطرف عن فضائح مالية!

وتحت عنوان تقاليد القرية غَشِيَ أحفالًا راقصة يسهل فيها تقبيل النساء، وكسر التقاليد القروية والمدنية! والمعروف أن امرأته من أسرة مالطيّة هاجرت إلى مصر أخيرًا، وقيل إنها اعتنقت الإسلام!

والأمر عندي موضع ريبة! إنه رجل غريب الأطوار، ندع حسابه إلى الله!

الغزالي وحسني مبارك:

كما واجه الشيخ رحمه الله مباركًا والطوارئ في عهده، وكان بينهما اللقاء الذي تحدثت عنه سابقًا، وصدع الشيخ فيه بحق لم يصدع به رفيقاه رحمهم الله جميعًا!

ومما قرأته على لسان د. مصطفى الفقي – مستشار مبارك السابق، وسكرتيره للمعلومات – ما كتبه محمود الشهاوي: http: //www.albawabhnews.com/1690672 –

لم يلتق حسني مبارك طوال سنوات حكمه أيًّا من قيادات جماعة الإخوان المسلمين سوى الشيخ محمد الغزالي.

......في أحد الأيام قلت للرئيس: (الشيخ الغزالي يمر بمحنة صحية)، فقال: (اتصل به على الفور)!

كنت أسمعه على الخط الثاني، وهو يقول له: (يا فضيلة الإمام: أعالجك في أي مكان تريده؛ لأنك قيمة إسلامية)!

بكى الشيخ وقتها قائلًا: (أوصيك بالإسلام، ولا تحمل على الإخوان المسلمين، وتفاهم معهم)، فرد الرئيس: (لا تبكِ يا فضيلة الإمام)!

الغزالي وواقع الأمة، وحكومات المسلمين، والفساد السياسي:

هذه جملة نقول من كتب الشيخ وأقواله؛ تعكس آراءه في الواقع الهزيل الذي تعيشه الأمة، ونظرته للنهضة، ورؤاه السياسية، ومآخذه على النخب الحاكمة:

- ✓ إن الإلحاد في المعايش المكينة، والمجتمعات التي تقدم أنصبة محترمة من الصحة البدنية والنفسية، يتفوق حتمًا على التدين الذي يجهل الحياة، وتهيأ أسبابه فيها!
- ✓ حكومات فرعونية إقطاعية، وجماهير تبحث عن الطعام، وفنّ يدور حول اللذة وطرقها، ومتدينون مشتغلون بالقمامات الفكرية وحدها؛ وكأنما تخصصوا في التفاهات!
- ✓ إننا في عالم قلبت فيه الحقائق، وخون فيه الأمين، وائتمن الخائن! وليت المسلمين فيه يملكون ما يخيف المعتدي، ويردع الكذوب!
- ✓ أما العالم المتقدم فهو يعبد نفسه، ويسعى لجعل الشعوب المتخلفة – وأولها المسلمون – عبيدًا له، وأرضهم مصادر للخامات التي يحتاج إليها، أو الأتباع الذين يستهلكون ما يصنع!
- ✓ والفساد السياسي في العالم الإسلامي اعتمد على رجال دين باعوا ذممهم للشيطان، وهذا بلاء قديم حاربه الأئمة الواعون، والدعاة الصادقون؛ فإن شهوة الملق عند شيخ منافق أوغلُ في الفساد من شهوة الزنا عند شاب طائش!
- ✓ يأتي الانهيار الداخلي حين تتكون طبقة مترفة تتحكم في الثروة، وفي الجماهير، فتنتشر الظلم والانحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة، وتتضاءل فيه الفوارق بين الحياة والموت!
- ✓ لا قيام لحكم طاغية إلا على الأذهان الممسوخة، والأفكار الراكدة البلهاء، والحجر على ذوي الرأي أن ينظروا للأمور إلا من الزاوية التي يراها لهم الطاغية!
- ✓ إنما استكبر من استكبر من الفراعنة والجبابرة لأنهم وجدوا من الرعاع من يسارع إلى إجابة أهوائهم؛ وإطاعة نزواتهم؛ دون بصر أو حذر، فعتوا في الأرض، وعلوا علوًّا كبيرًا! ولو أنهم

عندما أصدروا أوامر يُمليها الغرور، وتنكرها الحكمة وجدوا من يردها عليهم، ويناقشهم الحساب، لتريثوا طويلًا قبل أن يأمروا بباطل!

- ✓ إن الحاكم في قصره قد يستمع إلى آيات القرآن فيهز لها رأسه تأثرًا، ويغمض عينيه تخشعًا، في الوقت الذي يمضي فيه أوراقًا تحمل للناس أقبح المظالم، وتوقع بهم أشنع المآثم! وقد تجد الثري من هؤلاء المترفين يحتفي بعلماء الدين، ويخف لاستقبالهم وإكرامهم؛ في الوقت الذي لا يحبس فيه فقط حقوق الفقراء في ماله؛ بل يغتال حقوق العمال في أرضه!
- ✓ إن عقليتهم المريضة أخذت الدين تمائم وهمهمات وأدعية؛ فلم يزدهم الدين إلا مرضًا، ولم تزدهم تعاليمه إلا رجسًا، وتطهير هؤلاء جميعًا لن يتم إلا بتطهير الأرض منهم!
- ✓ والغريب أن فرعون ألحظُ فيه ما ألحظه في المستبدين، وهو أن فيهم كبرياء، وعنادًا، وفسوقًا، وجحودًا، وقسوة قلب عجيبةَ وفيهم أيضًا – إلى جانب هذا كله – غباء يستدعي النظر؛ لأنه – وهو يطارد موسى ومن معه – وجد البحر يخضع لعملية تحول غير عادية: الأمواج تنحدر يمنة ويسرة، ويبدو الطريق يبسًا، فكان ينبغي أن يفهم أن هناك حالة غير ما ألف، وغير ما ينتظر، وهؤلاء بعصا موسى عرفوا كيف يشقون طريقهم إلى البحر؛ فكيف يمضي وراءهم؟

إنه فهم أن البحر سيظل معجزة قائمة من أجله! هذا هو الغباء، وهو غباء مألوف في المتكبرين، بل لاحظت أن نهايات هؤلاء الجبابرة تكون من غبائهم الشخصي، فهم – حتى آخر لحظة – تكون لهم تصرفات فيها صلف، وعمًى ينسج على بصائرهم؛ فلا يستطيعون أن يروا إلا أهواءهم.

- ✓ إنني أرمق أوضاع العرب السياسية فأشعر بغصّة، وسيبقى العرب ينحدرون ما داموا يرفضون الإسلام تربية وثقافة، وشريعة وفلسفة، وشارة حياة، ودعامة مجتمع، وسيبقى الصلف اليهودي يتورم، وتنفخ فيه الدول الكبرى؛ ما بقي العرب زاهدين في الإسلام. وسيبقى قادتنا أصحاب عضلات من حِزَق* إلى أن يرجع الإيمان التائه إلى القلوب الفارغة، وتعود الأخلاق إلى المسالك

✓ ________________ * قال في الوسيط: حَزَقَ الأسِيرَ: شَدَّ وَثاقَهُ بِحَبْلٍ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وحَزَقَ الرِّبَاطَ: أَحْكَمَ شَدَّهُ!

المعوجة!

- ✓ العرب بطريقتهم التي يعيشون بها الآن لن يضربهم اليهود وحدهم! بل ستضربهم كلاب الأرض كلها! العرب بالطريقة التي يعيشون بها لا يستحقون نصرًا!

لكي يستحق العرب النصر يجب أن يسألوا أنفسهم، أو لكي يدخلوا بيت المقدس مرة أخرى يجب أن يسألوا أنفسهم: هل سنكون بأخلاق الجبابرة الذين سكنوا بيت المقدس قديمًا، فبعث الله إليهم يوشع بن نون فدمّر عليهم، واستوقف الشمس فلم تغرب حتى ألحق بهم الهزيمة.

- ✓ لقد قرأت في إحدى الصحف خبرًا يذكر بمرور سبعين عامًا على مأساة دنشواي أيام الاستعمار الإنجليزي، وقلت في نفسي: ما تكون مأساة دنشواي إلى عشرات ومئات القتلى الذين أودى بهم الاستعمار الداخلي!؟
- ✓ أحب أن يلتفت المسلمون إلى أن الفساد السياسي سيعيق نهضتهم ما بقي هؤلاء الساسة المستبدون، وما بقي حكم الفرد والاستبداد السياسي، لكننا حائرون؛ فالرعاع الذين حكموا في العالم العربي باسم الثورة الاشتراكية، والديمقراطية كان لهم بطش لم يعرفه الأباطرة الظلمة!
- ✓ فساد الحكم كان له دخل هائل، وليس عند الحاكم مانع في أن يشغل الناس أنفسهم بالمرويات التافهة، بل يضع لهم من يؤلف لهم عنترة بن شداد، وحمزة البهلوان، وألف ليلة وليلة؛ حتى ينشغلوا عنه، وفساد الحكم من أهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية.
- ✓ إن العرب – بعيدًا عن الإسلام – لن يكونوا إلا حطب جهنم! ذاك في الدار الآخرة؛ أما في هذه الدنيا، فإن العرب – بعيدًا عن الإسلام – سيأكل بعضهم بعضًا، ثم يأكل بقيتهم اليهود والنصارى!
- ✓ ولكن العرب نسوا معقد شرفهم وعروة مجدهم، وظنوا أنهم بغير الإسلام يمكن أن يكونوا شيئًا! وقوي هذا الشعور، أو ضعف حسب انكماش الإيمان وامتداده!
- ✓ وجاء دور الهزيمة العامة في تاريخ العرب الأخير، والعرب يفخرون بأصلهم لا بدينهم، ويتحدثون

عن دمهم لا عن نسبهم الروحي الثاقب.

- ✓ ولعل أغرب مفارقة في تاريخ الحياة كلها أن يقبل اليهود في موكب تقوده التوراة على حين ينسى العرب قرآنهم، بل تستعجم لغتهم على أفواههم؛ فما يحسنون النطق بها.
- ✓ وبديه أن تتلاحق المخازي في شؤون العرب السياسية والاجتماعية، وألا يبدو لهم نصر في أفق من الآفاق! كيف وقد تيقظت الشهوات، وصرخت الأثرة، وشرع العرب المعاصرون يحيون كما كانت عاد وثمود، يبطشون بطش الجبابرة، ولا يروى لهم عطش إلى الملذات الحرام!؟
- ✓ إن الذين يعيشون فكر المؤامرة كأنهم يعطون أنفسهم صك البراءة، وإعفاء الذات من المسؤولية! وهذا يتناقض مع الخلاصة القرآنية: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى):

الانتكاس والعيب بسبب ذاتنا المثقلة بالذنوب والخطايا، فكبرياء السلطة عندنا، وذل الجماهير عندنا، وركود الرأي العام عندنا، وانشغال العلماء بأسقط القضايا عندنا، فبأي وجه يلقى المسلمون الناس؟ ثم بأي وجه يلقون ربهم!؟

- ✓ إن الحرب فُرضت فرضًا على العرب؛ فلا خيار لهم بإزائها، ولا مكان للتساؤل عن فرص تجنبها بعدما دارت رحاها على يومنا وغدنا. ولا معنى لتجنُّب الحرب إلا الاستسلام للفناء، والرضا بالتلاشي والانقضاء!
- ✓ إذا كان الدين ضرورة إنسانية لرشد الناس، وقيامهم بحقوق خالقهم، فإن الدين للعرب هو الهواء الذي يبقي حياتهم، أو الغذاء الذي يمسك كيانهم، فليروا رأيهم، إن شاؤوا الحياة أو شاؤوا الممات!
- ✓ هل تعتقد، ونحن في ما نحن فيه اليوم من التخلف، والغياب الحضاري، قادرين على أن نميز بين ما ينتفع به وما لا ينتفع به مما عند الآخرين؟ فالأقوياء الذين يتمتعون بعقول وأبصار حديدية، ومعد هاضمة من الناحية الحضارية، هم القادرون على الانتفاع بأغذية الأمم الأخرى وما عندها، أما الأمم المتخلفة فستكون عاجزة عن التمييز بين الغث والسمين، بين ما يؤخذ وما

يترك، لأنها افتقدت المقياس، ولأنها لم لو تكن كذلك لاستطاعت أن تتقدم فتفقه بما في تاريخها الحضاري، وما عند الآخرين، كما كان حالنا عندما كنا نتمتع بالشهود الحضاري.

- ✓ لو تدبر المسلمون بالقرآن تمامًا لما حل بهم ما حل من الاستسلام، والسقوط، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي ولكانوا في مستوى قرآنهم، وما قص عليهم من قصص ليأخذوا العبرة فتحول دون وقوعهم فيما وقع به الأقوام السابقون، لكن المشكلة أن القرآن بقي معزولًا عن حياة المسلمين، فلم ينتبهوا إلى مثل هذه القضايا.
- ✓ الأمة معصومة بمجموعها، ولا يمكن أن تتواطأ على خطأ وكذب واستبداد وظلم وما إلى ذلك، فيمكن أن نقول: بأنه وجد خلال فترات التاريخ الإسلامي، وخلال فترات الاستبداد السياسي، من يعلن الحقيقة ويشير إليها، ولو كانت مساحة المعارضة والمواجهة لم تشكل تيارًا في بعض الفترات إلا أنها لم تغب بشكل كامل، وكان ذلك مصداقًا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الأمة لا تتواطأ على خطأ، فتبقى شعلة الإضاءة قائمة على مدى العصور من خلال أفراد أو جماعات أو مجموعات على امتداد أربعة عشر قرنًا، فكان هناك مجدد أو مجددون كل قرن، والأمة لم تبق في الظلام باستمرار دون أن يكون هناك من يذكرها، بل وجد في كل عصر من وضح أن القافلة تسير بطريقة فيها انحطاط.
- ✓ الشيء الذي يشغل البال حقيقة هو قدرة الحكم على غلبة الأمة على امتدادها! كيف؟ لا شك أن ذلك إنما يكون بسبب وجود القابليات عند الأمة لهذا النوع من الاستبداد السياسي؛ فلولا هذه القابلية لما امتد الاستبداد، والأمر المحير: أن الأمة التي لها هذا الميراث الثقافي، وهذه القيم الهادية، إضافة إلى تجربة الخلافة الراشدة، وما إلى ذلك، يستطيع وبسهولة فرد، أو نظام، أو طبقة، أو مجموعة، أو عشيرة، أو قبيلة، أن تلغي دور الأمة! هذه قضية لافتة، خاصة والدراسات الحديثة تجعل التاريخ من صنع الأمم وليس من صناعة الأفراد، وهو كذلك حقيقة، لأن الأفراد في نهاية المطاف ينشأون في مناخ الأمة الثقافي وظرفها الاجتماعي.

- ✓ الجهاد وظيفة للأمة، والفرد ليس له إلا أن يقدم نفسه ليكون فردًا يتلقى الأوامر. أما عملية الجهاد وتمويلها فتقوم به الأمة، وصنع الأجهزة في البر والبحر والجو، تقوم به الدولة. وما يتصل بالجهاد كله، ليس قطاعًا خاصًّا فهذا شيء يتصل بالدولة المسلمة.

يمكن أن نوضح هذا، فنقول: هناك بعض الأحكام موجهة للدولة، وهناك بعض الأحكام موجهة للفرد، وتقع في نطاقه، وهناك أحكام لا يمكن أن يتصور إنفاذها إلا عند وجود دولة، أي سلطة، لكن في حال غياب الدولة، تتعطل بعض الأحكام، ولا يحق للأفراد بحال من الأحوال، أن يمارسوا سلطان الدولة!

- ✓ والتدين في الأمم المنحطة، يقبل حيث يجب الأدبار، ويدبر حيث يجب الإقبال، ويفقد أعظم خصائص الإيمان؛ من تمسكٍ بالفضائل البناءة، واجتراء على المظالم الواقعة، واحتقار للحياة المهينة، وإيثار لما عند الله إذا اقتضى التمسك بالدنيا غرما أو تضحية! ذلك أنه تدين فاسد، فشل في إرضاء الله، وفهم رسالته، وفشل في امتلاك الدنيا وفهم طبيعتها!
- ✓ إنني أشعر بخزي يوم تكون كلماتنا سائبة، وكلمات غيرنا مربوطة!، وأعمالنا ناقصة، وأعمال غيرنا متقنة!
- ✓ تخلُّفنا الحضاري جريمة، نحمل نحن عارها ولا يحمله الآخرون عنا، وإن الأخطاء أو الخطيئات التي ارتكبها المسلمون داخل أرضهم هي التي استدعت القوات الأجنبية للمجيء من الخارج، وإن العلاج ليس فتوى مضحكة بإعلان الجهاد؛ وإنما هو إعادة ترتيب البيت كله، ليعود للعقل الإنساني مكانه، وللخلق الإنساني مكانه. إن دين الفطرة لا دور له في بلاد تحيا على التصنُّع والتكلُّف والمراءاة والكذب!
- ✓ مأساة العرب الحاضرة أن أعداءنا يكثرون ولا يقلُّون، ويقوون ولا يضعفون، أما نحن فليست مصيبتنا من قلّة السلاح، ولا قلة المال، ولا من قلة العدد! إن مصيبتنا نابعة من أنفسنا وحدها! وما لم تتغير النفوس فلن يتغير ما بنا! إذا كنا راضين عن أنفسنا – وتلك أحوالنا – فستبقى

هذه الأحوال حولنا كما يبقى الظل الأعوج مع العود الأعوج!

- ✓ إن العربَ البعيدين عن دينِهم قدموا لليهودِ أرخصَ نصرٍ عُرف في تاريخِ الحروب! وما أشهدُ في سيرِ الأولينَ والآخرينَ أمةً هزمتْ نفسَها كالعربِ المعاصرين!

لقد هزَمَتهم بلادة الفكرِ والشعور، وسوءاتِ التَخطيطِ والتنفيذ، وفوضى الفُرقَةِ والعِصْيَان والتَسَيُّب. وهيهات أن تتبدلَ أحوالُهم إلا وَفْقَ سننِ اللهِ: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)!

- ✓ إنهم شيء آخر غير الإسلام، شيء قوامه الجهالة و المعصية، والتفريط والنكوص! وفي كل مقارنة تقع بين أحوالنا وبين أفجر أمم الأرض تبين هذه الحقيقة البسيطة: ظلمنا للإسلام، وظلمنا لأنفسنا! إنهم بهذا التأخر أساؤوا إلى الإسلام أكبر مما أساؤوا إلى أنفسهم!
- ✓ هل محاربة الإسلام ذاته – تحت عنوان محاربة التطرف – لون من الديمقراطية؟ هناك سلطات في العالم العربي والإسلامي تكره كل ما أنزل الله، وتثور ثائرتها إذا رأت فتاة مستورة الرأس والأذرع، وترفض بغضب كل صيحة لإلغاء الأحكام التي جلبها الاستعمار العالمي عندما طوانا تحت رايته! فهل هذه ديمقراطية! أم أنها امتداد للإذلال القديم وللغارة الصليبية على العالم الإسلامي؟!
- ✓ أحيانًا نتحرك في موضعنا، وأحيانًا نسير في طريق مسدود! وأحيانًا نضرب عن يمين وشمال وكأن بيننا وبين الصراط المستقيم خصومة:

  - ○ في عالم يبحث عن الحرية نصور الإسلام دين استبداد!
  - ○ وفي عالم يحترم التجربة، ويتبع البرهان نصور الدين غيبيات مستوردة من عالم الجن، وتهاويل مبتوتة الصلة بعالم الشهادة!
  - ○ وفي عالم تقارب فيه المتباعدون ليحققوا هدفًا مشتركًا؛ فلا بأس أن يتناسوا أمورًا ليست ذات بال! في هذا الوقت ترى ناسًا من الدعاة يجترون أفكارًا بشرية باعدت بين المسلمين من ألف عام، ليشقوا بها الصف ويمزقوا بها الشمل!

إن الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة، وإن الدعاة العاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لنعدم السقط، وننفي الغلط!

- ✓ إن القيم الإنسانية في بلادنا تحتاج إلى من يرد لها احترامها، حتى لا نرى المواهب الكريمة تدفن وتذوب، لأنها نبتت في بيئات فقيرة، وحتى لا نرى أقزامًا يتحولون بين عشية وضحاها عمالقة كبارًا!
- ✓ ومن حقي أن أقول: إن بيئة هذا إنتاجها لم يصنعها الإسلام، وعلينا أن نسارع إلى تغيير التناقض بين ديننا وحياتنا، وأن نفهم كل منتسب إلى هذا الدين أن الأمر جد لا هزل، وأن استبقاء هذه الفوضى طريق الكفر؛ إن لم تكن الكفر نفسه.
- ✓ ما أرخص الإنسان العربي في دنيا الناس، وما أهون دمه وعرضه وما أضيع حقه! لكنه هو الذي فعل بنفسه ذلك كله، إن المنتحر لا يتهم أحد بقتله، فهو قاتل نفسه!
- ✓ مطلوب منا أن نلعق جراحنا ونبتسم للجلادين الذين يلهبون ظهورنا!

مطلوب منا أن نعتبر حقنا باطلًا، وباطل غيرنا حقًّا! مطلوب منا أن نكون كما قال الشاعر:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكمُ *** وتخطئون فنأتيكم ونعتذر

- ✓ من الملوم؟ المجرمون الذين استباحوا حرماتنا دون قلق؟ أم المستباحون الذين أهدرت كراماتهم، وديست شعائرهم وشرائعهم؛ فلم يفزعوا إلى المقاومة المستميتة؟
- ✓ والأمة التي لا أمانة فيها هي الأمة التي تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء، لتهملهم وتقدم من دونهم، وقد أرشدت السنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد، الذي سوف يقع آخر الزمان: جاء رجل يسأل رسول الله: متى تقوم الساعة؟

فقال له: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)! فقال: وكيف إضاعتها؟! قال: (إذا وُسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة)!

- ✓ قد يكون الرياء من الصغار للكبار ابتغاء عرض الدنيا. وقد يكون من الكبار للصغار ابتغاء تأليف الأتباع، إذ يجب هؤلاء السادة أن يمهدوا لزعاماتهم ورياساتهم بأعمال تزرع في القلوب هيبتهم، وتجعل لجاههم في الأرض دعائم مكينة، فيفعلون الخير لا لوجه الله ولا لحب الخير، بل ليلفوا بهم الجماهير المعجبة، وتلتف نحوهم الأعناق المشرئبة، فيكون رياؤهم امتدادًا لكبريائهم!

- ✓ قلت لأولئك الناس: تريدون بعثًا عربيًّا؟ وأنا كذلك أريد بعثًا عربيًّا! هل رفع شأن العرب رجل أعظم من محمد؟ هل خلّد لغتهم إلا القرآن؟ هل دخل بهم في التاريخ إلا الإسلام؟ هل كفكف عصبياتهم وأمات حزازاتهم إلا هذا الدين؟ فأذهب فرقتهم، ورفع رايتهم، ونصرهم على عدوهم، وحمَّلهم رسالة خالدة، هي الرحمة للعالمين!

ما هي الرسالة التي يحملها العرب إذا تركوا الإسلام؟

تقولون: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة؟ ما هي هذه الرسالة؛ إن لم تكن الإسلام؟ ثم إن الإسلام جعل العربي النصراني مضمون البر والعدل، موفور الكرامة والذمة؛ وما أظن أحدًا من العرب الذين يحترمون جنسهم يكره محمدًا، أو يَوَدّ العَنَتَ لقومه والهوان لرسالته!

- ✓ الذي وجدته في أدعياء العروبة أنهم يكرهون اللغة العربية، والتراث العربي، التاريخ العربي، حتى لقد استيقنت أنهم سماسرة الاستعمار خبيث، يريد القضاء على العرب باسم العروبة!

معارك الشيخ رحمه الله تعالى على الجبهة الفلسطينية:

وكم حارب الشيخ رحمه الله تعالى على الجبهة الفلسطينية، وكتب من بدايات حياته، أيام فاروق، برؤية واضحة عن طبيعة الصراع بيننا وبين يهود، فقال (وأستفيد هنا من مادة جمعها الأستاذ وائل عزيز من آثار الشيخ، في مقاله: نحن وإسرائيل: رؤية الشيخ الغزالي) باختصار وزيادة:

النظرة الغبية للقضية:

- نرفض أن ينتهز بعض الناس هذه الغضبة؛ ليصوروا مأساة فلسطين تصويرًا خاطئًا، وليلقوا في الأوهام أننا دخلنا في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، لم نستفد منها إلا الخيانات والمتاعب، ثم يخلط هؤلاء المبطلون كلامهم الزور بدموع يذرفونها على الشهداء، وأحزان يظهرونها على المنكوبين! وبهذه السياسة الملتوية، والمشاعر المفتعلة يكلف المسلمون في مصر أن ينسوا إخوانهم في فلسطين، وأن يتركوا الأرض المقدسة لليهود، وحسب الشهداء والجرحى والمشوهين!

- تأمل معي في هذه الطرفة: كان رجل يمشى في طريقه مسترسلًا لا يحذر خطرًا، فإذا لص يخرج عليه، مدججًا بالسلاح، ويسلبه حافظة نقوده ثم يقول له: انس ما حدث، وامض في طريقك! وحاول الرجل الكلام والمقاومة؛ فإذا اللص يقول له في حزم: قلت لك: انس ما كان وامض في طريقك بسلام! وإلاّ...

وجاء كاهن خسيس يقول للرجل المقهور: إنه يدعوك للمرور بسلام! السلام أولى بك، ألم تسمع قوله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)!؟ توكل على الله واقبل السلام!

قال الرجل البائس: إنني مسروق، ويجب أن أسترد مالي، وإذا لم يكن اليوم لي، فإلى الغد القريب أو البعيد! وارتفعت أصوات من هنا ومن هناك تقول له: أتهدّد الأمن، وتعكر الجو؟ إنك إرهابي مزعج تثير الفتن وتمنع الاستقرار.

وقال الرجل: كيف يوصف المعتدى عليه بأنه إرهابي؟ كيف يوصم المغلوب على أمره بأنه شرير؟ أما يود عاقل أو عادل يقول: ردّوا للمظلوم ما أخذ منه!؟

المضحك أن جهودًا مكثفة تبذل في هذه الأيام لإقرار السلام، أو – بتعبير صريح – لإكراه المسروق على السكوت، وتهديده إذا استأنف الصياح بأنه إرهابي جدير بالقتل!

إن قضية اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها نموذج حي للسطو الصفيق، والحق المضيم، ونموذج لأزمة الأخلاق والضمائر من عصور سحيقة: قال موسى لفرعون: "أرسل معي بني إسرائيل"، وكان سهلًا على الفرعون الطاغية أن يرسل اليهود مع نبيّهم خارج مصر التي ضاقت بهم. لكنه أبى، ورد بهذا القول: (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك)! إن للقوة العمياء منطقًا لا يعرف الحياء، وسيجيء يهود من روسيا وغيرها يطردون السكان الأصلاء من دورهم التي توارثوها من الأف السنين، ثم يقال للطريد الشارد: إنك إرهابي يجب أن تهيم على وجهك!

إن عقائد وجماهير تُعامل بهذه الدناءة ثم تتهم بأنها تثير العدوان، وتقترف المظالم!

- كان أولى بالمتألمين من حرب فلسطين أن يصبوا جام نقمتهم على الذين رسموا الخطط لإفناء العرب، وتبديد قواهم هباء، وعلى الذين وضعوا الأسلحة في أيدي المقاتلين الأبرياء، فنالت منهم قبل أن تنال من خصومهم! أما أن يتألموا من حرب فلسطين؛ لأن نجدة الحق تتطلب البذل والفداء، فهذا والله هو المنكر!

هم بنو إسرائيل، فبنو من نحن؟!

- لقد قرّر اليهود إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وتحوّلت أمانيهم الدينية إلى مخططات مدروسة

تنفَّذ بدقة وصرامة: فهم باسم التوراة والتلمود جاؤوا! وتحت شعارات من الوحي الذي يقدِّسونه تحركت مواكبهم من أرجاء الشرق والغرب صوب فلسطين.

لقد جررنا إلى الحرب، ولا مناص:

إن العداوة التي بيننا وبين اليهود لا يعود وزرها إلينا، إنها فرضت علينا فحملناها كرهًا، وماذا عسانا نصنع مع قوم أبوا إلا تدميرنا، وبناء ملكهم على ركام مهشوم من أنقاضنا وأشلائنا؟!

إننا حاربناهم، ولا تزال حالة الحرب قائمة بيننا وبينهم، ولئن ندمنا على شيء إنما نندم لأن قياد جنودنا، وخطط حربنا كانت بين الأيدي الملوثة، والطباع الدنيئة!

فقاتل المجاهدون في جبهتين: اليهود أمام وجوههم، والحكومات المجرمة من وراء ظهورهم، فلا عجب إذا أحيط بهم، وحاقت الرزايا بصفهم.

وشريعة الله في هذا أن المنافق الخائن أخو الكافر الجائر، كلاهما يجب أن يلقى أشد العقاب.

- ✓ وتحت شعارات من الوحي الذي يقدِّسونه تحركت مواكبهم من أرجاء الشرق والغرب صوب فلسطين. وفلسطين عندما قرّر اليهود الاستيلاء عليها لم تكن أرضا خلاءً، بل كانت مسكونة بألوف مؤلفة من العرب. ومعنى تهويد هذه الأرض طرد مَن عليها من سكان أو إبادتهم؛ وفق تعاليم العهد القديم.

وقد أعان الاستعمار إعانة فعّالة على تحقيق هذه الغايات وتقريب بعيدها وتذليل صعابها، وانتهى الأمر في سنة 1368هـ إلى قيام دولة لليهود تحاول البقاء في وجه مقاومة متفرقة من العرب الذين صحوا على أشباح الضياع والذل والخيانة تحيط بهم من كل مكان، فهل يحتاج فهم هذا الموقف إلى ذكاء سطحي أو عميق؟

في ترك الرد بالمثل فناء الأمة:

- إن الحرب قد أُعلنت بالفعل على العرب، وهدفها المحدّد إجلاؤهم، أو إفناؤهم، وإقامة وجود ديني يهودي على أنقاض جنسهم ورسالتهم وكتابهم؛ فأين مكان الإسلام في هذا الوضع؟!
- وإن أعجب فعجبي للذين يقادون إلى مصارعهم وهم مخدَّرون، وتلطمهم الأحداث وهم غافلون. (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) التوبة: 126.
- إن الحرب فُرضت فرضًا على العرب فلا خيار لهم بإزائها، ولا مكان للتساؤل عن فرص تجنبها بعدما دارت رحاها على يومنا وغدنا. ولا معنى لتجنُّب الحرب إلا الاستسلام للفناء، والرضا بالتلاشي والانقضاء، وما دام القتال قد كُتب علينا بدوافع دينية، وأحقاد تاريخية، وأطماع استعمارية، وما دامت غايته إبادتنا، فلا بد أن نتلاقى عربًا ومسلمين، حكومات وشعوبًا لرد هذه الغائلة، واستبقاء وجودنا المهدَّد.
- إن السلام هنا معناه الاستسلام للذبح، معناه قيام إسرائيل؛ لا داخل حدودها الحالية وحسب! بل في الإطار الذي رسمته التوراة من الفرات إلى النيل! ومعنى هذا – دون كدِّ الذهن أو إعمال الذكاء – سحق الوجود العربي الإسلامي في الشرق الأوسط، ثم الإجهاز على أطراف الأمة الإسلامية الكبرى في إفريقيا وآسيا، بعد زوال الكيان العربي الأصيل، إذ العرب دماغ الإسلام وقلبه! وتلك هي الغاية التي تسعى لها قوّى كثيرة، وتتجمّع لتحقيقها عناصر شريرة. وإني ألمس وراء التحركات الكثيرة ضد فلسطين وأهلها بهذه النيّات السود، وتلك الأهداف الرهيبة!
- وقد أعان الاستعمار إعانة فعّالة على تحقيق هذه الغايات وتقريب بعيدها وتذليل صعابها، وانتهى الأمر في سنة 1368هـ إلى قيام دولة لليهود تحاول البقاء في وجه مقاومة متفرقة، من العرب الذين صحوا على أشباح الضياع، والذل، والخيانة تحيط بهم من كل مكان، فهل يحتاج فهم هذا الموقف إلى ذكاء سطحي أو عميق؟
- بين العرب اليوم سباق إلى مصالحة إسرائيل والرضا بالهزيمة المذلّة، وأول مَن سنّ هذه السنّة

الرئيس أنور السادات، لأنه ورث عن جمال عبد الناصر عروبة مقطوعة عن الإسلام، مربوطة بقومية مجرّدة، وجاهلية عمياء، حرمته كل توفيق، وأذاقته الموت!

- إن المؤامرة على الإسلام هائلة، وإذا لم نصحُ من غفلتنا فستحيق بنا اللعنة. إن اليهود منذ جاؤوا إلى فلسطين أيام الاحتلال البريطاني، لم يفكروا في صلح، ولم يخطر ببالهم إلا إقامة إسرائيل الكبرى، وقد أعنَّاهم على أنفسنا بفرقتنا المؤسفة، وتحوُّل العرب والمسلمين إلى شراذم مهتمة بمآربها الصغرى، مغطاة العين عما يراد بها.
- أريد أن أقول لمن تخدعهم صيحات الصلح: إننا نؤمل في سراب، وإن أعداءنا ماضون حسب مخططهم الديني المعروف.

ولن ننجو من أحابيل الخصوم الظاهرين والأخفياء إلا بعودتنا إلى الإسلام في قوة تعادل – أو تزيد على – عودة خصومنا إلى مواريثهم، واستمساكهم بدينهم، وحماسهم لمقدَّساتهم!

الحرب حرب دينية:

- إن قضية فلسطين خاصة يستحيل تجريدها من طابعها الديني، وإن العدوان اليهودي المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة، هي إبادة وإزالة أمة، وإزالة دين! هي الإجهاز على الأمة العربية التي حملت الإسلام عشر قرنًا، وتريد أن تظل عليه شكلًا إن تركته موضوعًا! الذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين، يشاركون في تحقيق هذه الغاية، لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامي زائلة، والعرب من بعدها زائلون، والمسلمون بعد زوال العرب منتهون! وهذه هي الخطة!
- إن قضية فلسطين هي قضية الإسلام! والمسجد الأقصى ليس أثرًا عربيًّا؛ إنما هو معلم إسلامي يعني جميع الأجناس التي اعتنقت هذا الدين. والأرض من الفرات إلى النيل هي الامتداد الزماني والمكاني لجهاد السلف الأول، الذي قضى على الإمبراطوريات الكسروية والقيصرية، وأقام الحنيفية السمحة في هذه الأرجاء. وضياع الأقطار الإسلامية من الفرات إلى النيل معناه ضرب الوسط؛

تمهيدًا للإجهاز على بقية الأطراف في الشرق والغرب.

- إن الحرب المعلَنة علينا دينية لا يماري في ذلك عاقل، وما دامت العقيدة سلاحًا يرتكز عليه العدوان، فلمَ لا تكون العقيدة سلاحًا يرتكز عليه الدفاع؟ وما معنى إبعاد الإسلام عن معركة هو فيها مستهدَف؟ وأمنه فيه ضحية اليوم والغد؟
- إنني أعتقد في أعماق قلبي أن إبعاد الإسلام عن المعركة لا يخدم إلا اليهود ومَن وراءهم من الحاقدين على رسالة محمد وجنسه، والقدامى والمحدثين. وإبعاد الإسلام عن القتال الدائر أنفع ليهود من إمدادهم بألف طائرة من أفتك طراز. إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يصد عدوانًا يعتمد على دين إلا دفاع يستند إلى دين
- الحملة اليوم شديدة التهويد القدس، إن الحملة بالغةُ المكر، واسعة الفتك، وهي في الوقت الذي تزعم فيه تجريد الشرق من أسلحة الدمار الشامل، تضاعف تسليح إسرائيل، وتضيّق الخناق على العرب.
- إن الحرب المعلَنة علينا دينية لا يماري في ذلك عاقل، وما دامت العقيدة سلاحًا يرتكز عليه العدوان، فلمَ لا تكون العقيدة سلاحًا يرتكز عليه الدفاع؟ وما معنى إبعاد الإسلام عن معركة هو فيها مستهدَف؟ وأمنه فيه ضحية اليوم والغد؟
- إن قضية فلسطين هي قضية الإسلام! والمسجد الأقصى ليس أثرًا عربيًّا؛ إنما هو معلم إسلامي يعين جميع الأجناس التي اعتنقت هذا الدين. والأرض من الفرات إلى النيل هي الامتداد الزماني والمكاني لجهاد السلف الأول الذي قضى على الإمبراطوريات الكسروية والقيصرية، وأقام الحنيفية السمحة في هذه الأرجاء. وضياع الأقطار الإسلامية من الفرات إلى النيل معناه ضرب الوسط تمهيدًا للإجهاز على بقية الأطراف في الشرق والغرب.إن المؤامرة على الإسلام هائلة،

وإذا لم نصحُ من غفلتنا فستحيق بنا اللعنة!

السلام خيار فاسد:

- إن اليهود منذ جاؤوا إلى فلسطين أيام الاحتلال البريطاني، لم يفكروا في صلح، ولم يخطر ببالهم إلا إقامة إسرائيل الكبرى، وقد أعنَّاهم على أنفسنا بفرقتنا المؤسفة، وتحوُّل العرب والمسلمين إلى شراذم مهتمة بمآربها الصغرى، مغطاة العين عما يراد بها.
- أريد أن أقول لمن تخدعهم صيحات الصلح: إننا نؤمل في سراب، وإن أعداءنا ماضون حسب مخططهم الديني المعروف.ولن ننجو من أحابيل الخصوم الظاهرين والأخفياء إلا بعودتنا إلى الإسلام في قوة تعادل أو تزيد على عودة خصومنا إلى مواريثهم، واستمساكهم بدينهم، وحماسهم لمقدَّساتهم!
- بين العرب اليوم سباق إلى مصالحة إسرائيل والرضا بالهزيمة المذلّة، وأول مَن سنّ هذه السنّة الرئيس أنور السادات، لأنه ورث عن جمال عبد الناصر عروبة مقطوعة عن الإسلام، مربوطة بقومية مجرّدة وجاهلية عمياء حرمته كل توفيق، وأذاقته الموت قبل أن يحين أجله!

إن السلام هنا معناه الاستسلام للذبح، معناه قيام إسرائيل لا داخل حدودها الحالية وحسب! بل في الإطار الذي رسمته التوراة من الفرات إلى النيل!

فقه الانتصار والانكسار

- ليس الانتصار والانكسار حظوظًا عمياء تصيب الأمم، وهي غير مستحقة لها، أو تفجؤها على غير توقُّع منها، أو تلتوي بمسيرها، فتقهرها على وجهة كانت تؤثر سواها.كلا؛ فإن الأمور تتدافع إلى نهايتها وفق سنن كونية دقيقة. وخواتيم الصراع بين الأمم لا تقع خبط عشواء، ولا تكيلها الأقدار جزافًا؛ بل تجيء وفق مقدمات منتظمة، كما تجيء النتائج بعد استكمال الأسباب. وربما كان ما يصيب الأفراد أحيانًا من نوازل مبهَمة سببًا في عد المصائب جملة أقدارًا قاهرة! ومعنى هذا – دون كدِّ الذهن أو إعمال الذكاء – سحق الوجود العربي الإسلامي في الشرق الأوسط، ثم الإجهاز على أطراف الأمة الإسلامية الكبرى في أفريقيا وآسيا – بعد زوال الكيان العربي الأصيل، إذ العرب دماغ الإسلام وقلبه – وتلك هي الغاية التي تسعى لها قوّى

الكيان العربي الأصيل، إذ العرب دماغ الإسلام وقلبه – وتلك هي الغاية التي تسعى لها قوّى كثيرة، وتتجمّع لتحقيقها عناصر شريرة!

شروط النصر محددة

- **وإني ألمس وراء التحركات الكثيرة ضد فلسطين وأهلها هذه النيّات السود، وتلك الأهداف الرهيبة! وإن أعجب فعجبي للذين يقادون إلى مصارعهم وهم مخدَّرون، وتلطمهم الأحداث وهم غافلون (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين؛ ثم لا يتوبون، ولا هم يذكرون) التوبة: 126!**
- **العرب – بطريقتهم التي يعيشون بها الآن – لن يضربهم اليهود وحدهم؛ بل ستضربهم كلاب الأرض كلها! العرب بالطريقة التي يعيشون بها لا يستحقون نصرًا، لكي يستحق العرب النصر يجب أن يسألوا أنفسهم؛ أو: لكي يدخلوا بيت المقدس مرة أخرى يجب أن يسألوا أنفسهم: هل سنكون بأخلاق الجبابرة الذين سكنوا بيت المقدس أم بأخلاق عمر وصلاح الدين؟!**

زوال إسرائيل مرتبط بزوال أنظمة الاستسلام والوهن

- **إن زوال إسرائيل قد يسبقه زوال أنظمة عربية، عاشت تضحك على شعوبها، ودمار مجتمعات عربية فرضت على نفسها الوهم والوهن، قبل أن يستذلها العم أو الخال، وقبل أن ينال من شرفها غريب!**
- **الأمة الإسلامية الآن نظرت إلى كثير من قادتها، ثم قدرت كفاياتهم بإنصاف، فوجدت أكثرهم لو كان يعمل في شركة ما كان أكثر من قمسيونجي! لو كان يعمل في مدرسة ما كان أكثر من كاتب قيودات! لكنهم بسحر ساحر أصبحوا رجال دولة! أصبحوا شيئًا خطيرًا! وعندما يصطدم هؤلاء بالرجال الكبار يتلاشون! اصطدموا بالنساء فتلاشوا!**
- **امرأة هندية تهزم المسلمين هناك (يقصد إنديرا غاندي) وامرأة يهودية تهزم المسلمين هنا (يقصد جولدا مائير! والسبب واضح وهو أن الأمة الإسلامية فرطت في دينها وتراثها!**

- ما بد من أن نعود إلى ديننا! وهي عودة ليست بنت يوم أو يومين، أو شهر أو شهرين: إن ما فسد على مدى قرنين من الزمن لا يصلحه حماس خطبة، أو حماس عام كامل! الأمر يحتاج إلى دراسة رجال، وأعمال لجان، وتدبير مخلصين! العمل يحتاج إلى الكثير!

الخيانة من أعلى: http://islamonline.net/articles/6102

خلال فترة الإدارة المصرية لقطاع غزّة كان الشيخ محمد الغزالي في بعثة الوعظ والإرشاد المصريّة إلى القطاع،كما كان الشيخ عضو اللجنة المركزيّة لحركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة 1952-1955، ونقتطف من حديث الغزالي عن فلسطين قوله: "على أعتاب الشهداء نحن الآن في الأرض المقدّسة وهذه قرية "دير البلح" التي قصدنا إليها لنزور قبور الشهداء!

وهنا بدأت أول معركة بين فتيان الإخوان المسلمين وبين بني إسرائيل الذين احتضنتهم إنجلترا، وسلّحتهم أمريكا، ومكّن لهم الخونة من أمراء العرب! أما الإخوان الذين أحالوا جسومهم ألغامًا تنسف دعائم المكر، فقد سُحبوا من الميدان لتمتليء بهم السجون والمنافي! هكذا صنعت بهم حكومة مصر، وها هي ذي بقية منهم لم تعد إلى مصر لأنّها ماتت في سبيل الله!"

لن نزيلهم وننتصر عليهم إلا إذا:

- ✓ أظن العرب يدخلون بيت المقدس مرة أخرى يوم يدرسون أخلاق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه! لم يكن الرجل – كما قلنا – عارض أزياء، ولم يكن داخلًا في موكب الخيلاء! بل كان الرجل يخوض بناقته بركة، ويرى أن يعرض الإسلام مبادئ تواضع.
- ✓ متى يدخل العرب فلسطين وبيت المقدس؟ يوم يرون رجلًا كصلاح الدين.. قالوا: جمع الغبار من معاركه، وأوصى أن يكون وسادة له في قبره، حتى إذا حوسب قال للملائكة: هذا الغبار كان في سبيل الله! أين أخلاق صلاح الدين؟! أين أخلاق عمر؟
- ✓ لست أخاف عدوي – فهو أمامي مكشوف – وأنا أجدر منه بنصر الله، إن صدقت ربي،

وسوّيت صفّي، وأخلصت نيّتي، ومضيت في الطريق، إما إلى الجنة، وإما إلى السيادة، والقيادة، والفوز المبين!

الأقصى ليس مجرد مسجد:

- إن زوال المسجد ليس قضية فلسطينيّة بل قضيّة قرآنيّة، وإن اليهود يتحرّكون بعقيدة دينيّة، بينما نحن لا نتحرك بالعقيدة الدينيّة المطلوبة، وإنّ واجب المسلمين أن يجعلوا المعركة معركة عقيدة. لقد قرّر اليهود إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وتحوّلت أمانيهم الدينية إلى مخططات مدروسة تنفَّذ بدقة وصرامة.فهم باسم التوراة والتلمود جاؤوا.
- الحملة اليوم شديدة لتهويد القدس، إن الحملة بالغةُ المكر، واسعة الفتك، وهي في الوقت الذي تزعم فيه تجريد الشرق من أسلحة الدمار الشامل، تضاعف تسليح إسرائيل، وتضيّق الخناق على العرب.

معاركه على الجبهة الصهيونية:

وإكمالًا لما سبق؛ هذا مختصر لما طرحه في كتابه (حصاد الغرور) الذي ظهرت طبعته الأولى عام 1970، قبل كامب ديفيد، وقبل التغول الصهيوني الكبير، فانظر إلى سلاسة طرحه، وغيرته، ولوعة فؤاده، ونظراته الثاقبة السابقة:

من أخطاء أهل الكتاب الأولين أنهم ظنوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه. وأنهم قادرون على فضله يمنحونه من شاؤوا، وقادرون على مغفرته يبيعونها صكوكًا لمن يدفع الثمن، وهذا كله تطاول بالباطل فإن الأفراد والأمم تعلو إذا قدرت على التحليق، وتهبط إذا فترت منها الهمم، وغلب علها الكسل وليس لأحد قط أن يتدخل في هذه القوانين الصارمة: (ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدًا).

وظاهر من السرد التاريخي أنه كان هناك شعب مختار فسد فعزل! وأن هناك شعبًا آخر وقع عليه الاختيار، ليبلغ رسالات الله، ويضيء الطريق أمام الأحياء. تلك هي الحقيقة التي تاه عنها جمهور كثيف من العرب، فتخطفته زبانية الأرض، ثم هوت به في مكان سحيق! والصراع الدائر الآن هو بين المطرودين من أصحاب الرسالة الأولى، وبين التائهين من أصحاب الرسالة الخاتمة!

إن اليهود الذين كذبوا عيسى منذ عشرين قرنًا، وكذبوا بعده محمدًا، مضوا في الطريق التي اختطوها لأنفسهم، وعاشوا في حدود ما لديهم من تعاليم وتوارثوا من تقاليد، وتحملوا غضب الله عليهم بجلادة تثير الدهشة. إنهم – على امتداد الزمان والمكان – لم يتخلوا عن رأيهم في أنفسهم أنهم شعب الله المختار!

ولما كان النصارى يعتقدون أن اليهود قتلة عيسى وسبب بلائه فإن الأمم النصرانية تقربت إلى الله بإذلال اليهود حيث كانوا، واستباحة دمائهم لأتفه التهم، حتى قيل: لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية من فوق ظهر الأرض!

ولم يتورع شعب مسيحي في طول أوروبا وعرضها على إلحاق الأذى باليهود جهد ما يستطيع. ومع هذا كله فإن اليهود شقوا مستقبلهم وسط هذه الصعاب، موقنين أنهم شعب الله المختار، ومؤملين في مستقبل أفضل، مستقبل يفرضون فيه مشيئتهم على العالم، وتتوج السلطة العليا فيه رأس إسرائيل..

واستطاع علماء بنى إسرائيل وأغنياؤهم أن يملؤوا ثغرات واسعة في علاقة المسيحية بأتباعها، وأن يكملوا قصورها في تغطية حاجات الخاصة والعامة الأدبية والمادية على السواء.

فما كاد يقبل عصر النهضة مع القرن السادس عشر الميلادى حتى شرع اليهود يبنون لجنسهم دعائم مكينة، وواصلوا البناء في صمت ومكر حتى أمكنهم خلال القرن العشرين أن يكونوا في مختلف القوميات الأوروبية والأمريكية طائفة ظاهرة اليسار والارتقاء!

وهنا شرع بنو إسرائيل يلبون دواعي الحنين في دمهم لبناء دولتهم الدينية وتحقيق حلمهم القديم في حكم العالم! وسنحت الفرصة بسقوط الخلافة الإسلامية، وغيبوبة العرب عن رشدهم، وذهولهم الهائل عن رسالتهم، فضرب اليهود ضربتهم، واحتلوا فلسطين!

وبديهي أن اليهود وحدهم ما كانوا ليقدروا على ما فعلوا! إن الحقد المشترك على الإسلام وأمته وجد في العدوان اليهودي أداة ترضيه، وتنفذ ما يبتغيه، ولذلك رحب به وأعانه – ولا يزال – على بلوغ أهدافه.

أول أولئك الحاقدين: الصليبيون الجدد؛ فإن الساسة الأمريكيين والأوروبيين المبغضين للإسلام وأمته يرون في إقامة دولة لليهود على هذه البقعة من أرضنا خطوة لها ما بعدها في زلزلة الكيان الإسلامي كله! ومن ثم حرصوا على خذلاننا في كل ميدان، وتخييب آمالنا في كل سعي، ولم نر من خمسين سنة – أي منذ بدأ احتلال اليهود لفلسطين – سياسيًّا مسيحيًّا يعارض اليهود، أو يرثي للعرب المنكوبين!

والواقع أن السلاح الأمريكى والفرنسي والإنجليزي هو الذي سفك دمنا، ونهب حقنا، واستباح وجودنا وتاريخنا، وأنكر حاضرنا ومستقبلنا. واليهود هم الأداة الطيعة التي اختيرت لتحقيق هذا المأرب!

وإلى جانب الصهيونية والصليبية عملت الشيوعية العالمية عملها في إقامة إسرائيل، وساندتها في المجال الدولي مساندة مكشوفة! ولا ريب أن الشيوعيين يسرهم أن ينقسم العرب قسمين واهيين؛ إثر قيام إسرائيل في مكانها الموجع الذي تحتله الآن، فإن ضعف الإسلام – بضعف العرب – يساعد على نشر الشيوعية، وإزاحة سدود ضخمة من أمامها! وموقفها الحالي من التوسع اليهودي تمليه ظروف سياسية معقدة!

وسط هذه الفتن والمحن أقبلت اليهودية العالمية تريد استعادة نشاطها الأول، معتقدة أن الإسلام أكذوبة يجب أن تنتهي، وأن أمته خرافة آن أن تزول! أي أن الهدف المخطط هو إزالة دين، ومحو أمة!

وإسرائيل الكبرى تمتد شرقًا وغربًا من الفرات إلى النيل، وتهبط جنوبًا حتى تشمل الحجاز، وتستوعب مكة والمدينة. وحجتهم أنه في هذه البقاع تجول أسلافهم وانتشروا، وأن الظروف التي شردتهم قد انتهت. وأن العرب الذين يستوطنون هذه الأرض ليسوا أهلًا للبقاء فيها. وإن المقدسات الإسلامية إنما تستمد مكانتها الروحية من تعلق أصحابها بها، وقدرتهم على حمايتها، ولكن محمدًا مات وترك بنات!

هكذا كانت التظاهرات اليهودية تجأر بالهتاف في مدينة القدس حيث المسجد الأقصى. وقد رأيت بعيني صور الجنود اليهود يحملون التوراة في اليد اليمنى، والمسدسات في اليد اليسرى، وهم على صهوات دباباتهم المنطلقة بهم في ربوعنا المقفرة، وأرضنا الذليلة الموحشة!

اشتبك العرب مع اليهود ثلاث مرات: سنة 1948، سنة 1956، سنة 1967، وانهزمت

دولهم خلال هذه المعارك هزائم شائنة، وكانت كل هزيمة أسوأ من سابقتها، وأشد خزيًا.

وإذا بقيت الروح الدينية والأساليب الخلقية لدى العرب على المستوى المعهود في معاركهم السابقة فلن يكسبوا معركة أبدًا، بل سيخسرون وجودهم كله، ويذهبون في خبر كان!

إن اليهود يقاتلون بدافع من إيمان، ويعملون لتحقيق رسالة دينية ومدنية معًا. أما العرب فإن ساستهم خلال خمسين سنة كانوا ينفذون مخططًا استعماريًّا لإبعاد الدين عن آفاق الحياتين الخاصة والعامة!

ويوم يلتقي رجل ملتهب المشاعر بعقيدة ما، مع رجل لم يستتر فؤاده بحقيقة دينه، بل لا يدري من حقائق هذا الدين قليلًا ولا كثيرًا فماذا تكون النتيجة؟ إنها الهزائم المرة التي ذقناها!

إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقف أمام معتدين باسم الدين إلا مدافعون باسم الدين!

إن اليهودي يأبى أن يأكل لحم الخنزير مثلا، لأنه محرم في دينه، ولديه ضمير ديني يمنعه من هذا الطعام بقوة! أما المسلم الذي أمامه فهو يشرب الخمر المحرمة في دينه دون ضمير رادع!

واليهودي يتعبد يوم السبت، ويصوم الأيام المقررة عنده. وعندنا لفيف ضخم من الرجال لا يصلون الجمعة، ولا يصومون رمضان، بل إن الصلاة متروكة في بعض الجيوش في كل الأوقات!

إننا نميط اللثام عن حقيقة مخيفة، وهى أن الدين أبعد إبعادًا متعمدًا عن ميادين الحرب والسلام جميعا. وإنه حظر على صوت الإسلام أن يخترق الآذان بالتوجيه الواجب؛ بينما كانت اليهودية تعمل عملها في جبهة القتال ووراء الجبهة.. فهل نلام إذا تصورنا أن إبعاد الإسلام عن هذه الميادين ليس إلا عملًا لحساب إسرائيل، أو لحساب القوى التي تساندها كليًّا أو جزئيًّا؟ كل الدلائل تشير إلى صدق هذا الاتهام!

والغريب أن العرب – في تفلتهم من قيود الدين وآدابه – ظهرت عليهم أعراض طفولة

عقلية ونفسية مزرية، فلم يتصرفوا مع عدو أو صديق تصرف الرجولة الناضجة، والسيرة الواثقة الجادة، بل على العكس، كانت خططهم الحربية هزيلة، وكانت مع هزالها مفضوحة، وكانت خطبهم ذات رنين عال ولهجة مفزعة! فلما التقى الجمعان تكشف اللقاء عن مهزلة، بل إننا هزمنا من غير قتال، وانتحرنا دون أن نلحق بخصومنا ضرًّا يذكر!

وأحقر ما سمعته في أعقاب هذه الهزائم تعليل الهزيمة بأي شيء إلا ضعف العقيدة والخلق، وما ينشأ عن ضعف العقيدة والخلق، من فوضى في وضع الخطط، وترتيب الرجال، ونسيان الله، والحرمان من توفيقه وتأييده!

وضربت كفًّا على كف وأنا أسمع الرفيق نور الدين الأتاسي يقول: إن سبب الهزيمة هو عدم التطبيق الكامل للاشتراكية! ويوم يقع قياد العرب في أيدى ساسة من هذا الطراز فهيهات أن ينجح لهم قصد، أو تعلو لهم راية، ولله في خلقه شؤون.

لقد أفلح الاستعمار في خلق جيل يستحي من الانتماء لدينه، ويرفض العمل تحت لوائه، وهذا الجيل الذي صنعه الغزو الثقافي هو الطابور الأول، لا الطابور الخامس الذي ألحق بنا الهزائم، ونكس رؤوسنا في كل ميدان!

ومن هنا يبدأ العمل الحقيقي للدعاة المسلمين، من هذا الخط تبدأ الجهود المضنية لإنقاذ أمة تمكن أعداؤها من أن يوجهوها ضد نفسها ورسالتها! من هذا الخط ينبغي أن تبدأ حركة إحياء مستوعبة مستغرقة تصل حاضرنا بماضينا، وتعرفنا من نحن؟ وما وظيفتنا في الدنيا؟ وماذا يراد بنا؟ وماذا يراد منا؟

ونحن – شئنا أم أبينا – سندخل مع اليهود في حرب بقاء أو فناء؛ فإما انتصرنا عليهم وإما أتم أبناؤنا ما عجزنا عنه. فإن نجح أبناؤنا فبها ونعمت، وإلا فعلى الأحفاد استئناف النضال إلى آخر الدهر!

إن الكوارث العسكرية التي أصابتنا خلال هذه السنوات العشرين مزقت الملاءة المسدلة على جسم ممدد معتل، تسرح الجراثيم القاتلة في أوصاله؛ طولًا وعرضًا .

وزاد الطين بلة أن الأمة التي استرخت قبضتها على تعاليم السماء عجزت كذلك أن تمسك بأسباب النجاح الدنيوي المعتاد! فظلال فشلها الديني امتدت إلى شؤونها الاقتصادية والفنية والإدارية فأصبح العمل الإنسانى الميسور للآخرين يخرج من بين يديها كما يخرج السقط من بطن الأم لا تعرف له ملامح، ولا يرجى له بقاء!

وقد رمقت ببصر دامع وقلب مكلوم معركة سيناء الأخيرة: كان قائد الأعداء واسع الخبرة والحيلة، وصل إلى منصب القيادة بعد ما دمى بدنه، وهو يصعد من السفح إلى القمة! وكان كما ظهر من سيرته محدود الشهوة، ممدود الفكرة، خدومًا لعقيدته، معتزًّا بدينه وكتابه، يقود جيشًا على غراره إيمانًا ونظامًا!   أما نحن فقد اجتمعت في قيادتنا نقائص كل الصفات، التي توافرت لدى عدونا؛ فهل كان الحكيم الخبير يلغي سننه الكونية، وقوانينه الأزلية الأبدية؛ فيجعل الفوضى تهزم النظام، والهوى يغلب العقيدة!؟

ولقد كشفت هذه الهزائم – خلال السنوات العشرين، بل منذ وعد بلفور 1917 أن الأدوية التي وصفها الزعماء السياسيون للأمة المريضة، لم تكن أدوية شافية؛ بل كانت سمومًا كاوية، فإن هؤلاء الزعماء تشابهت قلوبهم في مخاصمة الدين، ونبذ شرائعه وفضائله؛ ثم اختلفوا:

فمنهم من أعلن كفره بالإسلام عقيدة وشريعة وعبادة وتقاليد وأخلاقًا، ومنهم من طوى هذا الكفر في صدره – من باب السياسة، والكياسة، وخداع الجماهير – ثم مضى في طريقه، يبعد الأمة عن دينها عمليًّا، فلا يرى نورًا للإسلام إلا أطفأه، ولا نشاطًا إلا عوقه.

وخلال هذه المدة المتطاولة؛ من 1917 إلى الآن، استطاع اليهود – باسم الدين – أن يحولوا وعدًا خياليًّا إلى حقيقة واقعة! أما نحن الذين أبعدنا الإسلام عن المعركة، فقد ظللنا نتدحرج حتى

بلغنا الوهدة التي سقطنا فيها!

إن عمر بن الخطاب لما تسلم القدس من بطريقها المسيحي اشترط عليه هذا البطريق الناصح ألا يدخل اليهود القدس! وليتنا تذكرنا هذا الشرط! ولكننا ننسى. وقد عرف المؤرخون أن تسامحنا الديني خلال تاريخنا الطويل تحول إلى غفلة دفعنا ثمنها فادحًا!

على أن اليهود أنفسهم يجب أن يعلموا أن ما يدعون من حق في فلسطين لا يقوم على سند ديني محترم، فهم لم يغيروا شيئًا من خلائقهم التي أحلت بهم سخط الله في الدنيا والآخرة!

هم يعلمون أن لعنة الله تبعتهم وهم يفرون من بلد إلى بلد، فماذا صنعوا للخلاص منها؟ لا شيء، إنهم وراء جميع الأزمات الروحية والمادية التي تدوخ الجنس البشرى، وتميل به عن الصراط المستقيم. والذين يختبئون وراء إسرائيل يعلمون أن الوجه الديني لربيبتهم يخفى وراءه نيات سوداء للبشرية جمعاء.

والحق أن إسرائيل تجسيد لكل الأحقاد التي طفحت ضد العروبة والإسلام. وأن الأساس الوحيد لقيامها لا يلتمس في المشارق والمغارب، وإنما يلتمس في منطقة الشرق الأوسط هذه، أعني قلب الأمة العربية.

إننا لم نخف الله فخوفنا الله بذباب الأرض. وجعل الأقربين والأبعدين ينظرون بشماتة وازدراء إلى جراحاتنا التي لا ينقطع لها نزف.

إن عشرات الدول الكبرى والصغرى نظرت إلى اللص يسطو على البيت، فانضمت إليه ضد رب البيت الذي شرع يدافع بدهشة ولهفة عن مسكنه! إنه يدافع منتظرًا أي عون إنساني من أولئك المتفرجين على المعركة. وهيهات!

ولو تسللت إلى ضمائر هؤلاء المشاركين في الهيئة الدولية لوجدتهم يقولون: هذا اللص أولى

من الحيوان الذي يقطن الدار! إنها داره ولكنه لا يستحقها! تلك هي سريرة عدد كبير من الدول التي تسخر من ضعفنا، وبالتالي تحكم علينا لا لنا؛ والسبب نحن لا غيرنا، وذاك أرفق عقاب ينزله الله بأمة تخلت عن دينه، وأدارت ظهرها لتعاليمه!

وسوف يبقى الوضع كذلك حتى نذكر أننا مسلمون، وأن الإسلام يفرض علينا تشكيل أوضاعنا الخلقية والفكرية والاجتماعية والتشريعية على نحو آخر. عندئذ تطلع الشمس وتختفي الأشباح!

إن العداوة التي بيننا وبين اليهود لا يعود وزرها إلينا، إنها فرضت علينا فحملناها كرهًا، وماذا عسانا نصنع مع قوم أبوا إلا تدميرنا، وبناء ملكهم على ركام مهشوم من أنقاضنا وأشلائنا؟

إننا حاربناهم؛ ولا تزال "حالة الحرب" قائمة بيننا وبينهم، ولئن ندمنا على شيء إنما نندم لأن قياد جنودنا، وخطط حربنا كانت بين الأيدي الملوثة، والطباع الدنيئة!

فقاتل المجاهدون في جبهتين: اليهود أمام وجوههم، والحكومات المجرمة من وراء ظهورهم، فلا عجب إذا أحيط بهم، وحاقت الرزايا بصفهم.

وشريعة الله في هذا أن المنافق الخائن أخو الكافر الجائر، كلاهما يجب أن يلقى أشد العقاب! وكان أولى بالمتألمين من حرب فلسطين أن يصبوا جام نقمتهم على الذين رسموا الخطط لإفناء العرب، وتبديد قواهم هباء!

إنه لا شيء ينال من مناعة البلاد، وينتقص من قدرتها على المقاومة الرائعة، كفساد النفوس والأوضاع، وضياع مظاهر العدالة، واختلال موازين الاقتصاد، وانقسام الشعب إلى طوائف، أكثرها مُضيع منهوك، وأقلها يمرح في نعيم الملوك. إن أمة يستأثر بها حاكم، أو ظالم، أو مستبد، أمة لا يوثق بها أصلًا؛ أن تكون قابلة للحياة، والامتداد، وصناعة حضارة.

على جبهة التنصير:

وكما تكلم عن الصهيونية التوراتية الاستئصالية، تحدث عن التنصير ومآربه وأساليبه؛ فقال: إنّ الغزو التبشيري ليس له مصادر علميّة محترمة، وإنّ التبشير يرفض المعارك المباشرة لأنّه يعرف خطورتها عليه، ومن واجب المسلمين أن يتنبّهوا إلى ألاعيب المبشّرين وحيلهم، بتوثيق العلاقة بين المسلم وعقيدته، حتى لا ينحرف وراء الدعوات الباطلة.

وعن أبعاد هزيمة المسلمين الحالية، ونظرته إلى الحملة الصليبية الأخيرة، كتب:

لم تضع الصليبية العالمية ساعة في استغلال التخلف المدني والعسكري للمسلمين، وأخذت تعمل ليلًا ونهارا لتوسيع دائرتها على أنقاض الأمة المنهدمة.

وفي القارات الخمس بدأ التبشير يين المسلمين المقيمين والمغتربين، والأصحاء والمرضى، والمثقفين والأميين، والعرب والأعاجم، بدأ بمختلف الوسائل ينصب حبائله ويملأ يديه بغنائم باردة!

ونلحظ أن الخصوم القدامى أصلحوا ذات بينهم، واجتمعت صفوفهم، على أمل أن يجهزوا على الإسلام في محنته! اتفقت اليهودية والنصرانية، وغيرت عبارات في الصلوات المسيحية، وأولت نصوص في الأناجيل، وانتهت عداوة عشرين قرنًا ليواجه هؤلاء وأولئك الإسلام معًا!

واتفق الفاتيكان مع الكنيسة الشرقية التي ظل يحاربها طوال ستة عشر قرنًا، ويعدها مارقة عن

التعاليم الصحيحة، ومد إليها يده؛ ليواجه هؤلاء وأولئك الإسلام معًا!

واتفق الكاثوليك مع البروتستانت، وتنوسيت الخلافات والمعارك الداخلية بين الفريقين، وأمست المؤتمرات المسيحية تجمع بين الفريقين؛ ليواجهوا الإسلام معًا.

بل إن الاستعمار الصليبي لجأ إلى خطة بارعة: ترك الشيوعية تضرب الإسلام؛ أعانها، ومكن لها، واستقدم رجالها ومبادئها في الأقطار التي لم تبلغها! حتى إذا أوشكت أن تستولي على الدولة تدخل هو في الوقت المناسب، وتعاون مع إدارة إسلامية ضعيفة، ومهد لها طريق الحكم؛ على شرط أن تترك التبشير المسيحي يعمل عمله دون اعتراض!

وذلك سر إذاعة صوت الإنجيل من أم درمان العاصمة الإسلامية، وسر الأجهزة التبشيرية الهائلة في جزائر إندونيسيا الرحبة!

وماذا يتوقع بعد هذا كله؟ بعد أن تظاهر اليهود والنصارى والشيوعيون والبوذيون وغيرهم على أمة متعبة، لاهثة الأنفاس.

لقد نجح التبشير النصراني في قص أطراف كثيرة، وأمكنته الظروف التعيسة التي يعيش فيها مسلمون مضطهدون أو مضيعون أن يغري بالارتداد عن الإسلام ناسًا كثيرين في إندونيسيا وبنجلاديش وبورما والفليبين، بل إنه يهجم الآن بقوة في البلاد العربية نفسها!

وطريقة التبشير الأولى استغلال الفقر والانقطاع.. ولدي تقرير من أستراليا يفيد أن رب أسرة فارًّا من تركيا كاد يهلك من الضياع، فأسعفته بعثة تبشير، ثم تنصر الرجل وأولاده، وهم الآن يكونون أسرة فوق المائة!

وسيل المرتدين عن الإسلام في إندونيسيا كبير، ربما تجاوز المليون. وقال لي مسلم إندونيسي إنه يعرف موظفًا التحق بشركة للمياه الغازية بمرتب حسن، وكان مسلمًا محتاجًا قبل أن يجد هذا العمل،

فلما استقر فيه، وبدأت أموره تتحسن خير بين الفصل أو الدخول في المسيحية، ودخل الرجل وأولاده المسيحية ليعيشوا!

وعندما طردت حكومة بورما البوذية نحو نصف مليون مسلم من البلاد سارع الصليب الأحمر – مشكورًا – ليوزع اللبن على الجياع! ويقدم المأوى للشاردين!

وأنا أعرف أن نساءً كثيرات هنديات الأصل اعتنقن النصرانية، ويقمن الآن بعمل هائل في دول الخليج، في البيوت والمستشفيات ومدارس الأطفال..

إن التبشير في صمت حينًا، وفي مجاهرة حينًا يتحرك في كل القارات والأمل الذي يداعبه أن ينتهي – في القرن العشرين – من الإسلام، أو من عناصر القوة التي تستبقيه.

وإذا كنا نحن نحتشد في نهاية القرن الرابع عشر الهجري، لندير الرأي في خطة نستأنف بها الحياة، فإن القوم يفكرون خلال القرن العشرين الميلادي كيف يقضون علينا وعلى ديننا، وتتخلص الدنيا من محمد صلى الله عليه وسلم ودينه جملة وتفصيلًا!

بعد ذلك نقل الشيخ رحمه الله تعالى مقالًا منشورًا في مجلة مسيحية (توزي فوتيت إنترناشيونال، الصادرة في بلجيكا 23 مايو 1977م.) يعرض فيه بجلاء الوجهة التي تسير إليها معركة الأديان خلال هذا القرن! كان عنوانه: المسيحية تكتسح القارة الإفريقية!

لكن الأهم منه هو (التقرير الرهيب) الذي نشره في كتابه قذائف الحق؛ عما تريده الكنيسة الأرثوذكسية المتطرفة في مصر، والذي نرى ثماره الآن عفنة منتنة في الواقع الوجيع الذي نحياه، فانظر ماذا قال فيه، قبل بضع وأربعين سنة:

كنت في الإسكندرية في مارس من سنة 1973 وعلمت من غير قصد بخطاب ألقاه البابا شنودة في الكنيسة المرقصية الكبرى في اجتماع سري، أعان الله على إظهار ما وقع فيه!

وإلى القراء تقرير ما حدث كما نقل مسجلًا إلى الجهات المعنية: (بسم الله الرحمن الرحيم نقدم لسيادتكم هذا التقرير لأهم ما دار في الاجتماع:

بعد أداء الصلاة والتراتيل طلب البابا شنودة من عامة الحاضرين الانصراف، ولم يمكث معه سوى رجال الدين، وبعض أثرياء الإسكندرية، وبدأ كلمته قائلًا: إن كل شيء على ما يرام ويجري حسب الخطة الموضوعة لكل جانب من جوانب العمل على حدة، في إطار الهدف الموحد!

ثم تحدث في عدد من الموضوعات على النحو التالي:

أولًا: شعب الكنيسة:

صرح لهم (أي شنودة) أن مصادرهم في إدارة التعبئة والإحصاء أبلغتهم أن عدد المسيحيين في مصر بلغ ما يقارب الثمان مليون نسمة (هذا الكلام في عام 1973)، وعلى شعب الكنيسة أن يعلم ذلك جيدًا، كما يجب عليه أن ينشر ذلك، ويؤيده بين المسلمين، إذ سيكون ذلك سندنا في المطالب التي سنتقدم بها إلى الحكومة التي سنذكرها لكم اليوم!

والتخطيط العام الذي تم الاتفاق عليه بالإجماع، والذي صدرت بشأنه التعليمات الخاصة لتنفيذه، وُضع على أساس بلوغ شعب الكنيسة إلى نصف الشعب المصري، بحيث يتساوى عدد شعب الكنيسة مع عدد المسلمين لأول مرة منذ 13 قرنًا، أي منذ (الاستعمار العربي والغزو الإسلامي لبلادنا) . على حد قوله!

والمدة المحددة وفقًا للتخطيط الموضوع للوصول إلى هذه النتيجة المطلوبة تتراوح بين 12 - 15 سنة من الآن. ولذلك فإن الكنيسة تحرم تحريمًا تامًّا تحديد النسل أو تنظيمه، وتعد كل من يفعل ذلك خارجًا عن تعليمات الكنيسة، ومطرودًا من رحمة الرب، وقاتلًا لشعب الكنيسة، ومضيعًا لمجده؛ وذلك باستثناء الحالات التي يقرر فيها الطب والكنيسة خطر الحمل أو الولادة على حياة المرأة!

وقد اتخذت الكنيسة عدة قرارات لتحقيق الخطة القاضية بزيادة عددهم:

1- تحريم تحديد النسل!

2- تشجيع تحديد النسل، وتنظيمه بين المسلمين (خاصة وأن أكثر من 65 % من الأطباء والقائمين على الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة)!

3- تشجيع الإكثار من شعبنا ووضع حوافز ومساعدات مادية ومعنوية للأسر الفقيرة من شعبنا.

4- التنبيه على العاملين بالخدمات الصحية على المستويين الحكومي وغير الحكومي كي يضاعفوا الخدمات الصحية لشعبنا، وبذل العناية والجهد الوافرين؛ وذلك من شأنه تقليل الوفيات بين شعبنا على أن نفعل عكس ذلك مع المسلمين.

5- تشجيع الزواج المبكر وتخفيض تكاليفه، وذلك بتخفيف رسوم فتح الكنائس ورسوم الإكليل بكنائس الأحياء الشعبية

6- تحرم الكنيسة تحريمًا تامًّا على أصحاب العمارات والمساكن المسيحيين تأجير أي مسكن أو شقة أو محل تجاري للمسلمين، وتعتبر من يفعل ذلك من الآن فصاعدًا مطرودًا من رحمة الرب ورعاية الكنيسة، كما يجب العمل بشتى الوسائل على إخراج السكان المسلمين من العمارات والبيوت المملوكة لشعب الكنيسة! وإذا نفذنا هذه السياسة بقدر ما يسعنا الجهد فسنشجع ونسهل الزواج بين شبابنا المسيحي، كما سنصعبه ونضيق فرصه بين شباب المسلمين، مما سيكون أثرًا فعالًا في الوصول إلى الهدف! وليس بخافٍ أن الغرض من هذه القرارات هو انخفاض معدل الزيادة بين المسلمين وارتفاع هذا المعدل بين المسيحيين.

ثانيًا: اقتصاد شعب الكنيسة:

قال شنودة: إن المال يأتينا بقدر ما نطلب وأكثر مما نطلب، وذلك من مصادر ثلاثة: أمريكا، الحبشة، والفاتيكان، ولكن ينبغي أن يكون الاعتماد الأول في تخطيطنا الاقتصادي على مالنا الخاص الذي نجمعه من الداخل، وعلى التعاون على فعل الخير بين أفراد شعب الكنيسة، كذلك يجب

الاهتمام أكثر بشراء الأرض، وتنفيذ نظام القروض والمساعدات لمن يقومون بذلك لمعاونتهم على البناء!

وقد ثبت من واقع الإحصاءات الرسمية أن أكثر من 60 % من تجارة مصر الداخلية هي بأيدي المسيحيين، وعلينا أن نعمل على زيادة هذه النسبة. وتخطيطنا الاقتصادي للمستقبل يستهدف إفقار المسلمين ونزع الثروة من أيديهم ما أمكن؛ بالقدر الذي يعمل به هذا التخطيط على إثراء شعبنا، كما يلزمنا مداومة تذكير شعبنا والتنبيه عليه تنبيهًا مشددًا من حين لآخر بأن يقاطع المسلمين اقتصاديًّا، وأن يمتنع عن التعامل المادي معهم امتناعًا مطلقًا؛ إلا في الحالات التي يتعذر فيها ذلك، ويعني ذلك مقاطعة: المحامين . المحاسبين . المدرسين . الأطباء . الصيادلة . العيادات . المستشفيات الخاصة . المحلات التجارية الكبيرة والصغيرة . الجمعيات الاستهلاكية أيضًا! وذلك مادام ممكنًا لهم التعامل مع إخوانهم من شعب الكنيسة، كما يجب أن يُنبهوا دومًا إلى مقاطعة صنّاع المسلمين وحرفييهم، والاستعاضة عنهم بالصناع والحرفيين النصارى، ولو كلفهم ذلك الانتقال والجهد والمشقة.

ثم قال البابا شنودة: إن هذا الأمر بالغ الأهمية لتخطيطنا العام في المدى القريب والبعيد!

ثالثًا: تعليم شعب الكنيسة:

قال البابا شنودة: إنه يجب فيما يتعلق بالتعليم العام للشعب المسيحي الاستمرار في السياسة التعليمية المتبعة حاليًّا؛ مع مضاعفة الجهد في ذلك، خاصة وأن بعض المساجد شرعت تقوم بمهام تعليمية كالتي نقوم بها في كنائسنا، الأمر الذي سيجعل مضاعفة الجهد المبذول حاليًا امرأ حتميًّا حتى تستمر النسبة التي يمكن الظفر بها من مقاعد الجامعة وخاصة الكليات العملية!

إني إذ أهنئ شعب الكنيسة خاصة المدرسين منهم على هذا الجهد وهذه النتائج، إذ وصلت نسبتنا في بعض الوظائف الهامة والخطيرة كالطب والصيدلة والهندسة وغيرها أكثر من 60%! إني

إذ أهنئهم أدعو لهم يسوع المسيح الرب المخلص أن يمنحهم بركاته وتوفيقه، حتى يواصلوا الجهد لزيادة هذه النسبة في المستقبل القريب.

رابعًا: التبـشـير:

قال البابا شنودة: كذلك فإنه يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية؛ إذ أن الخطة التبشيرية التي وضعت بنيت على أساس هدف اتُّفق عليه للمرحلة القادمة، وهو زحزحة أكبر عدد من المسلمين عن دينهم والتمسك به، على ألا يكون من الضروري اعتناقهم المسيحية؛ فإن الهدف هو زعزعة الدين في نفوسهم، وتشكيك الجموع الغفيرة منهم في كتابهم وصدق محمد (قلت: اللهم صلِّ عليه وعلى آله وسلم) ومن ثم يجب عمل كل الطرق واستغلال كل الإمكانيات الكنائسية للتشكيك في القرآن وإثبات بطلانه وتكذيب محمد (قلت: صلى الله عليه وسلم) وإذا أفلحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة المقبلة فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات من طريقنا، وإن لم تكن هذه الفئات مستقبلًا معنا فلن تكون علينا.

غير أنه ينبغي أن يُراعَي في تنفيذ هذا المخطط التبشيري أن يتم بطريقة هادئة وذكية، حتى لا يكون سببًا في إثارة حفيظة المسلمين أو يقظتهم. وإن الخطأ الذي وقع منا في المحاولات التبشيرية الأخيرة – التي نجح مبشرونا فيها في هداية عدد من المسلمين إلى الإيمان والخلاص على يد الرب يسوع المخلص – هو تسرب أنباء هذا النجاح إلى المسلمين؛ لأن ذلك من شأنه تنبيه المسلمين وإيقاظهم من غفلتهم، وهذا أمر ثابت في تاريخهم الطويل معنا، وليس هو بالأمر الهين، ومن شأن هذه اليقظة أن تُفسد علينا مخططاتنا المدروسة، وتؤخر ثمارها وتُضيِّع جهودنا، ولذا فقد أصدرت

التعليمات الخاصة بهذا الأمر، وسننشرها في كل الكنائس لكي يتصرف جميع شعبنا مع المسلمين بطريقة ودية تمتص غضبهم (قلت: هذا لا يحدث الآن؛ فقد مات الذين يختشون) وتقنعهم بكذب هذه الأنباء، كما سبق التنبيه على رعاة الكنائس والآباء والقساوسة بمشاركة المسلمين احتفالاتهم الدينية، وتهنئتهم بأعيادهم، وإظهار المودة والمحبة لهم. وعلى شعب الكنيسة في المصالح والوزارات والمؤسسات إظهار هذه الروح لمن يخالطونهم من المسلمين!

ثم قال بالحرف الواحد: إننا يجب أن ننتهز ما هم فيه من نكسة ومحنة (يقصد ما قبل حرب 1973 وما بعد نكسة يونيو 1967) لأن ذلك في صالحنا، ولن نستطيع إحراز أية مكاسب أو أي تقدم نحو هدفنا إذا انتهت المشكلة مع إسرائيل سواء بالسلم أو بالحرب!

ثم هاجم من أسماهم بضعاف القلوب الذين يقدمون مصالحهم الخاصة على مجد شعب الرب والكنيسة، وعلى تحقيق الهدف الذي يعمل له الشعب منذ عهد بعيد، وقال إنه لم يلتفت إلى هلعهم، وأصر علي أنه سيتقدم للحكومة رسميًّا بالمطالب الواردة بعد، حيث إنه إذا لم يكسب شعب الكنيسة في هذه المرحلة مكاسب على المستوى الرسمي فربما لا يستطيع إحراز أي تقدم بعد ذلك.

ثم قال بالحرف الواحد: وليعلم الجميع – خاصة ضعاف القلوب – أن القوى الكبرى في العالم تقف وراءنا، ولسنا نعمل وحدنا، ولا بد من أن نحقق الهدف، لكن العامل الأول والخطير في الوصول إلى ما نريد هو وحدة شعب الكنيسة وتماسكه وترابطه.. ولكن إذا تبددت هذه الوحدة وذلك التماسك فلن تكون هناك قوة على وجه الأرض مهما عظم شأنها تستطيع مساعدتنا.

ثم عدد البابا شنودة المطالب التي صرح بها بأنه سوف يقدمها رسميًا إلى الحكومة:

1- أن يصبح مركز البابا الرسمي في البروتوكول السياسي بعد رئيس الجمهورية وقبل رئيس الوزراء.

2- أن تُخصَّص لهم (للنصارى) ثمان وزارات!

3- أن تُخصَّص لهم ربع القيادات العليا في الجيش والشرطة!

4- أن تُخصَّص لهم ربع المراكز القيادية المدنية، كرؤساء مجالس المؤسسات والشركات والمحافظين ووكلاء الوزارات والمديرين العامين ورؤساء مجالس المدن.

5- أن يُستشار البابا عند شغل هذه النسبة في الوزارات والمراكز العسكرية والمدنية، ويكون له حق ترشيح بعض العناصر والتعديل فيها.

6- أن يُسمَح لهم بإنشاء جامعة خاصة بهم، وقد وضعت الكنيسة بالفعل تخطيط هذه الجامعة،

7- وهي تضم المعاهد اللاهوتية والكليات العملية والنظرية، وتُموَّل من مالهم الخاص.

8- أن يُسمَح لهم بإقامة إذاعة من مالهم الخاص.

ثم ختم حديثه بأن بشّر الحاضرين، وطلب منهم نقل هذه البشرى لشعب الكنيسة بأن أملهم الأكبر في عودة البلاد والأراضي إلى أصحابها من (الغزاة المسلمين) قد بات وشيكًا، وليس في ذلك أدنى غرابة – في زعمه – وضرب لهم مثلًا بأسبانيا النصرانية التي ظلت بأيدي (المستعمرين المسلمين) قرابة ثمانية قرون (800 سنة)، ثم استردها أصحابها النصارى، ثم قال وفي التاريخ المعاصر عادت أكثر من بلد إلى أهلها بعد أن طُردوا منها منذ قرون طويلة جدًّا (واضح أن شنودة يقصد إسرائيل)!

والأمور واضحة الآن، فقد تحقق الكثير مما كتبه الشيخ، وصارت القداديس تتلى علنًا في القنوات التلفزيونية المصرية، وصار النصارى يتعالنون بالهجوم على الإسلام، وعلا شأن البابا بروتوكوليًّا، وصار كل الساسة – ابتداء من الرئيس – يهبون إليه متوددين يطلبون بركاته، ومعهم رموز الثقافة والفن والمال!

وإنا لله وإنا إليه راجعون!

الغزالي والشيعة والباطنية:

الباطنية فرق كثيرة حفل بها التاريخ، كما امتلأ بغثائها الحاضر المعيش، وللشيخ موقف صارم منها، شديد الوضوح، فهي جراثيم تفتك بجسد الأمة، يقول عنها:

ولدت الباطنية ونمت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجودًا بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائرًا جاهلًا؛ وإن لبس برد الخلافة، أو لاذ بمن يلبس هذا البرد!

وتعلقت القلوب بمنقذ من آل البيت، ينسخ الجور، ويؤنس المستوحشين. وحول هذا الأمل الحبيب تكونت في الظلام عصابات، لم تجد لها في وضح النهار مكانًا.

وحول قليل من الحق تكونت مذاهب مستوردة من الهندوكية والمجوسية واليونانية وغيرها، فكان التفكير الباطني، وكانت شعبه العديدة.

نصوص من القرآن يتم تفريغها من محتواها الصحيح، لتحل محله أوهام المستغلين، وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان! واتسعت دائرة المخدوعين المستغَلين؛ خصوصًا في القرنين الثالث والرابع، وبلغ من سطوة الباطنية أن إحدى فرقهم انتزعت الحجر الأسود من مكانه في الكعبة المشرفة، فلم يعد إلا بعد نيف وعشرين سنة بشفاعة فرقة أخرى!

وإذا كان ذلك عجيبًا، فإن رد الفعل أعجب لدى الحاكمين والمحكومين على سواء.

ولقد استيقنت – وأنا أقرأ هذه الصحائف السود – أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله.

ولقد نهض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطني وفضح خرافاته، حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكسارًا تامًّا.

لكن حكام المسلمين – في غيبوبتهم الفكرية – لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خيل إلي أنهم جمَّدوا – عن عمد – بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التي كانت تمده في القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هذه الطوائف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع – بالتعليم الموصول والإعلام الدائم – أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام – كما يقولون – وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهبًا مستقلًّا في الحياة، وربما كانت الروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسلامية في الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم: لقد دخل الصليبيون الأندلس، فلم يبقوا فيه إلا مذهبًا واحدًا هو الكثلكة!

وسيطر الإسلام على ما يسمى الآن الشرق الأوسط؛ وبقي فيه أربعة عشر قرنًا، ومع ذلك فإن الطوائف الكثيرة لا تزال تكون فيه عصبة أمم!

ربما كان ذلك شاهدًا على ما انفرد به الإسلام من سماحة مستغربة في التاريخ البشري الحافل بفنون التعصب؛ لكن هذه السماحة لا يسوغ أن تتحول إلى فتوق تأتي عليه من القواعد، وتأذن للخيانات والمخادعات أن تنال منه! وعلى الجماعة الإسلامية أن تدفع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها من قديم، أي أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام!

ومع هذا لم يلتفت الشيخ رحمه الله – ككثير من كبار علماء الأزهر – إلى الشيعة الاثني عشرية، تلك النحلة المتفرسة، الباطنية، المتطرفة، التي ملأت العالم الإسلامي خبالًا في القديم والحديث، وكان لا يرى كبير صدع، ولا يحس بلعبة التقية، حتى إنه قال: (إن الشيعة لا يفترقون عن الجمهور في اعتماد الأصول التي شرحناها! وبعدما سكنت فتن النزاع على الخلافة، والشقاق حول شخص الخليفة أصبح من العبث بقاء هذا التفرق، وأصبح كلام الشيعة لا يزيد عن كلام أي مذهب إسلامي في فقه

الأصول والفروع)! كيف هذا لا أدري! وهي – عندي – نبوة الحسام، وكبوة الجواد!

وكان يعتقد أن المرحلة التي تمر بها الأمة لا تحتمل المزيد من الصدوع والتمزقات، فقال: (إن الظنون والخرافات تجتاح الجماهير من أهل السنة والشيعة، والتخلّف البعيد يقعد بهم جميعًا عن حقّ الله وحق الحياة، إنّ الجهل والفراغ يهزّان أصول الاعتقاد، وتنشأ في ظلهما أجيال تافهة عابثة، فهل ندع الحريق يجتاح بيضتنا، وننشغل بالتلاوم والتكاذب)!

وقد استغل الروافض موقف الشيخ، وتترسوا ببعض أقواله في كونهم أهل الحق، وأن الخلاف قشري لا يؤثر، في حين أنه خلاف على مستوى حجية القرآن والسنة، والاعتقاد في الله تعالى، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، وأهل البيت الميامين، والصحابة المرضيين!

لكنه أيضًا – توفيقًا من الله تعالى له – وضع مبادئ للتصالح بين السنة والشيعة، وقال:

من الخلافات الموروثة: ما بين الشيعة وأهل السنة من فجوات ملأتها الدماء في بعض الأعصار، وزادها البهت والافتراء بين الحين والحين! وما أنكر أن أسبابًا علمية وعاطفية – تخفى أو تظهر – وراء هذا الخلاف، بيد أن للسياسة ومطالب الحكم أسبابًا أخرى وأنمى! وقد تحدثت في كتب أخرى عن حقيقة ما بين الفريقين من الناحية العلمية، ولا مجال هنا لتفصيل أو زيادة. وأعترف بأن لي أصدقاء من الشيعة أعزهم وأحبهم!

ومن أجل ذلك أعرض هذه المبادئ؛ لدفع الأمور إلى طريق التصالح والإخاء:

1 – يتفق الفريقان – في مؤتمر جامع – على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد، والمصدر الأول للتشريع، وأن الله حفظه من الزيادة والنقص وكل أنواع التحريف! وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

2 – السُّنَّة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والرسول أسوة حسنة لأتباعه إلى قيام الساعة، والاختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

3 – ما وقع من خلاف بين القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يجمَّد من الناحية العلمية تجميدًا تامًّا، ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ؛ لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا

كَانُوا يَعْمَلُونَ) البقرة: 141.

4 – يواجه المسلمون جميعًا مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة – وهي كثيرة جدًّا – وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المذهبية الأخرى.

إنني لا أستطيع خلال سطور، أن أحل مشكلة تراخت عليها العصور، لكنني ألفت النظر إلى أن أوهامًا وأهواء تملأ الجو بين الشيعة وجماعة المسلمين، لا يسيغ العقلاء بقاءها. ولو وضع كل شيء في حجمه الطبيعي، وأغلقت الأفواه التي تستمرئ الوقيعة والإفك لتلاشت أنواع من الفرقة لا مساغ لوجودها.

على جبهة المرأة والتغيير:

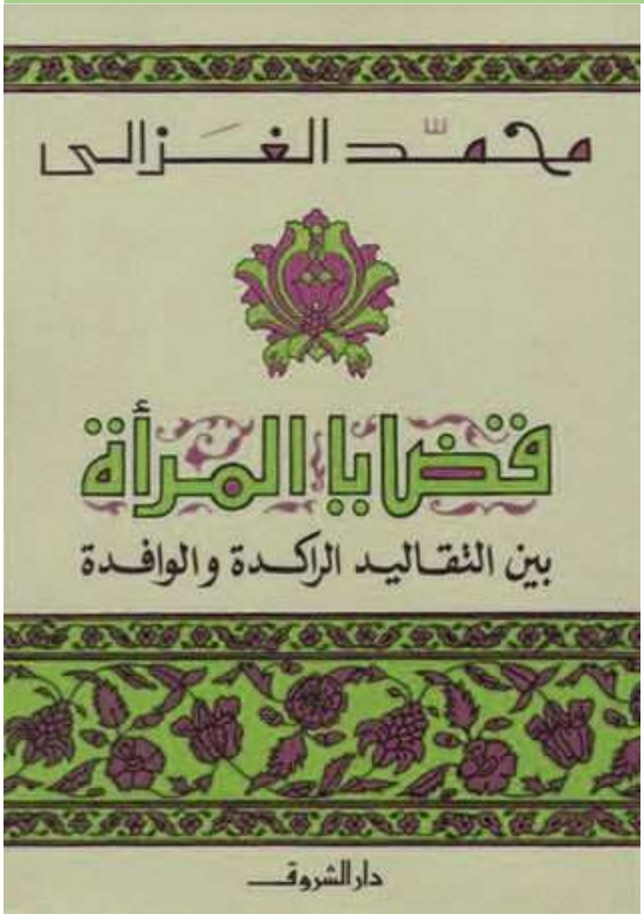

وقد نشر الشيخ في مقالاته ومحاضراته وكتبه – خصوصًا: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة – آراءه التي عالجت قضايا الفكر، والثقافة، والمرأة، والمشكلات الاجتماعيّة، والاقتصادية، على ضوء الإسلام. ودافع عن المرأة، وفنّد دعاوى خصوم الإسلام قائلًا:

وكان يرى أنّه لا بدّ من التوسّط والاعتدال في مسألة السفور والحجاب، فيكون حجابًا شرعيًّا تتمكّن معه السيّدات من المساهمة في النهضة الدينيّة والخدمة.

ولطالما دافع الشيخ الغزالي رحمه الله عن المرأة، وطالب بتفعيل دورها في المجتمع؛ بما يليق بها، وفي إطار تعاليم الإسلام الحنيف!

ومن آرائه التي تعكس رؤيته المتفردة والشاملة رحمه الله تعالى، عن الذكورة والأنوثة:

- إن الإسلام لا يقيم في سباق الفضائل وزنًا لصفات الذكورة والأنوثة؛ فالكل سواء في العقائد والعبادات والأخلاق، الكل سواء؛ في مجال العلم والعمل، والجد والاجتهاد!
- إن محاولة محو الفروق الطبيعية بين الجنسين لون من العبث، والتفاوت الذي يستحيل محوه هو التفاوت العلمي، وما تستند إليه الشخصية الإنسانية من ملكات وقيم، وفي هذا المجال قد تسبق نساء بجدارة، وقد يسبق رجال!
- قال لي أحد المشتغلين بعلوم الأحياء: إن هناك تناقضًا كبيرًا بين مواضع التلقيح في عالمي النبات والحيوان! قلت له: كيف؟

قال: في الحقول والحدائق ترى أماكن التلقيح في ذوائب الشجر وأوراق الورد، وترى المناظر رائقة، والرياح تميل بها ناقلة عناصر الحياة والبقاء! أما في عالم الحيوان – خصوصًا البشر – فأماكن التلقيح مطوية مستخفية، يتخطاها النظر على عجل واستحياء، وربما كانت ممرًّا لإفرازات الأجهزة الدنيا في البدن!

قلت: لعل ذلك ما جعل أبوينا آدم وحواء يسارعان إلى تغطيتها بما استطاعا من الورق: (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)!

وقلت: إن الميالين للعري من شباب اليوم أقرب إلى الحيوان منهم إلى الإنسان!

الأنوثة ومكانة المرأة وحقوقها:

- لنتفق أولًا على أن احتقار الأنوثة جريمة، وكذلك دفعها إلى الطرق؛ لإجابة الحيوان الرابض في دماء بعض الناس!
- والدين الصحيح يأبى تقاليد أمم تحبس النساء، وتضيق عليهن الخناق، وتضن عليهن بشتى الحقوق والواجبات، كما يأبى تقاليد أمم أخرى جعلت الأعراض كلأ مباحًا، وأهملت شرائع الله كلها عندما تركت الغرائز الدنيا تتنفس كيف تشاء!

- كلما رجعت إلى السيرة النبوية ازددت معرفة بما كان للمرأة من مكانة، وبما كفله الإسلام لها من حقوق، لقد كانت لها شخصية مقدورة، وأثر يحسب! يقول المحدثون: لما نزل قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد رسول الله الصفا، ونادى:

(يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله؛ فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما!

- إن من قواعد الجزاء الأخروي قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره) فهل الزوجة وحدها هي التي تخرج عن هذه القاعدة؛ فلا يسأل الرجل فيم ضربها؟ له أن يضربها لأمر ما في نفسه، أو لرغبة عارضة في الاعتداء؟ فأين قوله تعالى: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) وقوله: (أمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) وأين قوله عليه الصلاة والسلام: (استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهن عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك)!

ما يقع هو النشوز، ومعنى الكلمة الترفع والاستعلاء، أي أن المرأة تستكبر على الزوج وتستكنف من طاعته ويدفعها هذا إلى كراهية الاتصال به في أمس وظائف الزوجية، فيبيت وهو عليها ساخط! وقد يدفعه هذا إلى ضربها!

- إن الأعمدة التي تقوم عليها العلاقات بين الرجال والنساء تبرز في قوله تعالى: «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر؛ أو أنثى بعضكم من بعض» وقوله تعالى: «من عمل صالحًا – من ذكر أو أنثى – وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» وقول الرسول الكريم: (النساء شقائق الرجال)!

- وهناك أمور لم يجئ في الدين أمر بها، أو نهي عنها؛ فصارت من قبيل العفو الذي سكت الشارع عنه؛ ليتيح لنا حرية التصرف فيه سلبًا وإيجابًا. وليس لأحد أن يجعل رأيه هنا دينًا، فهو رأي وحسب! ولعل ذلك سر قول ابن حزم. إن الإسلام لم يحظر على امرأة تولي منصب ما، حاشا الخلافة العظمى!

إن القدرة الوظيفية لأعمال المرأة وأفكارها تحتاج إلى شرح علمي وثيق، حتى لا نكلفها فوق طاقتها، فنظلم الأعمال التي توكل إليها، ونضيع الأعباء المنوطة بها.

والحق أن الإسلام لما قرر إعفاء المرأة في أثناء الحيض والنفاس من الصلوات المكتوبة، كان متمشيًا مع منطق الطبيعة في ضرورة الرفق بها. ولما قرر الاستيثاق من شهادتها – بضميمة أخرى إليها – كان كذلك متمشيًا مع ما أكده الطب من تغيرات عامة وهامة، تصيبها باستمرار.

ولهذا قلنا: إن عمل المرأة لا يكون من الناحية الشرعية والاجتماعية أصليًّا بل يكون استثنائيًّا، وأعلنا رأينا: هو أن المرأة تعمل في أحوال أربع:

الأولى: أن تكون المرأة ذات نبوغ خاص يندر في الرجال والنساء معا، والمصلحة الاجتماعية توجب في هذه الحالة أن تعمل؛ ليعود ذلك النبوغ على المجتمع بنفع عام، ولا تخمده بإخمالها؛ فتذهب قوة عاملة لك من القوى النادرة! والمرأة في هذا تترك جزءًا من أمومتها في سبيل المصلحة العامة.

والثانية: أن تتولى المرأة عملًا هو أليق بالنساء، كتربية الأطفال في سنيهم الأولى وتعليمهم، وذلك إلى سن التاسعة أو الحادية عشرة، وهي السن التي قررتها الشريعة لحضانة الأطفال، فيكون الطفل في حضانة أمه داخل البيت، وفي عطف المرأة ورعايتها بالمدرسة.

ومثل تعليم الأطفال تطبيب النساء، ولقد قرر الفقهاء أن بعض هذه الأعمال فرض كفاية كالقابلات، فإن عملهن من فروض الكفاية. ولذلك قرر كمال الدين بن الهمام، من فقهاء الحنفية، أن الزوج ليس له منع امرأته من الخروج إذا كانت تحترف عملًا هو من فروض الكفاية الخاصة بالمرأة، ولكنه نصح هذه المحترفة بألا تخرج متبرجة غير كاملة في تصرفاتها.

الحال الثالثة: أن تعين زوجها في ذات عمله، وهذا كثير في الريف، فالمرأة الريفية إذا كان زوجها عاملًا زراعيًّا، أو مالكًا صغيرًا، أو مستأجرًا لمساحة ضئيلة، تعاونه امرأته في عمله معاونة كاملة،

فهو يخرج من داره حاملًا فأسه، وهي معه حاملة وعاء البذر، وحولهما أولادهما يتعلقون بثيابهما، ويحملان بعضهم على أذرعهما، ولو كان للمرأة صورة مثالية في مجتمعنا لكانت صورة تلك المرأة الكادحة العاملة العاطفة؛ لا هؤلاء النساء اللاتي يغشين الأندية والملاهي ودور الغناء.. و.... ويلغطن في مجالسهن بالحلال والحرام!

الحال الرابعة: أن تكون في حاجة إلى العمل لقوتها وقوت عيالها؛ إذا فقدت العائل هي وهم؛ فكان لا بد أن تعمل لهذه الضرورة، أو تلك الحاجة الملحة.

- أكره البيوت الخالية من رباتها! إن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوي طيب.. وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة!
- والى جانب هذه الحقيقة فإني أكره وأد البنت طفلة، ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لأمتها وأهلها.. فكيف نوفق بين الأمرين؟
- يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة! ومطلوب أيضًا توفير جو من التقى والعفاف، تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من عمل!
- إذا كان هناك مائة ألف طبيب، أو مائة ألف مدرس، فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء! والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة، وصانت بها حدود الله، فلا تبرج ولا خلاعة، ولا مكان لاختلاط ماجن هابط، ولا مكان لخلوة بأجنبي: (تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)!
- المرأة اليهودية تشارك مدنيًّا وعسكريًّا في قيام إسرائيل، وها هي ذي توشك أن تكون ملكة في البيت الأبيض تضع اللمسات الأخيرة في الإجهاز علينا، ولا يزال نفر من أدعياء التدين يجادلون في حق المرأة أن تذهب إلى المسجد وتحضر الجماعات، إننا نموت قبل أن يحكم علينا غيرنا بالموت! فهل نعي ونرشد؟

- وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في الهزيمة المخزية التي نزلت بنا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها.

كما أن امرأة يهودية هي التي قادت قومها، وأذلت نفرًا من الساسة العرب لهم لحًى وشوارب في حرب الأيام الستة، وفي حروب تالية!

وقد لاحظت في الشمال الأفريقي وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماس واستبسال!

- ولعلنا لا ننسى الطبيبة التي بقيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وهي تهدم على رؤوس أصحابها، وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث، ثم خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار؛ لتستكمل معالجة عللهم في انجلترا..
- إن انجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة «فيكتوريا» وهي الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء، وتعد في قمة الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي. فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟
- وقد تحدثت في مكان آخر عن الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين في القارة الهندية على يدي «أنديرا غاندي» وكيف شطرت الكيان الإسلامي شطرين؛ فحققت لقومها ما يصبون! على حين عاد المرشال يحيى خان يجرر أذيال الخيبة!
- لقد أجرت أنديرا انتخابات لترى أيختارها قومها للحكم أم لا؟ وسقطت في الانتخابات التي أجرتها بنفسها! ثم عاد قومها فاختاروها من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه!
- والمرأة في أوربا تباشر زواجها بنفسها، ولها شخصيتها التي لا تتنازل عنها، وليست مهمتنا أن نفرض على الأوربيين – مع أركان الإسلام – رأي مالك أو ابن حنبل، إذا كان رأي أبي حنيفة أقرب إلى مشاربهم فإن هذا تنطع، أو صد عن سبيل الله!
- وإذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة أو قاضية أو وزيرة أو سفيرة، فلهم ماشاؤوا، ولدينا وجهات

نظر فقهية تجيز ذلك كله، فلم الإكراه على رأي ما؟

- الإسلام عندما أوجب على الرجل نفقة البيت، كان في الحقيقة يعطي المرأة عوضًا عن تفرغها لحسن تَبَعُّلِه، وتنشيءة أولاده، واتجاهها الكامل إلى أداء رسالتها الطبيعية!

والذين يزدرون وظيفة ربة البيت جهال بخطورة هذا المنصب، وآثاره البعيدة في حاضر الأمم ومستقبلها الأخلاقي والاجتماعي!

- أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة، وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله!

- إن هناك نشاطًا نسائيًّا عالميًّا في ساحات شريفة رحبة لا يجوز أن ننساه لما يقع في ساحات أخرى من تبذل وإسفاف. وقد ذكرني الجهاد الديني والاجتماعي الذي تقوم النساء غير المسلمات به في أرضنا أو وراء حدودنا، بالجهاد الكبير الذي قامت به نساء السلف الأول في نصرة الإسلام.

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة، وهاجرن وآوين عندما رضت الهجرة والإيواء، وأقمن الصلوات رائحات غاديات إلى المسجد النبوي سنين عددًا، وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن. وقبل ذلك أسدين خدمات طبية، أعني في المهام التي يحتاج اليها الجيش!

- وعندما ولي عمر قضاء الحبسة في سوق المدينة للشفاء، كانت حقوقها مطلقة على أهل السوق رجالا ونساء، تحل الحلال وتحرم الحرام وتقيم العدالة وتمنع المخالفات!

- وإذا كانت للرجال زوجة طبيبة في مستشفى فلا دخل له في عملها الفني، ولا سلطان له على وظيفتها في مستشفاها..

- سمعت من رد كلام ابن حزم: بأنه مخالف لقوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء؛ بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم» فالآية تفيد – في فهمه – أنه لا يجوز أن تكون المرأة رئيسة رجل في أي عمل! وهذا رد مرفوض! والذي يقرأ بقية الآية الكريمة يدرك أن القوامة المذكورة هي للرجل في بيته، وداخل أسرته!

قد يقال: كلام ابن حزم منقوض بالحديث: (خاب قوم ولوا أمرهم امرأة)! وجعل أمور المسلمين إلى النساء يعرض الأمة للخيبة فينبغي ألا تسند اليهن وظيفة كبيرة ولا صغيرة!

وابن حزم يرى الحديث مقصورًا على رياسة الدولة، أما ما دون ذلك فلا علاقة للحديث به! ونحب أن نلقي نظرة أعمق على الحديث الوارد، ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول، أورئيسات للحكومات! إننا نعشق شيئًا واحدًا، أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان في الأمة!

وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع، مع أنه صحيح سندًا ومتنًا، ولكن ما معناه؟

عندما كان فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشؤومة: الدين وثني! والأسرة المالكة لا تعرف شورى، ولا تحترم رأيًا مخالفًا، والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء: قد يقتل الرجل أباه أو إخوته في سبيل مآربه. والشعب خانع منقاد!

وكان في الإمكان – وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان الذين أحرزوا نصرًا مبينًا بعد هزيمة كبرى، وأخذت مساحة الدولة تتقلص – أن يتولى الأمر قائد عسكري، يقف سيل الهزائم! لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثًا لفتاة لا تدري شيئًا، فكان ذلك إيذانًا بأن الدولة كلها إلى ذهاب!

في التعليق على هذا كله قال النبي الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفًا للأوضاع كلها!

ولو أن الأمر في فارس شورى، وكانت المرأة الحاكمة تشبه «جولدا مائير» اليهودية التي حكمت إسرائيل، واستبقت دفة الشؤون العسكرية في أيدي قادتها، لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة..

ولك أن تسأل: ماذا تعني؟ وأجيب: بأن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقص عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكمًا في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي!

- كانت بلقيس ذات ملك عريض، وصفه الهدهد بقوله: «إني وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم»! وقد دعاها سليمان إلى الإسلام، ونهاها عن الاستكبار والعناد، فلما تلقت كتابه، تروت في الرد عليه، واستشارت رجال الدولة، الذين سارعوا إلى مساندتها في أي قرار تتخذه، قائلين: «نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد. والأمر إليك؛ فانظري ماذا تأمرين»؟! ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها، ولا بطاعة قومها لها، بل قالت: نختبر سليمان هذا لنتعرف: أهو جبار من طلاب السطوة والثروة، أم هو نبي صاحب إيمان ودعوة؟!

ولما التقت بسليمان عليه السلام بقيت على ذكائها، واستنارة حكمها؛ تدرس أحواله وما يريد وما يفعل، فاستبان لها أنه نبي صالح. وتذكرت الكتاب الذي أرسله إليها: «إنه من سليمان؛ وإنه: بسم الله الرحمن الرحيم* ألا تعلوا علي، وأتوني مسلمين» ثم قررت طرح وثنيتها الأولى، والدخول في دين الله قائلة: «رب إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)!

- هل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذي دعته ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح: «فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر* فكيف كان عذابي ونذر* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر)!

- ومرة أخرى أؤكد أني لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة، فإن الكملة من النساء قلائل، وتكاد المصادفات هي التي تكشفهن، وكل ما أبغي هو تفسير حديث ورد في الكتب، ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة، أو التي تفهم على غير وجهها! ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخي.

- وقد ساء وضع المرأة في القرون الأخيرة، وفرضت عليها الأمية والتخلف الإنساني العام! بل إنني أشعر بأن أحكامًا قرآنية ثابتة أهملت كل الإهمال لأنها تتصل بمصلحة المرأة، منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها، وقلما استشيرت في زواجها!

وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتيع مطلقة! أما قوله تعالى: «وللمطلقات متاع بالمعروف؛ حقًّا على المتقين» فهو كلام للتلاوة!

والتطويح بالزوجة لنزوة طارئة أمر عادي، أما قوله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» فحبر على ورق..

وقد نددت في مكان آخر بأن خطيئة الرجل تغفر، أما خطأ المرأة فدمها ثمن له!

- والذي يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة، لأنهم – بغباوة رائعة – ظنوا أن الإسلام هو هذه الفوضى! والجنون فنون والجهالة فنون!
- وقد استغل الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور، وشن على تعاليم الإسلام حربًا ضارية! كأن الإسلام المظلوم هو المسؤول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه!
- أما المسلمون فكأنهم متخصصون في تزوير الانتخابات للفوز بالحكم ومغانمه برغم أنوف الجماهير.
- أي الفريقين أولى برعاية الله وتأييده والاستخلاف في أرضه؟ ولماذا لا نذكر قول ابن تيمية: إن الله قد ينصر الدولة الكافرة ـ بعدلها ـ على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم؟

ما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟ امرأة ذات دين خير من ذي لحية كفور!

- والمسلمون الآن نحو خمس العالم، فكيف يعرضون دينهم على سائر الناس! ليهتموا قبل أي شيء بأركان دينهم وعزائمه وغاياته العظمى! أما ما سكت الإسلام عنه فليسلهم أن يلزموا الناس فيه بشيء قد أفوه هم أنفسهم من قبل!
- إننا لسنا مكلفين بنقل تقاليد عبس وذبيان، إلى أمريكا وأستراليا، إننا مكلفون بنقل الإسلام؛ وحسب!

- والأمم تلتقي عند الشؤون المهمة! هل أن الإنكليز يلزمون الجانب الأيسر من الطريق على عكس غيرهم من أهل أوروبا، إن ذلك لا تأثير له في حلف الأطلسي، ولا في دستور الأسرة الأوروبية!
- وإذا كان الفقهاء المسلمون قد اختلفت وجهات نظرهم في تقرير حكم ما، فإنه يجب أن نختار للناس أقرب الأحكام إلى تقاليدهم!
- إن من لا فقه لهم يجب أن يغلقوا أفواههم؛ لئلا يسيئوا إلى الإسلام بحديث لم يفهموه، أو فهموه وإن ظاهر القرآن ضده!
- كنت أتحدث في أحد الأندية عن حقوق المرأة، فقلت: إن لها حق الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتدريس هدايات الإسلام ومجادلة الملحدين فيها..إلخ. فإذا شخص يقول لصاحبه: كنا نظن أن هذا المحاضر رجلًا صالحًا، فتبين أنه ألعن من قاسم أمين!
- لقيني رجل فوق الأربعين يتحدث وكأنه يافع غر! قال لي بصوت مهتاج: أنت الذي تفتي بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة؟ قلت بهدوء نعم! قال: أما تتقي الله؟

قلت: أوصيك ونفسي بتقوى الله!

قال: إنك مخطئ فيما تذكره للناس، ويجب أن تتوب!

قلت له: لست وحدي الملوم، فإن كبار المفسرين سبقوني إلى هذا الخطأ، كما سبقني إليه رواة عشرة من الأحاديث الصحاح، وشاركني في خطئي أيضًا أئمة المذاهب الأربعة، وعدد من المذاهب الفقهية الأخرى!

- سفر المرأة وحدها يحتاج إلى التروي، ودراسة الرحلة كلها من الذهاب إلى الاستقرار، وليس ذلك من قبيل التطير والتهمة واتباع الظنون، ولكنه من قبيل الحيطة والصون والاطمئنان، وقد روى الشيخان أن رجلًا قال يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتب في غزوة كذا وكذا؟ قال: انطلق فحج من امرأتك!

- الواقع أن ازدراء عواطف المرأة، واستخدام القسوة لترضيتها بما لا ترضى ليسا من الإسلام، ولا من الفقه!
- إن الإسلام دين العدالة والرحمة، ومن تصوّر أنه يأمر باسترقاق الزوجة والإطاحة بكرامتها فهو يكذب على الله ورسوله!
- إن إمساك المرأة في البيت وحبسها هو في الأصل عقوبة لها، واسمع لقول الله تعالى عن اللاتي يأتين الفاحشة: (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلا)! فالأصل أن تمارس المرأة دورها في المجتمع الذي تمثل أكثر من نصفه
- (تواجه المرأة) تقاليد وضعها الناس، ولم يضعها رب الناس، دحرجت الوضع الثقافي والاجتماعي للمرأة، واستبقت في معاملتها ظلمات الجاهلية الأولى، وأبت إعمال التعاليم الإسلامية الجديدة، فكانت النتائج أن هبط مستوى التربية وميزان الأمة كلها، مع التجهيل المتعمد للمرأة والانتقاص الشديد لحقوقها
- إن أي مطالع للقرآن الكريم والسنن الصحاح يرى المرأة جزءًا حيًّا من مجتمع حي، فهي تتعلم وتتعبد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتجاهد–إذا شاءت–في البر والبحر، وتؤخذ منها البيعة على معاقد الإيمان والأخلاق، وتعارض الحكم أو تؤيده!
- لكن الإسلام لا يرى في المرأة الكفاية لتولى رياسة الدولة، وتوجيه دفة الحكم، ويأبى على المسلمين اختيارها لهذا المنصب. وجمهور الفقهاء على أن الرجال أولى بالمناصب السياسية والإدارية من النساء. وعلى ذلك جرت سنة الخلافة الراشدة، كما جرت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل، فلم يسند منصب رياسي للمرأة.
- وقد شعرت بأن من النساء من تجمع في غرفتها سبعين فستانًا، وأخبرت بأن بعضهن في أثناء الأحفال تخرج لتبدل ثوبًا بدل ثوب حتى تعرض جسدها في ألوان شتى! هلا عرضت على الناس ثقافتها وفضائلها؛ بدل هذا الإسفاف!

الرجولة والذكورة

- إن حواء خلقت من آدم كما نبأنا القرآن الكريم: (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها). والأولاد بعد ذلك – ذكورًا أو إناثًا – جاؤوا ثمرة واحدة لتواصل الأبوين الأولين: (وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء)؛ فمن الجنون تصور أحد الجنسين غريبًا عن الآخر، أو دونه مكانة: (بعضكم من بعض)!
- إن الهزائم السود التي أصابتنا تعود قبل أي شيء إلى قلة الرجال الذين شرح الكتاب نعوتهم، ورسم مستواهم!
- إن الرجولة عندنا صفة جسدية ترادف الذكورة، ومع ذلك فهي رجولة ترفض المشقات، وتعشق الملذات، وتحسب الشبع والري والزينة والظهور الشخصي مثلًا رفيعة! والكثرة من هؤلاء قلة! والعراك بهؤلاء لا أمل فيه!
- وجملة العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام التي شرعها الله للإنسان، يستوى في التكليف بها والجزاء عليها الرجل والمرأة. وإذا كانت الحياة الإنسانية على ظهر الأرض اختيارًا للإخلاص والوفاء، واستقامة الفكر والسلوك، فإن الإنسانية بنوعيها سواء في هذا المضمار!
- قد يسبق الرجل، وقد تسبق المرأة، ولا دخل لصفات الذكورة والأنوثة في تقديم أو تأخير، ولا في مثوبة أو عقوبة. فربما دخل الرجل النار، ودخلت زوجته الجنة، وربما حدث العكس!

وما شاع في أذهان نفر من المتدينين أن النساء خلق أدنى من الرجال، لا سند له من دين الله؛

بل إن إسقاط التكاليف الشرعية عن النساء، كما يحدث في بعض البلاد الإسلامية عصيان سافر لدينه، وخروج على تعاليم كتابه، فإن النساء شقائق الرجال في كل شيء: (إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة، وأجرًا عظيمًا)!

- وكل ما صنع الدين أنه وزع الاختصاصات العملية توزيعًا يوافق طبائع الذكورة والأنوثة؛ وبالتالي خفف عن النساء بعض الأعباء، وألزمهن ببعض الوصايا:

1. فالصلاة والصيام مثلًا واجبان على الرجال والنساء سواء بسواء؛ إلا أن المرأة معفاة من الصلاة في دورة العادة الشهرية التي تمر بها. وفي فترة الولادة وما يتصل بها، وهي كذلك معفاة من الصيام، ولكن تقضي ما فاتها منه في أيام أخرى. ويجوز لها – وهي ترضع أولادها – أن تدع الصيام، وتقضي أو تفدي.
2. لما كانت المرأة تتأثر نفسيًّا وعاطفيًّا بهذه الدورات البدنية التي تعتادها، وكثيرًا ما ينحرف مزاجها؛ ما يجعلها مظنة خطأ في تصوير ما تشاهد من أحوال الناس، وأحداث الحياة، فقد احتاط الدين في القضاء بشهادتها منفردة، وضم إليها – للاستيثاق – شهادة امرأة أخرى.

   – لما كان الرجل بعيدًا عن مشاغل الحيض والنفاس والحمل والرضاع كان أجلد على ملاقاة الصعاب، ومعاناة الحرف المختلفة، وكان الضرب في الأرض ابتغاء الرزق ألصق به هو، ومن ثم فقد كلفه الإسلام بالإنفاق على زوجته، وعلى قرابته الإناث الفقيرات.
3. تبع ذلك أن نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل غالبًا (!)؛ لأنه المسؤول عن النفقة كما قدمنا، فهي إذا تزوجت أخذت منه المهر، واستحقت عده النفقة، ومن الظلم أن تسوى معه في الميراث بعد تحميله هذه الواجبات.
4. الرجل رب الأسرة، وهو في البيت رئيسه القوام عليه. قال تعالى: (الرجال قوامون على النساء؛

بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم)!

5. الرجال هم المرشحون الأوائل لشغل المناصب الكبرى في المجتمع والدولة والخدمة العسكرية.

وسنتحدث عن حكمة ذلك بعد قليل لتعرف وجهة نظر الإسلام كاملة.

وهذه الفروق مع التطبيق العدل الدقيق لا تخدش المكانة الإنسانية للمرأة. بل إن الإسلام إذ يعترف بهذه الفروق يتمشى مع طبائع الأشياء، ولا يستطيع تجاهل فطرة الله فيها.

لكن الذي يحدث للأسف أن بعض المترجلات من النساء يريد أن يشتط في طلب ما ليس له، وأن بعض القساة من الرجال يريد هضم المرأة، والافتيات على ما لها من حقوق.

والإسلام منهج آخر، بين التفريط والإفراط: (ضرب الله مثلا للذين كفروا: امرأة نوح وامرأة لوط؛ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا، وقيل ادخلا النار مع الداخلين* وضرب الله مثلا للذين آمنوا: امرأة فرعون؛ إذ قالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة، ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين)!

- وقد كانت رجولة محمد عليه الصلاة والسلام في القمة؛ بيد أن قواه الروحية وصفاءه النفسي جعلا هذه الرجولة تزداد بمحامد الأدب، والاستقامة، والقنوع!
- إن الزوج والزوجة إنسانان متكافئان في الحقوق والواجبات، ومع صدق العاطفة يكون الرجل ملكًا مطاعًا نافذ الكلمة، ووسيلته في ذلك الوفاء والإخلاص والحب!
- الزواج ليس عشق ذكر لمفاتن أنثى! إنه إقامة بيت على السكينة النفسية والآداب الاجتماعية، في إطار محكم من الإيمان بالله والعيش وفق هداياته، والعمل على إعلاء كلمته وإبلاغ رسالاته!
- لا خشونة الرجل تهب له فضلًا من تقوى، ولا نعومة المرأة تنقصها حظًّا من إحسان!
- التلطف مع الإناث والرفق بهن، آية اكتمال الرجولة وتمام فضائلها، وهو أدب يبذل للنساء عامة؛ سواء كن قريبات أم غريبات، كبيرات أم صغيرات، ومع استقامة الفطرة الإنسانية قلما يتخلف هذا المسلك العالي!

- الإنسان الذي يؤثر الزنا على الإحصان يدركه من الشقاء ما يدرك الكلب الضال، حين يتسكع لاختطاف طعامه، فيقع على جسمه من الضربات أكثر مما يدخل فمه من المضغ المنهوبة.
- قالت لي امرأة غاضبة: أإذا غضب مني زوجي في حوار، قد أكون فيه صاحبة حق حُرمت رضوان الله، ولعنتني الملائكة و...و!

فقاطعتها على عجل، وأفهمتها أن الحديث الوارد في شأن آخر بعيد بعيد عما تتوهمين! الحديث ورد في امرأة تعرض زوجها للفتنة لأنها تمنعه نفسها، وهو لا يستغنى عنها! ذاك هو المراد!

- إن تعرية المرأة حينًا، وحشرها في ملابس ضيّقة حينا آخر، عمل لم يشرف عليه علماء الأخلاق، وإنما قام به تجار الرقيق!
- هل قوامة الرجل على بيته تعني منحه حق الاستبداد والقهر؟ بعض الناس يظن ذلك وهو مخطئ! فإن هناك داخل البيت المسلم ما يُسمى حدود الله، وهي كلمة لاحظت في تلاوتي للقرآن الكريم أنها تكررت ست مرات في آيتين اثنتين!
- إن القوامة للرجل لا تزيد عن أن له – بحكم أعبائه الأساسية، وبحكم تفرغه للسعي على أسرته والدفاع عنها ومشاركته في كل ما يصلحها – أن تكون له الكلمة الأخيرة – بعد المشورة – ما لم يخالف بها شرعًا، أو ينكر بها معروفًا، أو يجحد بها حقًّا، أو يجنح إلى سفه أو إسراف!
- من حق الزوجة إذا انحرف أن تراجعه وألا تأخذ برأيه، وأن تحتكم في اعتراضها عليه بالحق إلى أهلها وأهله، أو إلى سلطة المجتمع الذي له وعليه أن يقيم حدود الله، وهذا كلام حسن!
- الحقوق والواجبات في البيت متبادلة بين الزوجين في كل شيء، ولكن للبيت رئيسًا يرجع إليه الإشراف الأخير، فهو الذي أقام هذا البيت، وهو المسؤول الأول عن مطالبه، والأولاد ينسبون إليه ويعرفون به. وهو يكدح أغلب عمره كي يوفر لهذا البيت سعادته وطمأنينته! فكيف تناط بعنقه هذه التبعات كلها ثم يهدر حقه في الولاية على بيته؟

إن هذه الرياسة أثر المسؤولية التي لا تنفك عنه! والواقع أن العمل خارج البيت هو شريان البقاء للحياة داخل البيت. والعمل خارج البيت معصوب برأس الرجل الذي زودته الأقدار بطاقة موصولة على الكدح والمعاناة.

أما الزوجة فماذا تصنع إذا عرتها آلام الحمل والوضع والرضاع؟ إنها مقهورة – والحالة هذه – على البقاء في حجرتها، والتواري عن أنظار الناس وضروب التعامل معهم..

إن الخصائص النفسية والبدنية التي يمتاز بها جنس الرجال في الحياة الخارجية هي التي أهلتهم لشتى القيادات في جملة الميادين الإنسانية! ومن ثم كان الرجل قوامًا على أسرته، ولا مساغ لنزاع في هذه الأهلية؛ فهل القوامة المقررة للرجل تعني إهدار الحرية المدنية للمرأة، ومنعها من التصرف في أملاكها. أو التدخل في إدارتها؟ لا؛ إن شخصيتها مصونة، ومشيئتها حرة، ورياسة البيت شيء، وهذا شيء آخر وبعض الناس توهم من قوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)!

وبعض الناس توهم أن المرأة دون الرجل ماديًّا وأدبيًّا، وأن هذه المرتبة النازلة تجعل القوامة قوامة استعلاء وهيمنة. وهذا خطأ، فقد شرحنا أن المرأة والرجل ينميهما أب واحد، وإذا كان معدن الخليقة متحدًا فلا مكان للوصف بالخساسة والنفاسة. المرأة قد تكون أفضل من زوجها بالعلم والأدب والتقوى! ومنزلتها بهذه المواهب أرفع عند الله والناس من منزلة زوجها؛ فكيف مع هذا يتصور أن جنس الرجال أفضل من جنس النساء لا بشيء إلا بصفة الذكورة والأنوثة!؟ إن هذا باطل. باطل.

إن الرجولات الضخمة لا تعرف إلا في ميدان الجرأة. والمجد والنجاح والإنتاج تظل أحلامًا لذيذة في نفوس أصحابها، ولا تتحول إلى حقائق حية إلا إذا نفخ فيها العاملون من روحهم، ووصلوها بما في الدنيا من حس وحركة.

الأسرة:

- إن الإسلام يقوم على حقائق الفطرة والعقل، لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليه!
- (الأسرة) هي الكهف الوحيد الذي يجمع بين رجل وامرأة، ومن ثم فإن تكوينها دين، والحفاظ عليها إيمان، ومكافحة الأوبئة التي تهددها جهاد، ورعاية ثمراتها من بنين وبنات جزء من شعائر الله!
- ووظيفتها الحفاظ على الإيمان والعبادة والخلق الشريف والمسلك القويم والتقاليد الراشدة والمثل العالية، والأبوان شريكان في أداء هذه الوظيفة، ونصيب الأم منها ضخم ثقيل!
- هناك معالم ثلاثة ينبغي أن تتوفر في البيت المسلم، أو أن تظهر في كيانه المعنوي؛ ليؤدي رسالته، ويحقق وظيفته هذه الثلاثة هي: السكينة والمودة والتراحم!

- وأعني بالسكينة الاستقرار النفسي، فتكون الزوجة قرة عين لرجلها لا يعدوها إلى أخرى! كما يكون الزوج قرة عين لامرأته لا تفكر في غيره!
- أما المودة فهي شعور متبادل بالحب، يجعل العلاقة قائمة على الرضا والسعادة!
- ويجيء دور الرحمة لنعلم أن هذه الصفة أساس الأخلاق العظيمة في الرجال والنساء على سواء، فالله سبحانه يقول لنبيه: (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظًّا، غليظ القلب لانفضوا من حولك) فليست الرحمة لونًا من الشفقة العارضة، وإنما هي نبع للرقة الدائمة ودماثة الأخلاق وشرف السيرة!

وعندما تقوم البيوت على السكن المستقر، والود المتصل، والتراحم الحاني فإن الزواج يكون أشرف النعم، وأبركها أثرًا، وسوف يتغلب على عقبات كثيرة، وما تكون منه إلا الذريات الجيدة!

- والبيت المتخصص في تقديم العَلَفِ للأجساد إنما يخرج حيوانات، أما البيت الذي يحرس الشرف والطاعة والأدب فهو ينشئ بشرًا سويًّا!
- طلب الإسلام من الأب أن يصلى النوافل في بيته حتى يألف أبناؤه الركوع والسجود! كما طلب أن يتلى القرآن في البيت ليتعطر جوه بمعاني الوحي، وفي الحديث: (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا)؛ أي أن البيت الذي لا يصلى فيه كالقبر الموحش، وقال رسول الله أيضًا: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت) وقال: (أما صلاة الرجل في بيته فنور، فنوروا بيوتكم)!

وجاء الأمر بتعليم الأولاد الصلاة منذ نعومة أظفارهم، وتعويدهم أنواع المكارم حتى يشبوا شرفاء صالحين!

- إذا لم يتعلم الولد الصدق في البيت فأين يتعلمه؟ وإذا لم يتدرب على الوفاء والأمانة والرقة بين أحضان الآباء والأمهات فأين يتدرب؟

الطفولة صفحة بيضاء يخط فيها الآباء والأساتذة ما شاؤوا!

- إني أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم، أو حتى لدور الحضانة. إن أنفاس الأم عميقة الآثار في إنضاج الفضائل وحماية النشء.
- ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى، وهذا ميسور؛ لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح، وتركنا الانحراف والغلو!
- هل يلام الإسلام إذا أقام نظامه على عدم تكليف المرأة بالارتزاق، وجعل الزوج أو الأب مسؤولًا عن زوجته أو ابنته!؟

هل يلام الإسلام إذا عرف أن المرأة ستفقد عرضها عن طريق لقمة الخبز، فوضع نظامه على أساس توفير اللقمة لها، واستبقاء عرضها مصونًا؟

هل العري والرقص والتبذّل واستثارة الغرائز الهاجعة؛ هل هذه حقوق رفيعة كسبتها المرأة؛

فدعمت بها جانبها في المجتمع، أم أن هذه نزعات حيوانيّة فرضها الرجال الأشرار؛ لكي يبتذلوا المرأة؛ ويجعلوها طوع شهواتهم؟

أريد أن أقول في جلاء: إن استخراج المرأة من البيت ليس سدادًا لثغرات في ميدان الزراعة والصناعة والتجارة – ودعك من ظروف الحرب – وليس إنجازًا للأوراق المهملة في الدواوين، ولا ترويجا للبضائع المكدسة في الدكاكين! إنه مجون من بعض الرجال الذين يريدون تيسير المتاع بالمرأة، وابتذال محاسنها، وجعلها تحت بصر الذئاب، أو بين أيديهم كلما شاؤوا.

- تنشئة كل مولود على أقساط من العلم تجلو عقله، وتصون فطرته، وتفتح مداركه، وتنمي مواهبه أخذت طريقها المستقيم في الغرب. أعني أوربا وأمريكا حيث نسبة الأمية صفر! فإذا نقلنا نظام الإلزام الصارم من هناك، وطبقناه في بلادنا كان ذلك عملًا أرشد، وطريقًا أخضر! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) والفرض يعني الإلزام! وقد اضطربت وسائلنا في العصور الأخيرة في تنفيذ هذا الإلزام؛ حتى ارتفعت نسبة الأمية في البلاد الإسلامية إلى حد يبعث على الزراية والأسى!
- إن الإسلام لم يأمر بتعدد الزوجات، فإن الزواج ليس نشدانًا للذة فقط، وإنما هو قدرة على التربية ورعاية الأسرة، فمن عجز عن ذلك كلّفه الإسلام بالصوم!
- ونحن نوجه للأوربيين سؤالًا لا مهرب منه: هل التعدد الذي أذن الإسلام به أفضل أم الزنى!؟ إننى أسائل كل منصف صادق: هل المجتمعات الأوروبية تكتفي بالواحدة؛ أم أن التعدد قانون غير مكتوب يخضع له الكثيرون؟
- إن الاستعمار الثقافي حريص على إنشاء أجيال فارغة، لا تنطلق من مبدأ ولا تنتهي لغاية، يكفي أن تحركها الغرائز التي تحرك الحيوان، مع قليل أو كثير من المعارف النظرية التي لا تعلو بها همّة ولا يتنضّر بها جبين، وأغلب شعوب العالم الثالث من هذا الصنف الهابط!

الغزالي والدور العلمي والحضاري للمرأة:

بقدر ما جمد بعض الفقهاء موقف المرأة، وجمدوها تجميدًا لافتًا، وبقدر ما دخلت العادات والتقاليد حكمًا غير عدل، مضادًّا للشريعة، مناوئًا لها، وبقدر ما يجهل الرجال حقها عليهم، وبقدر ما تجهل هي حقوقها واجباتها، تجيء غضبة الغزالي، وانفعاله في طرحه المصطف بقوة إلى جانب المرأة، ليكشف ما أخفته التقاليد والجمود والجهل!

وأستعين هنا بما كتبه أ. صلاح حسن رشيد بعنوان: (دفاع الشيخ الغزالي عن حق المرأة في الاجتهاد/ الحياة/ ١ يوليو تموز):٢٠١٧ في كتابه «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»، تحت عنوان «المرأة وخدمة السنة»: يقول الشيخ رحمه الله تعالى:

علوم السنة من أهم علوم الشريعة، والصدارة فيها تحتاج إلى ذهن ناقد مستوعب حفيظ. وقد كنت أظن النساء آخر من يشتغل بهذه العلوم، بل أن يبرزن فيها، ويبلغن مرتبة الإمامة، حتى قرأت رسالة «السنة النبوية في القرن السادس الهجري» للدكتور محمود إبراهيم الديك، فوجدت عالمات بالسنة، لا يشق لهن غبار، ولسن نزرًا يسيرًا، بل عشرات من العالمات الثقات، ومنهن السيدة المسنِدة/ شُهدة بنت الإبري الكاتبة، وكانت ذات دين وورع وعبادة، سمعت من العلماء الكثير، عاشت قريبًا من مئة عام، وكانت مليحة الخط، لم يوجد في زمانها من يكتب مثلها».

ويضيف الغزالي: «لا يهمني هنا أن أذكر أسماء الرجال الذين تلقت عنهم، وإنما يهمني أن أذكر

بعض من تلقوا العلم عليها، ومنحتهم إجازة علمية بالرواية والتحديث. قالوا: سمع منها أبو سعد ابن السمعاني، وروى عنها الحافظ أبو القاسم بن عساكر، وهو المؤرخ المشهور، والموفق ابن قدامة الفقيه الحنبلي الثقة، كما حدَّث أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي أنها من شيوخه»!

- ومن المحدثات أيضًا: بلقيس بنت سليمان بن أحمد ابن الوزير نظام الملك، ولدت في أصبهان (517هـ–592هـ) سمع منها جماعة من العلماء، وحدَّث عنها يوسف ابن خليل وغيره.

- واستوقفني وأنا أقرأ في تراجم محدِّثي القرن السادس، أن أبا البركات البغدادي – من علماء السنة – كانت له أختان، إحداهما أمّ الحياء حفصة، وهي راوية موثقة دارسة، قال المنذري عنها: ولنا منها إجازة، كتبت عنها في شوال سنة 608هـ. وهناك سيدة أخرى: «أم حبيبة الأصبهانية عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر القرشية العبشمية»، قال عنها الحافظ المنذري في التكملة: حدّثت الناس، ولنا منها إجازة، كتبت بها إلينا من أصبهان في ذي القعدة سنة 606هـ. إن هذا الإمام يذكر من دون تحرج أنه تلقى عن نساء فضليات، أجزنه، وأذِنَّ له بالتحديث. ويستطيع القارئ أن يقرأ أسماء عشرات في قرن واحد، من أولئك العالمات البارعات في الدراسات الإنسانية.

- أما زينب بنت الشعرى، وتدعى حرّة (524– 615هـ) فقد قال عنها ابن خِلِّكان: لنا منها إجازة كتبتها سنة 610هـ!

- ويعلق الغزالي على كل هذه الشواهد والبراهين التي تملأ بطون كتب التراث؛ دالةً على مكانة المرأة شيخةً وإمامةً: «يا عجبًا، كبار المؤرخين والمحدّثين يذكرون بتواضع العلماء، وصدقهم أنهم أخذوا العلم عن نساء معروفات، وأنهم نالوا منهن شهادات تقدير وتكريم وثقة. ماذا حدث لأمتنا، فخلت الساحة من طالبات العلم وأساتذته، وجاءت قرون أمسى فيها ذهاب فتاة إلى مدرسة جريمة. بل خلت المساجد من العابدات، فأضحت صلاة المرأة في مسجد منكرًا. وصار ذكر اسم المرأة، أمًّا كانت أو زوجة شيئًا إدًّا»!

ويقول الشيخ الغزالي: «أعود إلى تاريخنا في القرن السادس، لأقرأ فيه أن الحافظ أبا العلاء ابن العطار – وكان إمام همدان في علوم الحديث والقراءات، والأدب والزهد، وحسن الأسلوب والتزام السنة – كانت له ابنة اسمها عاتكة بنت أبي العلاء، وكانت من المحدّثات المتقنات لعلوم السنة، قالوا: سمعت الكثير من أبي الوقت عبد الأول السجزي، وقدمت إلى بغداد من همدان، ودرست السّنة. قال محب الدين النجار: كتبنا عنها. وتوفيت سنة 609هـ.

وولدت فاطمة بنت سعد الخير الأنصاري الأندلسي بالصين سنة 522هـ، وتلقت العلم عن والدها، وعن غيره من المحدثين الكبار في بغداد، ثم قامت بالتدريس في القاهرة ودمشق، وسمع منها جماعة من الشيوخ، وقال عنها أحدهم: «سمع منها شيوخنا ورفقاؤنا، ولنا منها إجازة».

ويعلق الشيخ الغزالي: «المأساة، أن المرأة التي ذرعت الطريق من الصين إلى القاهرة، والتي جاء أبوها من بلنسية في الأندلس إلى الشرق الإسلامي، ليخدم العلم في أرجائه الرحبة، جاء بعدها في هذه السنين العجاف من يقول: تخرج المرأة من بيتها لأمرين: إلى الزوج، أو إلى القبر»!

ويقول الغزالي: «كتب حسن عبد الوهاب عن النشاط النسائي في بعض العصور الإسلامية، فكشف عن جانب مهم من دعمها للمبرات العامة، وسدها الثغور الاجتماعية، وبروزها في بذل الخير، وتفريج الكربات، قال: ما من ناحية من نواحي حضارتنا وثقافتنا إلا ولها فيها نصيب موفور، فها هي الفتوحات الإسلامية ساهمت فيها مع الرجال، واشتركت في ميادين القتال، وداوت الجرحى، واكتتبت بمالها وحليها وشَعرها لمساعدة الجيوش». أما أثرها في النهضة العلمية، فقد اعترف به أجلة العلماء.

ومن المفيد أن نعرف أن أبا نواس الشاعر يقول عن نفسه: «ما قلت الشعر، حتى رويت لستين امرأة من العرب، منهن الخنساء وليلى»، وأن من شيوخ العلامة المحدث ابن عساكر مؤرخ الشام نيّفًا وثمانين امرأة، وأن الخوارزمي الشاعر المشهور، كان من محفوظاته أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الخنساء، وأن كثيرًا من أجلة العلماء تلقوا العلم عن سيدات، وحصلوا على إجازات منهن.

معارك الشيخ على مستوى الفكر الإسلامي:

معارك الشيخ على مستوى الفكر الإسلامي:

لا أشك في ريادة الشيخ الغزالي – من بداياته – في قضاياه التي كتب فيها، وطروحاته التي صاول بها، ومفاهيمه التي سبق بها عصره! منذ عرك لجج السياسة، واستفاد من مواقعه الوظيفية في خدمة الإسلام والدعوة، ومنذ كتب عن الفساد الاقتصادي، والسياسي، والحقوق، والحريات، وحين كتب عن المرأة، وعن العقيدة والقرآن والسنة والدعاء، والتيارات الفاسدة، فكل كتاب منه نسيج وحده – من أول كتاب لآخر كتاب – بل كثيرًا ما كانت كتبه صادمة لهذا التيار أو ذاك، لذا تعرض لحملات شرسة، من علمانيين ناقمين عليه، ورسميين لا يحتملون جرأته، وإسلاميين لا يمشون في غباره:

أنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا *** *** وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاهَا وَيخْتَصِمُ

وهو من المدرسة الأزهرية، التي لم تعبد الكتب والنصوص، ولم تجمد على الأساليب والمناهج، بل فكرت لنفسها ولقومها ودينها: مدرسة محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا والمراغي وشلتوت ومحمد عبد الله دراز، وأبو زهرة، وأضرابهم ممن أضافوا بصمة مختلفة على الفكر الإسلامي في القرن العشرين! والتي امتدت وتشعبت، وبعثت صحوة إسلامية في الأمة، أمرت الخلاصة النقية من أبناء الصحوة، ونفع الله بها شبابًا كثيرين مباركين؛ خصوصًا بعد سبعينيات القرن العشرين..

وقد مر كيف كان تقدير العلماء الكبار في مصر – وغيرها – له، وكيف كانت علاقته بكبار العلماء من قبله ومن بعده، وتقديرهم الكبير لمشروعه الفكري، ومنهجه التنويري، وخطابه (الغزالي) الذي يتفرد به!

وقد عاصرت حفاوة مجلة الأمة بفكره، من مقالاته التي أثرت بها المجلة، وكتابه الأول من كتبها (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) وحوارات الأستاذ عمر عبيد حسنة معه!

وقد أوتي الشيخ رحمه الله (حاسته الغزالية التجديدية) لأسباب عدة ميزته عن غيره من الدعاة

- بعد فضل الله تعالى وتوفيقه إياه – أهمها:

1. فهمه العميق والدقيق لروح الشريعة الإسلامية، ولمقاصدها السمحة، التي أُنزلت من أجلها! وهي المفعلة، والمحركة لنهضة الأمةالإسلامية!
2. إدراكه أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة، وأسباب تخلفها وتعثرها، وطرق نهضتها!
3. إدراكه لروح بطرس الناسك القابعة في الحملات الاستعمارية الحديثة القديمة والحديثة!
4. رؤاه الاستشرافية الآفاقية الناهضة، والمستقبلية الأكيدة، فقد نبه سنة 1400هـ باقتطاع الصليبية العالمية سنة 1421هـ 2000م لأجزاء مهمة من العالم الإسلامي (جزر الملوك وتيمور الشرقية بإندونيسيا)، وضمها للصليبية العالمية بفعل حملات التبشير المستمرة!
5. شجاعته النادرة، وتصديه المتميز للجامدين والمعاندين والمقلدين، وتضحياته أمام جحافل كثير من البله، والمغفلين من المتحدثين باسم الإسلام!
6. جرأته في الحق، في وجوه السلاطين والملوك والرؤساء، ورموز التيارات المائلة!
7. حكمته، وعقلانيته، ورشده المتميز في خدمة الإسلام والمسلمين محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا!
8. تأسيه الصادق والحقيقي والواقعي بالمنهج النبوي الصحيح، وبتطبيقاته العملية الموروثة عن جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين!

وقد ولد هذا جملة عطاءات تميزه؛ منها:

- دفاعه المستميت عن الإسلام، والتنبيه إلى خطر المتحدثين باسمه من: (متحدث جاهل) و(منافق عليم اللسان) و(سياسي صاحب هوى)! ممن لا فقه لهم، ولا علم عندهم، ولا موهبة علمية لديهم، ولا صدق في توجهاتهم!
- تكوينه للنخب وللبؤر الدعوية المتميزة، التي حملت المشعل الدعوي الناهض من بعده!
- تصديه – بالكتابة والتأليف، وكل أشكال الاتصال والتعبير والنقد – لما يصيب الإسلام والمسلمين، ولما يتهددهم، على الصعيدين الداخلي والخارجي!

- تصديه بكل الوسائل الناجحة والناجعة والمتوفرة لكل علل وأمراض المسلمين، والتنبيه على خطرها القاتل عندما تستشري فيهم!
- وقوفه الحازم في وجه المقلدين والجامدين والمعوقين والمخذّلين!

(أحمد عيساوي/ الشيخ محمد الغزالي فارس الدعوة الإسلامية في العصر الحديث (العدد: 489) من مجلة الوعي الإسلامي) بتصرف، واختصار!

ولبروز الغزالي رحمه الله تعالى سلسلة بدأت من الأفغاني ومحمد عبده – كما أشرت سابقًا – وتلقى سندها المتصل عن الشيخ حسن البنا رحمه الله، فقد كانت خطوط الإصلاح في ذهنه واضحة – كما كتب تقادم الخطيب، في دراستها: الشيخ الغزالي وآليات التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر: إشكاليات القراءة والتأويل)، وهي:

تقديم الكتاب على السنة، وجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهي أمده، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالًا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة!

وحاول الشيخ قراءة النص الشرعي – الذي يكتسب مركزية كبيرة في قلب الثقافة الإسلامية – واستنباط آلياته، والإضافة إليه، وتلقيه تلقي الواعي الناقد!

كما رسم معالم ينجح معها التغيير والتجديد:

ومنها أن يعود الولاء للإسلام، ويستعلن الانتماء إليه، في حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال؛ مع التأكيد على أن الولاء الشكلي للإسلام مخادعة محقورة، وأن من المستحيل أن يرتبط الإنسان روحيًّا ومنهجيا بالماركسية أو الصليبية، وفي الوقت نفسه يدعي الإسلام.

ولنجاح الأمر لا بد أن يقصي من ميدان التدين العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم، وكذا العلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن، أو بخلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

كما أننا بحاجة إلى نقطة عامة تتناول أوضاعنا كلها، حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا عواء الأقوياء.

وممن كتب عدد من المفكرين عن تجربة الإمام الغزالي في تجديد الفكر الديني: الدكتور محمد يونس الذي رصد فيها ثلاث ركائز رئيسة انطلقت منها تجربة الغزالي في إصلاح الفكر الإسلامي وتجديده، وهي: تصحيح أسلوب تعامل المسلمين مع القرآن الكريم والسنة النبوية (بحيث يكون برؤية حضارية تضع نصب أعينها مقاصد الإسلام الكبرى)، وتوجيه العقلية الإسلامية المعاصرة إلى العودة إلى الاعتماد على حقائق الدين النقية، وإعادة ترتيب أولويات العقل المسلم؛ بحيث تنال اهتمامه الأساسي القضايا الجوهرية لا الثانوية أو الهامشية.

وأما على صعيد جهوده لإصلاح الفكر الإسلامي، فكان الغزالي ينبه دائمًا إلى تكامل رسالة الإسلام. وينهى عن التجزيء المفتعل، ويصحح فهم الناس لجوهر الدين ومقاصده. كما أنه يرجع ما يحدث للمسلمين اليوم، إلى تخليهم عن جوهر الدين الحنيف، مشيرًا إلى التخلف العلمي، والاستبداد الذي لا يزال يخيم على العديد من المجتمعات الإسلامية؛ لينتهي إلى أن مأساتنا: "أننا مصابون في أخلاقنا". البيان/ 06 ديسمبر 2013.

ويوضح الشيخ في كتابه: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، أن الإسلام يحتاج إلى إنسان تكون خصائصه العقلية مرنة، ويستطيع أن يتحرك بالإسلام في مواطن كثيرة؛ إذ يخشى عجز المسلم عن إبصار الساحة التي يتعامل معها، وأن يعلن عن قضايا كبيرة لا يستطيع من خلال إمكاناته أن يحققها فيقع في شيء من الإحباط ويوقع الآخرين بشيء من الانكسار، وأن يكون عنده فقه

للصورة التي يتعامل معها من خلال إمكاناته المتوفرة، ومن خلال الفرص المتاحة له.

ويرى أنه لا بدَّ من دراسة شاملة لأسباب تقهقرنا المدني والعسكري، وما هي العناصر الحيوية التي فقدناها حتى دهانا ما دهانا؟ لا بد من بصيرة فاحصة متعمقة تتدبَّر ثقافتنا وتُنقِّي منابعها! وتنقذ مستوانا الحضاري الأخير، وتستكشف أسباب هبوطه!.

ويرى أن إقامة دين الله شيء ومجرد الاستيلاء على الحكم بطريقة أو بأخرى شيء آخر! فهي تعني – قبل كل شيء – تأسيس علاقة زاكية بين المرء وربِّه، منزهة عن طلب الدنيا والتَّشبُّع من لذائذها، والاستعلاء في أرجائها: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا)! كما تعني الإسهام في بناء مجتمع عالمي يعرف المعروف، وينكر المنكر، ويحترم الحقوق، ويوقِّر رب العالمين!

ويدعو الشيخ إلى فتح باب الاجتهاد؛ لإن إغلاق باب الاجتهاد هو اجتهاد، وهذا الاجتهاد بإغلاق باب الاجتهاد انتهى إلى ضرر، والضرر هو أن الأمة توقفت فعلا عند التفكير القديم الذي كان سائدًا في القرن الرابع تقريبًا، والزمن يتجدد، وكما قيل: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من أنزعة... فلا بد من أن يترك باب الاجتهاد مفتوحًا.

كما يرى أنه لو تركت حرية الاجتهاد فسيشتغل بعض الناس من المؤهلين ومن غير المؤهلين بقضايا الاجتهاد.. لكن إذا كان هناك وعي إسلامي صحيح، وتفاعل بقضية الاجتهاد، فستسقط بعض الفتاوى التي جاءت من غير أهلها، والتي لا تستحق أن تكون فتوى في الدين، لأن صاحبها صاحب بدعة، أو غير ذي علم أو ما إلى ذلك، كما نلمح هذه الأيام ـ في ملامح بسيطة ـ أن بعض الفتاوى الرسمية التي تأتي لملابسات معينة، الجماهير المسلمة لا تقبل بها ولا تغير من واقعها شيئًا.. بينما تكون بعض الفتاوى من أهلها الذين ليس لهم سلطان سياسي وإنما سلطان علمي ويتمتعون بمؤهلات تجعلهم أهلًا للنظر والفتوى، تكون عند الجماهير ذات أثر كبير!

ويرفض أن ينظر بعض إلى التاريخ الإسلامي . خصوصًا في الألف سنة الأخيرة . على أنه مصدر للتشريع، أو ينظر إلى التقاليد الاجتماعية السائدة في بعض البلاد على أنها مصدر للتشريع، وهذا غير صحيح، فإن التاريخ الإسلامي هو عمل الحاكمين لتنفيذ الإسلام، وهذا العمل قد يكون خطأ وقد يكون صوابًا، كما أن الفقه الإسلامي غير معصوم لأنه هو عمل العقل الإسلامي في استنباط الأحكام من أدلتها . وفي الخطأ والصواب . فكذلك التاريخ الإسلامي ليس مصدرًا من مصادر التشريع.. وقد يقع بعض الحكام في أخطاء كثيرة، يجب أن نضع في اجتهادنا الآن كيف نتجنبها!

وقد استلزم منهج الشيخ التجديدي أن يشتبك رحمه الله تعالى مع الأمة الغافلة التائهة بعمومها، فلم يألها نصحًا وتوجيهًا، وتقريعًا وتنبيها، وغضبًا وألمًا، فكان يقول منبهًا وعائبًا:

- إن العربَ البعيدين عن دينِهم قدموا لليهودِ أرخصَ نصرٍ عُرف في تاريخِ الحروب! وما أشهدُ في سيرِ الأولينَ والآخرينَ أمةً هزمتْ نفسَها كالعربِ المعاصرين، لقد هزَمَتهم بلادة الفكرِ والشعور، وسوءاتِ التَخطيطِ، والتنفيذ، وفوضى الفُرقَةِ والعِصْيَان والتَسَيُّب. وهيهات أن تتبدلَ أحوالُهم إلا وَفْقَ سننِ اللهِ: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)!
- بعض المرضي يحتاج إلى صدمات كهربائية لتصحيح وعيه، وإيقاظ ما تخدر من حسه! والمسلمون يحتاجون إلى أمثال هذه الصدمات؛ كي يحسموا الخلاص مما حل بهم، والسير على نهج يشبه أو يقارب نهج الراشدين من أسلافهم!
- الفقر الثقافي أسوأ عقبى من الفقر المالي، والشعب الذي يعاني من الغباء والتخلف لايصلح للمعالي ولايستطيع حمل رسالة كبير!
- كما ينبت الشرك في أحضان الوثنية ينبت الرياء في ظلال الكبر، وحيث يوجد السادة المستكبرون يوجد الأتباع المتملقون والأشياع المراؤون! وجوّ الحكم المطلق أحفل الأجواء بجماهير العبيد الراضخين للهون عن طواعية أو كراهية، وفي الحرب التي شنها القرآن الكريم

على هذه المجتمعات المظلمة ترى الهجوم يتتابع على مبدأ "السيادة والتبعية" وعلى ما يلحق هذا الجو من إلغاء للعقول والضمائر.

- أُمة هي خمس العالم من حيث التعداد، تبحث عنها في حقول المعرفة فلا تجدها، في ساحات الإنتاج فلا تحسّها، في نماذج الخلق الزاكى، والتعاون المؤثر، والحريات المصونة، والعدالة اليانعة.. فتعود صفر اليدين! بماذا شغلت نفسها؟ بمباحث نظرية شاحبة، وقضايا جزئية محقورة، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى، واستغرقها هذا كله، فلم تعط عزائم الدين شيئًا من جهدها الحار، وشعورها الصادق؛ فكانت الثمرات المرة أن صرنا حضاريًا وخلقيًا واجتماعيًا آخر أهل الأرض في سُلّم الارتقاء البشرىّ!

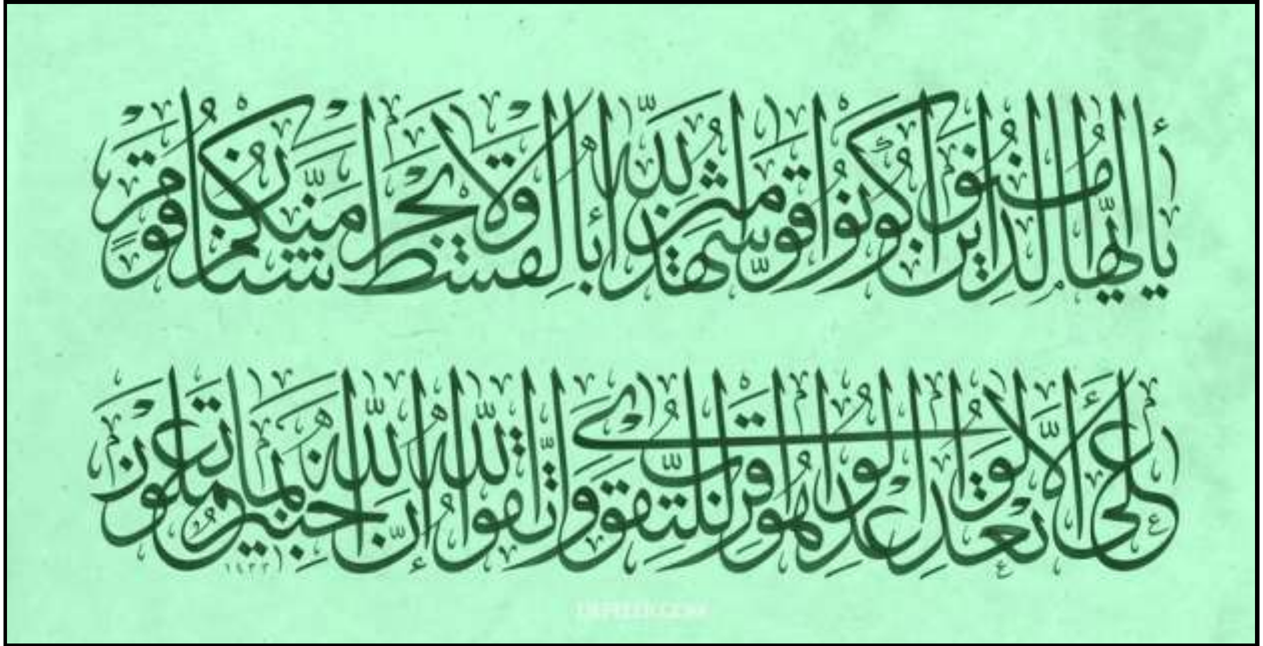

معاركه مع أغبياء التدين:

دخل الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى معارك عديدة مختلفة الشدة مع طوائف من الإسلاميين، مع بعض أساتذته الأزهر في بداياته، ومع بعض الكتَّاب باسم الفكر الإسلامي، واختلف في وقت ما بشدة مع الإخوان المسلمين، ثم مع التيارات التي عدها متشددها؛ خصوصًا التيار السلفي، الذي نال منه الجزاء الأوفى، في النقد والتثريب في كثير من كتاباته ومحاضراته!

يقول رحمه الله تعالى:

تبين لي بعد أربعين سنة من العمل في الدعوة الإسلامية أن أخطر ما يواجه العمل الإسلامي هو التدين الفاسد؛ أي استناد النفس إلى قوة غيبية وهي تعمل للخرافات والأوهام، أو وهي تعمل للأغراض والمآرب! الدين يقظة عقلية، وهؤلاء يعانون تنويمًا عقليًّا متصلًا! والدين قلب سليم، وهؤلاء استولت على قلوبهم علل رديئة!

والأمر في كشف التدين الفاسد يحتاج إلى تفاصيل للتعامل مع الآفات النفسية والعقلية التي تسبب هذا البلاء. وقد خصص أبو حامد الغزالي جزءًا ضخمًا من كتابه: «الإحياء» في علاج هذه الآفات والتحذير منها، كما وضع ابن الجوزي كتاب: «تلبيس إبليس» للكشف عن صور التدين الفاسد، وإبعاد العامة والخاصة عنه!

وقد ألفت بعض كتبي وأنا مستغرق في محاربة هذا الجانب من التدين المعلول، سواء كان رسميًّا أو شعبيًّا، مثل كتاب: «تأملات في الدين والحياة»، وكتاب: «ليس من الإسلام»، وكتاب: «ركائز الإيمان بين العقل والقلب»، وأخيرًا كتاب: «الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر».

والحقيقة أن التدين الفاسد سر انحراف كثير من العقلاء؛ لأنهم ينظرون إلى الدين من خلال مسالك بعض رجاله، وآثارهم في الحياة العامة. والواقع أن بعض المتدينين كانوا في القديم والحديث

بلاء على الدين!

وقد اشتبك الشيخ في نزاعات علمية من بداياته مع أنواع من المتدينين، كبعض أساتذته، ثم مع انتمائه الثاني للإخوان المسلمين، ثم مع بعض الرموز كخالد محمد خالد!

لكن خصومته الحقيقية والعنيفة، وحربه الشرسة كانت مع الجامدين والمتنطعين؛ ممن سماهم تائهين، وبدوًا، وأغبياء، وعميانًا، ومتشددين، وسبهم فأقذع، وسماهم أبناء الأفاعي! ووصمهم بأنهم أصحاب التدين المغشوش، الذي يفسد البداهة، ويمسخ الفطرة!

وثرب عليهم بلسانه السلط، وبيانه السوط، وأكده في كثير من كتبه؛ خصوصًا قذائف الحق، وهموم داعية، وكيف نتعامل مع القرآن، والسنة النبوية، وغيرها! ومن كلامه في ذلك:

- إن المتدينين من قديم – ولا يزالون إلى الآن – يتعثرون في قضايا خلقية، واجتماعية، وسياسية كثيرة، بل إن تصوراتهم الثقافية موضع دهشةٍ:

– فيوجد من يؤلف ضد دوران الأرض حول الشمس، ويؤيد موقف الكنيسة في العصور الوسطى، ويدعي مع ذلك أنه سلفي!

– ويوجد من يأمر تلامذته بتخريق صور الأحياء في كتبهم، لأن التصوير حرام!

– ويوجد من يرى كشف الوجه نوعًا من الزنا، أو طريقًا إليه!

– ويوجد من يهاجم كون الأمة مصدر السلطة!

– ويوجد من يتنكر بقوةٍ لتكوين الاحزاب، ولا يهمس بحرفٍ ضد تقييد الحريات!

– ويوجد من يحسب إقامة الصلاة مغنيًا عن تعلم الصناعات!

– ويوجد من يعيش مع أعداء الإسلام في القرن الرابع، يهاجمهم وينال منهم، ولا يدرى شيئًا عن أعداء الإسلام في هذا القرن!

ألا يمهد هذا كله لإلحاد مدمر!؟

- كان السلف الصالح يتلاقون على الفضائل، ويتعارفون بها، فإذا أساء أحد السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطئ، بدا – بعمله هذا – كالأجرب بين الأصحاء، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من علته.
- وقد رأيت بعض الجهال الذين لا يجوز لهم الكلام في الإسلام يرجمون المجتمعات بآثارٍ ما فهموها وما يدرون شيئًا عن ملابساتها ودلالاتها، يقول للناس: إن الأغنياء أكثر أهل النار، وإن النساء أكثر أهل النار، يعنون أن الغنى جريمة، وأن الأنوثة جريمة! وهذا لغو مقبوح الفهم والآثار، وقد آن للأمة أن تبرأ منه، وأن تنصح قائليه بالصمت والتوبة!
- الأنانيون عندما يسلّطون أفكارهم الضيقة على الدين يمسخون نصوصه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فهم يفهمونه ثوابًا بلا عمل، وثمرةً بلا غرس، أو عقابًا يقع على الآخرين وحدهم، هيهات أن يمسّهم منه لفح!
- بعض الناس يسيء إلى الدين عندما يهمل تهذيب طباعه، وتقويم عوجه، ثم يحرص على الاستمساك بشعائره، كما يمسك الملوث قطع الصابون بيده، دون أن يُذهب بها درنًا!
- من الخطل أن نظن أن العلم المحمود هو دراسة الفقه والتفسير فحسب، وأن ما وراءه فهو نافلة يؤديها من شاء تطوعا أو يتركها! إن هذا خطأ كبير؛ فإن علوم الكون والحياة، ونتائج البحث المتواصل في ملكوت السماء والأرض لا تقل خطورة عن علوم الدين المحضة؛ بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل من معرفتها أولى بالتقدير من الاستبحار في علوم الشريعة. وحسبنا أن القرآن الكريم عندما نوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى العلم الذي ينشأ عن النظر في النبات والحيوان وشؤون الطبيعة الأخرى، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً؛ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ، مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ؛ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) وقال (....وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)!

- إن الله شرف العرب يوم ابتعث منهم محمدًا، واصطفاهم لتبليغ رسالته، فإذا أنكروا هذا النسب ونسوا تلك الرسالة، فما يكون شرفهم بين الناس؟
- والواقع أني أكره العنف والتحامل على الآخرين، وبقدر ذلك أكره العدوان على ديني، والافتيات على حقي! من أجل ذلك لم أهيب أي مجتمع أدعو فيه، ولم أستوحش من الأسماء السائدة، أو العناوين الشائعة للمذاهب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، بل من نقطة التلاقي بين الفطرة التي عرفتُها بالوحي، وعرفها غيري بالتجربة أو بالفلسفة أو بالعلم، من هذه النقطة أبدأ العمل لديني، وأنا متمكن ومستريح!
- نعم قبلت ما رفضه غيري من كلمات الديمقراطية والاشتراكية مثلًا، وعن طريق الكراهية الفطرية للاستبداد السياسي أو الجشع الرأسمالي؛ أخذت أعرض من ديني النواحي المقابلة أو المماثلة، فإذا نجحت في إبراز الحقيقة الإسلامية – ويجب أن أنجح؛ وإلا كنت داعيًا فاشلًا – انتقلت بالفرد الذي أحدثه، أو المجتمع الذي أخاطبه، إلى آفاق أوسع ونواح تمسُّ العقيدة والعبادة وسائر شعبَ الإيمان. بل إنني دخلت في ميدان العروبة بهذه الخطة!
- ...وهناك شيوخ ذهبوا إلى أوربا لا يردّون يد لامس! أخذوا شهادات مزوَّرة في النحو واللغة والفقه والتاريخ! وعادوا بعدما فقدوا حصيلتهم الأولى. ويخيّل إلي أن رسائل كتبت لهم لا يدرون هم خباياها! وقد ناقشت بعضهم في شيء مما كتب –لأنه ضد الإسلام– فاستغربه، وفوجئ به، فأدركت أنه حمل الدكتوراه سفاحًا! ومن المحزن أن نفرًا من هؤلاء قاد الأزهر في تاريخه الأخير!
- كيف يمكن أن يكون خطابنا الذي نحمله عالميًّا، ولا نفهم ما عند العالم؟ فلعل السير في الأرض الذي حض عليه القرآن يحملنا المسؤولية المزدوجة: التبصر بأحوال الأمم للعبرة والدرس، والتعرف على أحوالها ليكون الخطاب الإسلامي مطابقا لواقع الحال، وقد يكون من خطأ الدعاة في الغرب اليوم، أنهم يحملون المؤلفات والتراث الثقافي الذي وضع لعالم المسلمين، بمشكلاته، ومعاناته، إلى أولئك الذين قد يتطلبون خطابا من نوع آخر في ضوء اهتمامًاتهم.

- هناك ناس من الدعاة يضيقون أشد الضيق بالعناوين المحدَثة، ويشمئزون من ديمقراطية أو اشتراكية، أو ما شابه ذلك!

وهؤلاء الناس نوعان: نوع يريد الإسلام عنوانًا فجًا على رُكام من التعاليم المدَوَّنة بلغة العصر المملوكي، أو لتركي، ولا يتحرك قيد أنملة لتوضيح يطلبه العصر، ولا يقبل مقترحات جديدة للوسائل التي تخدم أهدافنا وشرائعنا! إن هذا النوع يشبه من يريد المقاتلة بالخيل، في عصر التفجير الذرّي؛ معتمدًا على نصوص لم يفهمها! وأنا أرفض التعاون مع هذا النوع، ولا أكترث بإنكاره عليّ، أو تبرُّمه بي!

وهناك نوع غيور على الإسلام شكلًا وموضوعًا يقول: إن العناوين المجلوبة من الخارج قد تقدح في الحقائق الجليلة التي ورثناها، ومن الممكن أن ننظر إلى أحسن ما لدى الآخرين ملاءمة للفطرة، وموافقة للوحي، فنأخذه ليكون – بعد تهذيبه – من بين الوسائل التي نخدم بها قيمنا المقررة!

إن الخلاف مع هذا النوع شكلي، وإنني لأغار على ديني كما يغارون، وإنما أريد ألا أُلدغ من جحر مرتين! فكم من متدينين يتصورون الخلافة فرعونية جديدة تحكم دون معقب، أو قارونية جديدة تحب المال حبًّا جمًّا، وتريقه في أهوائها دون رقيب!

- وما نلوم المبشرين والمستشرقين فيما اختلقوا من إفك؛ وإنما نلوم نفرًا من الناس لبس أزياء العلماء – وهم سوقة – وانطلق في عصبية طائشة يزعم أن الإسلام مهد الحرب، وينشر دعوته بالسيف! وتتبعت كلام هؤلاء فإذا أحدهم يكتب – تدليلًا على وجهة نظره – أن الإسلام حارب في بدر معتديًا، وأنه شن هجومًا على قافلة المشركين لأنهم مشركون مستباحون، قلت: هذا هو كلام الإسرائيليين في شتم الفدائيين الفلسطينيين.
- التبعة ليست على رعاع يمزقون شمل الأمة بتعصبهم، وإنما تقع التبعة على علماء يعرفون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حكم بأن للمجتهد أجرين إذا أصاب، وأجرًا إذا أخطأ.

- ولو فرضنا جدلًا أن الحق مع الحنابلة والأحناف في أنه لا قنوت في الفجر فمن الذي يحرم مالكًا والشافعي أجر المجتهد المخطئ؟ وإذا كان من يخالفنا في الأجر مأجورًا فلم نسبه ونحرجه، ونضيق عليه الخناق؟

ومن كلامه على الأزهر (القديم) ومناهجه – منصفًا، وناقدًا – كما جاء في مذكراته:

- (لنعد إلى كليتنا التي التحقنا بها: إن المناهج الموضوعة تكفي وتشفي، ولو وجدت الأستاذ الكفء لخرَّجت دعاة ومدرسين من طراز رفيع! إن الطريقة التي تعلمنا بها تفتق الأذهان، وتحرّر المراد، وتضبط المفاهيم...

ومع أن المذاهب الفقهية الثلاثة كانت منتشرة بين الطلاب والمدرسين بنسب متقاربة، إلا أن ذلك لم يكن له أي أثر في تحزُّب أو انقسام، بل كانت الدُّعابة أحيانًا تصبغ البحوث العلمية.

كذلك عرضُ تفكير السلف والخلف في الأسماء والصفات كان يتم بحياد ورحابة صدر! وتضمنت مناهج الكلية – إلى جانب العلوم التقليدية – دراسة موسعة للفلسفة في شتى العصور، وتوسعًا آخر في علم النفس والأخلاق... إلخ.

وأرى أن علماء المسلمين يجب أن يتبحروا في هذه المعارف كلها، وأن تكون لديهم قدرة نفسية على فهم المتناقضات، والإحاطة بأبعادها، فيفهم أحدهم الشيوعية بنفس القدرة الذهنية التي يفهم بها الصوفية، بنفس القدرة التي يفهم بها حقائق الدين)!

- (ومع رحابة الفكر تكون رحابة الصدر، وإدراك وجهات النظر الأخرى، بغير تضخيم ولا تهوين، وينتهي الأمر عندئذ بألا يثور المرء إلا لشؤون ذات بال من الأمهات والأصول. إن نسيان هذه الحقيقة أحدث فتوقًا جسامًا في تاريخنا العلمي!

- لقد رأيت المراسيم السلطانية التي صدرت ضد ابن تيمية، فوجدتها تأمر بحبسه مرتين:

- الأولى: لفتواه بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد، يقع واحدًا.
- والأخرى: لأنه كره زيارة قبر النبي، للتبرك، ولما يذكر العامة أحيانًا من طلب استشفاع وتضرُّع إلى الله. وما كان الأمر ليتطلب الحبس في الأولى ولا في الآخرة، إذ الخطأ والصواب هنا في أمور فرعية، ليس السجن هو الذي يبتّ فيها! والتهويل في هذه القضايا صرف للجماهير عن الفساد السياسي، وشغلهم بما يربح الحاكمين)!

➢ (ولا زلت أرى أن فقه الفروع لا ينبغي أن يقسم الأمة شيعًا، ولا أن يصرفها عن أركان الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، بله الأركان الأخرى! ومن ثم فقد أعجبتني الدراسة في الأزهر – قبل أن يطيح – وقلت: لو مضى هذا التيار إلى مداه فسيكسب المسلمون الكثير)!

(إن علماء الدين الذين يحصرون واجبهم في كلمات تؤدي بقصور أو وفاء، ثم يقبعون في بيوتهم بعد ذلك، لا ينصرون حقًّا ولا ينشؤون جيلًا!

➢ وقد رأيت شيوخ طرق يغرسون الخرافة، ويحرسونها حتى تنمو، وعُدَّتهم في ذلك قدر من البِشرِ والحفاوة والكرم، أمّا من لديهم فقه صحيح فقد أضاعوه بالجلافة والكزازة، والجبن عن لقاء الناس!

غير أني أقول بتواضع إن عرض الإسلام وعلومه اليوم بالأسلوب نفسه الذي كان يُعرض به في القرن السادس أو السابع غير مفهوم، ولا دلالة له على أزمة حادّة في المواهب والعزائم)!

➢ (ولا أدري ما يحدث الآن في الأزهر، وإنما أشكو أن علم أصول الفقه دُرِّس لنا بطريقة مُخلّة،والقدر الذي قدّم لنا من حقائقه غير كاف، ومنهج هذا العلم من ينابيعه الأولى متفاوت، وما سلكه الغزالي والآمدي غير ما سلكه الشاطبي في الموافقات، وهؤلاء لهم مسلك يخالف – من وجه – مسلك فقهاء الأحناف!

وهناك مع الأصول العامة قواعد فقهية، نشأ عنها تباين وجهات النظر بين الشافعية والأحناف،

كما أشار إلى ذلك الزنجاني. وبديهي أن الاستبحار في هذا العلم من اختصاص كلية الشريعة، ولما كان الدعاة المسلمون يواجهون مشكلات مذهبية وفقهية، فيجب أن تقدم لهم خلاصات معقولة، يتوسع بعدها الدارس كيف يشاء.

والمؤسف أنه لا الكلية الأصلية، ولا الكلية التابعة يتحقق فيها ما ينبغي، ويوشك أن يوضع هذا العلم في المتاحف)!

- (وما يقال في علم أصول الفقه، يقال في علوم السنة، وعلم مصطلح الحديث الذي يدرس قواعد وتعاريف تحتاج إلى التطبيق الواسع، ولا تساق على هذا النحو الجاف العقيم!

سمعت أستاذ المنطق يعرِّف علم المنطق بأنه آلة قانونية تعصم الذهن عن الخطأ في الفكر! ورآني بعض الزملاء مشمئزًا، قال: ما خطبك؟ قلت: تعريف سخيف!

قال: وما التعريف الصحيح عندك؟ قلت: ماذا لو قيل: قواعد تصون العقل عن الخطأ في التفكير؟ بدل عبارة آلة قانونية؟

قال: إن الكتاب المقرر – وهو القطب على الشمسية – عليه شروح وحواش وتقارير كثيرة، تريد أن ندعها لاقتراحك هذا؟ دعنا من فلسفتك!

وقال: آخر – يمزح وهو في الواقع جادّ – هل هذا أيضًا من الدعوة الإسلامية؟

قلت: المعروف عن الداعي أن يكون لديه من كل روض زهرة! وأرى أن الدعاة الكبار قد يكونون أقدر منا (كأخصائيين) في فنونهم الأصلية! ألا ترى أبا حامد الغزالي كتب تهافت الفلاسفة فكان يطل بعقله الكبير على أرسطو وجماعته فيكتشف مواقع القصور في نظرهم، والخلل في قولهم؟

- (إن الدعوة الإسلامية ليست ثرثرة واعظ منكم؛ يزهِّد في الدنيا: إنها فكر كشّاف يعمل قبل كل شيء على ميز الخبيث من الطيب، والخطأ من الصواب)!

- (الحق أن الأزهر يحتاج إلى تجديد ثقافي وروحاني يقوم به رجال أولو عزم! وقد كان ذلك مطلوبًا قبل ما عراه على يد الناصريين، فكيف بعد ما غاض رونقه، وقاده المهازيل)؟
- (ما معنى أن يعلن رئيس دولة إعجابه بشخص مرتدّ كمصطفى كمال، وأن يأمر بإصدار طوابع بريد لتخليد ذكراه؟ كيف تخلد ذكرى فصل الدين عن الدولة، وجعل الحكم عَلمانيًّا؟ كيف تخلد ذكرى ضرب الإسلام، وإسقاط رايته وخلافته؟ والأعجب أن يصمت علماء السوء فلا يقولوا كلمة أبدًا في هذا الفسوق، ثم تراهم بعد يتسابقون في هجاء الإخوان لأنهم خرجوا على الحاكم؟ هل ولاؤكم أنتم له هو الإيمان)؟
- (قال لي صديق يشتغل في الإعلام: طلبنا من فلان أن يضع لنا جملة أحاديث في تحديد النسل. قال: تريدون أن أكتب بالتحليل أم بالتحريم؟ فقال له المجيب ساخرًا: خمسة أحاديث بالحلّ، وخمسة أخرى بالحرمة!

قلت: هذا الشيخ يصلح مفتيا للجمهورية، أو وزيرًا للأوقاف! قال: أو شيخًا للأزهر؟ قلت بعد تريُّث: أو شيخًا للأزهر!

إن أولئك الثلاثة في إبّان حكم العسكر حمَّلوا الإسلام ما لا يطيق، لا في مصر وحدها، بل في أقطار أخرى! إنهم ونظراءهم سخروا الفقه لهوى الرجال والنساء، واخترعوا أحكامًا ما أنزل الله بها من سلطان! وما كسبوا إلا غضب الله سبحانه، وكراهية الصالحين من عباده، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها! وفي هؤلاء يقول أحمد محرم:

أرى علماء الدين لا يحفظونه	ولا يرفعون اليوم رايته العليا...
هم اتخذوا ما أحرزوا من علومه	سبيلًا إلى ما يبتغون من الدنيا
إذا ما أتاهم جاهل بضلالة!	أتَوه بألفي عالم يحمل الفُتيا

- (الخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين، يعلو الآن نقيقهم في الليل المخيم

علي العالم الإسلامي، ويعتمد أعداء الإسلام – في أوروبا وأمريكا – على ضحالة فكرهم في إخماد صحوة جديدة، لديننا المكافح المثخن بالجراح).

- (إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة؛ ما دام لا يوجد بديل أفضل! هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحيه كثة؟ أو عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى، وفطرة أسلم، وسيرة أحكم؟ لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجره التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعًا أو جذورًا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقًا تتساقط مع الرياح).
- (لقد خامرني الخوف علي مستقبل أمتنا لما رأيت مشتغلين بالحديث – ينقصهم الفقه – يتحولون إلى أصحاب فقه، ثم إلى أصحاب سياسة تبغي تغيير المجتمع والدولة؛ على نحو ما رووا وما رأوا! إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه لا يدري قليلًا ولا كثيرًا، عن دساتير الحكم، وأساليب الشورى، وتداول المال، وتظالم الطبقات، ومشكلات الشباب، ومتاعب الأسرة، وتربية الأخلاق! ثم هو لا يدري قليلًا ولا كثيرًا عن تطويع الحياة المدنية، وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة، والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام)!
- (إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم! هززت رأسي أسفًا، وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية !

اشتباكاته مع السلفيين المعاصرين:

أشرت إلى أن الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى كان مزيجًا معجِبًا من السلفية والعقلانية والليبرالية! ولهذه الخَصيصة بالذات تعرض لغارة شعواء من كثير من الشبان المتحمسين، الذين بدَّعوه أو فسقوه أو كفروه، والذين عانى منهم حيًّا وميتًا؛ ما دفعه أيضًا لمواجهة الشدة بالشدة، والزراية بالزراية، والسخرية بالسخرية، وشن بدوره عليهم الغارة في غير كتاب ومقال وبرنامج!

وهو رحمه الله في نقده السلفيين لا يعني الخروج على فقه السلف رضي الله عنهم، ولا الانتقاص منهم أو ذمهم؛ فهذا مستحيل، بل ربما أخرج المرء من الدين كله؛ لكنه يرفض فقط حصر السلفية في فقه إمام واحدٍ، أو معتقده، ويرفض كذا حصرها في معتقد منطقةٍ جغرافية أو زمانية معاصرة!

وهو ما كتبت عنه – غير مرة – وبتوسع أكثر، مؤكدًا أنه لا تجوز حنبلة الإسلام، ولا شفعنته، أو حنفنته، أو ملكنته، كما لا تجوز سلفنته (بالمعنى العصري) أو أخونته أو أزهرته، ولا تجوز سَعْوَدته، أو مصرنته أو مغربته أو شمأنته؛ فإن الإسلام قد شمل هذا كله طوال تاريخه؛ منذ اختلفت اجتهادات الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ثم بعد أن نشأت المذاهب والمدارس العلمية، ودرس أئمتها بعضهم على بعض، وخالف التلميذ أستاذه دون نكير، وأثنى بعضهم على بعض؛ رغم الخلاف! اللهم إلا ما كان يقع أحيانًا من المتأخرين من التلاميذ المتعصبين لإمامهم أو مذهبهم!

وكان الخلاف – من البدايات – في العلوم كلها: فقامت مدارس في اللغة، وفي الاعتقاد، وفي

الفقه، وفي الحديث، وفي التفسير، وفي الدعوة، وفي الفلسفة، وغيرها! وعاشت الأمة في آفاق رحبة من الاجتهاد الخصب، والثراء الثر، والتنوعِ الجميل، وظهرت كتب التفسير الموسوعية، والفقه المقارن، والمعاجم، ثم يجيء من يريد أن يلغي هذا كله، لصالح شيخ معاصر، أو مدرسة! ويا رحمة الله على الأئمة الأعلام، وعلى سعة الأفق، والوعي والبصيرة!

ولقد رأيت من الإسلاميين من يحصر الإسلام كله في شيخ أو شيخين، ويلغي من عداهما؛ حتى كأنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو الشيخان رضي الله عنهما!

رأيت من يختصر الإسلام كله في العلامتين ابن باز وابن عثيمين (وهما شيخاي، رضي الله عنهما، ورحمهما رحمة واسعة) أو يختصره في الجهبذين القرضاوي والغزالي (وهما شيخاي، رضي الله عنهما، ورحمهما رحمة واسعة) أو يرى الأزهر وحده دون سواه (قلعة العلم) وقد سمعت هذا بأذني من شيخ به كبيرٍ، أثناء دراستي في كلية الشريعة، أو يرى المدرسة المالكية في المغرب كل شيء؛ كما لمست من بعضهم!

ثم نبغت نوابغ التكفير ليخرج أحيمق جهول فيكفر هؤلاء جميعًا في قرَنٍ – والدنيا كلها معهم – فلا يرى غير نفسه؛ حتى إن أحدهم قال لي – قبل نحو أربعين سنة؛ أثناء حوار معه –: إن كل من هم خارج هذه الغرفة كفار!

رأيت إذن هذا المعنى في التيارات المعاصرة كلها – دون استثناء؛ وحتى في الشخصيات الرموز – وهو داء عضال مهلك، وسرطان يفتك بالعمل الإسلامي المعاصر، ويجعل الإسلاميين – على اختلاف طوائفهم – كأهل النار: كل أمة تلعن أختها؛ كما في آية الأعراف:38، ويكْفُر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا؛ كما في آية العنكبوت:25!

- فأما سلفية الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى في عقيدته فقد صرح بها، في غير مكان، في كتبه، (وقد أوردت بعضها) وهو يجنح بوضوح للبعد عن التفلسف في الأسماء والصفات، ويميل لتمريرها كما

هي؛ وإن كان لا يتهم الأئمة الذين أوَّلوا؛ تنزيهًا من وجهة نظرهم للرب تعالى من التشبيه!

- وأما عقلانيته فهي جلية في اجتهاداته ونظراته في فهم القرآن، والتعامل مع السنة، ومسائل الفقه الجديدة؛ خصوصًا فقه المرأة!
- وأما تحرره العقلي فقد كان أجرأ من أن يقبل مسألة لا توافق رؤيته، ويظنها مخالفة للنقل الصحيح، أو العقل الصريح، أيًّا كان من تنسب إليه؛ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم!

يقول أ. أحمد الجبلي عن السلفية المعاصرة في فكر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله (بتصرف): يعد الشيخ محمد الغزالي رحمه الله مدرسة من أعظم مدارس القرن العشرين في الفقه الإسلامي المعاصر، والاجتهاد العقلاني المتميز! مدرسة تركت أثرها في عقل كل مفكر وعالم، ومسلم واعٍ بالواقع واعٍ بالتنزيل! مدرسة تتقاطع مع التقليد، والبلادة، والقراءات السطحية الهجينة!

لقد امتاز الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بفكره الحاد، ورأيه السديد، وجرأته النادرة في الحق، وغيرته على ما يعيشه المسلمون من هزال وضعف وانحطاط وسوء فهم! وغالبًا ما نجده رحمه الله إبان حياته إما صارخًا محاضرًا، أو كاتبًا معبئًا، ومؤطرًا وموجهًا، وداعيًا – في كل أحواله – للمسلمين حتى يعودوا لدينهم بالفهم الصحيح، مع نبذ العنف والتعصب والغباء والاستغباء.

لقد ألف أكثر من 100 كتاب تكاد كلها تنحو منحى التنوير والتحرير: تنوير العقول؛ لتعقل، وتتدبر، وتعي الفهم الصحيح للدين، وتحريرها مما علق بها من سطحية وعدم تدبر وفهم سليم وتمييز للغث من السمين!

وهو يعتمد على منهج إرجاع جميع الأمور التي تثار في الواقع العربي الإسلامي إلى كتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد عبر فيه بأن السلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعات جزيرة العرب، وتحيا على نحو اجتماعي معين، بل إن السلفية، في مفهومه رحمه الله، هي نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون،

(القرون الهجرية الثلاثة الأولى) وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية، لإعلاء كلمة الله، دون نظر إلى عرق أو لون، وفهمها للإسلام وعملها له، يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده، وتجاوبه مع الفطرة، وقيامه على العفة.

وأنكر أن تختصر السلفية في فقه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وحده، ويعلل بأن هذا الفهم خطأ؛ لأن فقه أحمد ليس إلا خطًّا واحدًا من الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية، التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم؛ مهما كثروا! كما أنكر عليهم كونهم يعتقدون بأن السلفية هي مدرسة النص، وهذا خطأ، يقول: فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر؛ في أخذها من الإسلام، واعتمادها عليه.

وأنكر على الذين يتبعون الأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ، من كل رأي قيل؛ فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم، وينغص معايشهم، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا، ويأوي بهم إلى كهوفها المظلمة! وهؤلاء أناس في انتسابهم إلى علوم الدين نظر، وأغلبهم معتل الضمير والتفكير.

ويذهب في كتابه: (مائة سؤال حول الإسلام) كيف القتال الغبي في سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة، أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة؟ ويقول: إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة.

ونفس المنحى ينحاه رحمه الله في كتابه الدعوة تستقبل قرنها الخامس عشر؛ إذ يتحدث عن سلفيي هذا العصر، فيعبر بأنه لا يلوم المستشرقين ولا المبشرين حول ما اختلقوه من إفك حول الإسلام، وإنما اللوم كل اللوم يقع على من لبس عمائم العلماء، وهو سوقي يؤصل لاستباحة الدماء، والتكفير، والرمي بالشرك في كل وقت وحين)!

وقد أطلق الشيخ ألفاظًا (غزالية) خارقة حارقة، مثل: التدين المغشوش، والمنحرف، والفقه البدوي، والتائهين، ومختلي المزاج، وأصحاب الآفات النفسية، وأولاد الأفاعي!

ومع هذا لم ينكر أنهم يصدرون عن نيات حسنة، فقال: (ومن هؤلاء المتطرفين ناس لهم نيات

صالحة، ورغبة حقه في مرضاة الله، وعيبهم – إن خلوا من العلل والعقد – ضحالةُ المعرفة، وقصور الفقه! ولو اتسعت مداركهم لاستفاد الإسلام من حماسهم وتفانيهم)!

- (وقد تتستر العلة النفسية وراء الحماسة للقيم، والغيرة على الحق، وأوضح مثلًا لذلك: الرجل الذي علق على تقسيم رسول الله صلى الله عليه و سلم للغنائم فقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله!

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يتألف بعض الناس بشيء من حطام الدنيا؛ لأن اليقين لم يتمكن من قلوبهم، وكان على الرجل الذي لم تعجبه القسمة أن يتساءل عن سرها! أما أن يسارع إلى اتهام أشرف الخلق، فهذا مرض باطن! وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن هذا الصنف يُطيل الصلاة والقراءة، ولكن عبادته لا تزكي سريرته، ولا تشفي علته)!

- (وعندما أبحث عن جراثيم الانحراف بين المتدينين أجد هذا اللون من "الفرعنة" وراء جملة من المسالك التي نشجبها، ونضيق بأهلها.

إن بعض الشاب المتدين مختل المزاج، فصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وهؤلاء الشبان ما خيروا بين أمرين إلا اختاروا أصعبهما! والإسلام يقدم الدليل ويؤخر العنف، فما يلجأ إليه إلا كارهًا، أما أولئك الشباب، فقد نظروا إلى الأسلوب الذي عوملوا به، واستبيحت به حرماتهم، فلم يروا أمامهم إلا السلاح)!

- (ويوجد بين المتدينين قوم أصحاب فقر مدقع في ثقافتهم الإسلامية، وإذا كان لهم زاد علمي فمن أوراق شاحبة، تجمع كناسة الفكر الإسلامي، والأقوال المرجوحة لفقهائه! وهم يؤثرون الحديث الضعيف على الصحيح، أو يفهمون الخبر الصحيح على غير وجهه، وإذا كانت المدارس الفكرية في تراثنا كثيرة، فهم مع ظاهر النص ضد مدرسة الرأي، وهم مع الشواذ ضد الأئمة الأربعة، وهم مع الجمود ضد التطور)!

- (والخلاف الفقهي لا يوهي بين المؤمنين أخوة، ولا يحدث وقيعة! وهؤلاء يجعلون من الحبة قبة، ومن الخلاف الفرعي أزمة! والخلاف إذا نشب يكون لأسباب علمية وجيهة، وهؤلاء تكمن وراء خلافاتهم علل تستحق الكشف)!

ويعلن – بوضوح – التمرد على ما أسماه التدين المغشوش، الذي يعيشه بعض المتشددين، فيقول: (وفي تجاربي ما يجعلني أشمئز من التدين المغشوش، وأصيح دائمًا أحذر من عقباه؛ فالمنحرفون يسترون – بركعات ينقرونها – فتوقًا هائلة في بنائهم الخلقي وصلاحيتهم النفسية، وهم لا يظنون بالناس إلا الشر، ويتربصون بهم العقبات! وهم يسمعون أن شُعب الإيمان سبعون شعبة، بيد أنهم لا يعرفون فيها رأسًا من ذنب، ولا فريضة من نافلة! والتطبيق الذي يعرفون هو وحده الذي يقرؤون! فالسواك سنة، ومن حقنا أن ننظف أسناننا بأي فرشاة وأي معجون، المهم نظافة الفم، وهؤلاء ينظرون إلى من لا يستعمل السواك نظرة مريبة! لماذا لا يجعله في عروته مع القلم؟ ولماذا لا يخرجه في المسجد،وينظف فمه في الصف ثم يعيده بما فيه في جيبه؟ هذا هو الدين عندهم)!

- (وفقه دورة المياه الذي يُدرَّسُ للناس كافة وكأنهم يعيشون في صحراء الجزيرة! إن تغييرًا واسعًا طرأ على المجتمع البشري ينبغي أن يلاحظ عند درس الأحكام الفقهية، لا في النظافة وحدها بل في معاملات شتى! كنا نحس ذلك ونحن طلاب في تلك المرحلة، مرحلة الشباب المتطلع الناشط الدؤوب)!

- ليس سلفيًّا من يجهل دعائم الإصلاح الخلقي والاجتماعي والسياسي، كما جاء بها الإسلام، وأعلى رايتها السلف، ثم يجري هنا وهناك مذكيًا الخلاف في قضايا تجاوزها العصر الحاضر، ورأى الخوض فيها مضيعة للوقت).

(والصغار دائمًا يهتمون بالصغائر، فإذا رأيت من يهتم اهتمامًا هائلًا بقبض اليدين في الصلاة – أهو فوق السرة أم أعلى الصدر – ويستثير ذلك أعصابه؛ أكثر مما يستثيره قتل عشرة آلاف

مسلم في تشاد! فاعلم أنك أمام مسخ من الخلق؛ لا يؤمن على دين الله، ولا دنيا الناس! وهذا النفر من المتدينين عبء على الأرض والسماء. والأمة التي تسلم زمامها إلى هذا الإنسان المخبول إنما تسلمه لجزار، ودين الله أشرف من أن يتحدث فيه هؤلاء الحمقى)!

- (وإذا كان القتال الغبي لا مساغ له من أجل العقيدة فكيف إذا كان في سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة، أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة!؟ إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة)!
- ومن الذي يزعم ان ابن حنبل هو ممثل السلفية في ذلكم الميدان، وأن أبا حنيفة ومالكًا والشافعي، جاروا على الطريق، وأمسوا من الخلف لا من السلف؟

إن هذا تفكير صبياني، وبعض من سموا بالحنابلة الذين حكى تاريخ بغداد أنهم كانوا يطاردون الشافعية لحرصهم على القنوت في صلاة الفجر هم فريق من الهمل، لا وزن لهم! وأنا موقن بأن الإمام أحمد نفسه لو رآهم لأنكر عليهم وذم عملهم)!

- الواقع أن الأمراض النفسية عند هؤلاء المتعصبين للفرعيات تسيطر على مسالكهم وهم – باسم الدين – ينفسون عن دنايا خفية! وعندما يشتغل بالفتوى جزار فلن تراه – أبدًا – إلا باحثًا عن ضحية)!
- (وقريب من ذلك ما أقصه على ضيق وتردد! إن البعض ينكر المجاز، أو يستهجن القول به ويغمز إيمان الجانحين إليه!

سألني سائل: تذكر حديث الإبراد بصلاة الظهر؛ لأن شدة الحر من فيح جهنم؟

قلت: نعم! قال: جاء في الكلام عن فيح جهنم أن النار اشتكت إلى الله، قائلة: أكل بعضي بعضًا؛ فأذن لها بنفسين في الصيف والشتاء، فأشد ما تجدون من الحر في الصيف، فهو من أنفاس جهنم، وأشد ما تجدون من برد في الشتاء، فهو من زمهرير النار!

قلت: ذلك تقريبًا معنى حديث صحيح! قال: أو تؤمن به؟ قلت: لا أدري ماذا تريد؟ الإبراد بالظهر مطلوب تجنبًا لوقدة الحر، ولا غضاضة في ذلك، يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر!

قال: أسألك عن المعنى المذكور في الحديث؟ أتؤمن بأن جهنم شكت بالفعل، وأن الله استمع إليها، ونفس عنها؟

قلت في برود: كون النار تكلمت بلسان فصيح، وطلبت ما طلبت: فهم لبعض الناس، ولهم أن يقفوا عند الظاهر الذي لا يتصورون غيره، وهناك رأي آخر أنا أميل إليه، وهو أن هذا أسلوب في تصوير المعاني يعتمد على المجاز والاستعارة!

وهنا تنمر السائل وبدأ في التشنج، وقال: أكثير على قدرة الله أن تتكلم النار؟ أما يقدر ربنا أن تتكلم الحجارة؟

وأجبته ببرود أكثر: ما دخل القدرة الإلهية هنا؟ إن العلماء يفهمون النصوص على ضوء اللغة العربية، وما نقل إلينا من تراكيبها! وقدرة الله فوق الظن والتهم! إن العرب الأقدمين أجروا على السنة الجماد والحيوان كلامًا نعلم نحن أنه ليس على ظاهره، وقد ذكرت في مكان آخر المثل العربي: قال الجدار للوتد: لم تشقُّني، قال: سل من يدقني! وجاء مثل آخر على لسان الثور المخدوع: أكلت يوم أكل الثور الأبيض! والجدار ما تكلم، والثور ما نطق!

ثم قلت يائسًا: ومع ذلك فاذا كنت ترى أن الجدار نطق والثور تكلم فلك مذهبك، ولا دخل للسلف أو الخلف في الموضوع كله!

وعاد الشاب يقول: هل في القرآن مجاز؟

وكتمت الغيظ الذي يغلي في دمي، وقلت: ما لاكه بعض العلماء في القرون الوسطى، ثم انتهوا منه، وانتهى أهله، تريدون اليوم إحياءه، وشغل الناس به؟ مرة حديث الفوقية، ومرة حديث

المجاز؟ حدثني عن هذه الآيات: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا؛ فهي إلى الأذقان فهم مقمحمون* وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدًّا) يس: 9، 8! ترى هذه السدود هي السد العالي، أو سد الفرات؟ وهل الأغلال هنا هي القيود التي توضع في أيدي المعاندين، أم هناك مجاز في القرآن الكريم؟ واستأنفت الكلام، وأنا أتجه إلى الضحك!

لما سار المتنبي بشعب بوان، وراقه الهواء والظل، وتسلل الأشعة بين الأوراق والغصون تصنع دوائر شتى على ثيابه، قال:

وألقى الشرق منها في ثيابي*** *** دنانيرًا تفر من البنان

ثم قال في مجون لا يسوغ:

يقول بشعب بوان حصاني	أعن هذا يسار إلى الطعان؟!
أبوكم آدم سن المعاصي	وعلمكم مفارقة الجنان

هل وقف حصان المتنبي وسط الحديقة الغناء، وألقى هذه الخطبة العصماء؟ أم أن المتنبي أنطق دابته بهذا الشعر؟ أظن الحكم على مذهبك أن الحصان هو الذي فسق بهذا الكلام ضد الأنبياء، ويجب ذبحه!

إن هذا الشاب وأمثاله معذرون، والوزر يقع على من يوجههم، لأنه لا يفقه أزمات الحياة المعاصرة، ولا يرتفع إلى مستوى الأحداث، ولا يحس آلام أمته، ولا يخطر بباله ما يبيت للأمة الإسلامية ودينها العظيم من مؤمرات.

إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرق، وترحم المخطئ، ولا تتربص به المهالك، وتقصد إلى الموضوع ولا تتهارش على الشكل)!

كما أن أولئكم الشباب لم يقصروا في حقه، بل كادوا له، وعنفوا معه، وكتبوا فيه الكثير!

يقول شيخي القرضاوي: بعضهم قابلني يومًا، وقال لي: ما رأيك في الغزالي!؟

قلت: الغزالي حجة الإسلام، وهو الذي وقف ضد الفلاسفة وضد الباطنية!

قال: لا أسألك عن هذا الغزالي القديم؛ إنما أسألك عن الغزالي الجديد!

قلت: هذا عالِمٌ من كبار علماء الإسلام، ومن كبار الدعاة الذين وقفوا حياتهم، ونذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام، والوقوف في وجه أعدائه، وفي وجه التيارات الهدَّامة والمضلِّلة!

قال: ولكنا نفتي بكفره! قلت: بكفره؟!

قال: نعم بكفره وردِته! لماذا؟ قال: لأنه رد بعض الأحاديث في البخاري!

قلت: وبرد حديث في البخاري أو حديثين يخرج الرجل من المِلّة؛ لو كان الأمر كذلك لحكمنا بالردة على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ لأنها ردت بعض الأحاديث على الصحابة الذين سمعوها من النبي صلى الله عليه وسلم! ولكنها – بحكم ثقافتها – قالت: لا ليس هذا صحيحًا، هذا مناقض للآية الكريمة كذا وللآية كذا!

الإنسان يكفر لو رد السنة كلها، وقال: لا نأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، السنة ليست مصدرًا للتشريع ولا للتوجيه! أما أن يملأ الرجل كتبه بالأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكتب فقه السيرة وعينه تترقرق دمعًا، وهو في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة! أما الرجل الذي عاش مدافعًا عن السنة في كتبه وعن القرآن كيف نحكم عليه بالكفر!؟

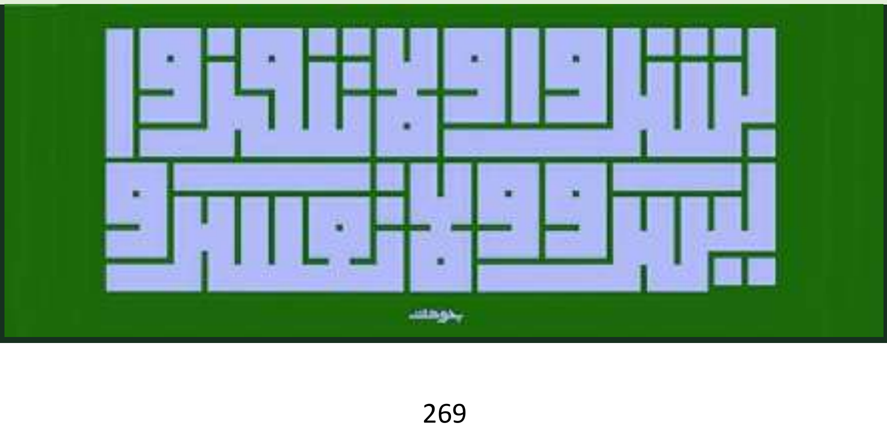

معركته مع العلمانية الجاحدة

يحسن هنا أن أبدأ بوقفة من العلمانية والفكر العلماني بشكل عام، ثم أجلي معركته مع فرج فوده لأهميتها وأثرها:

يقول الشيخ في (كفاح دين) كاشفًا أقنعة الغرب، الذي يتقنع حينًا بالعلمانية، وحينًا بالاشتراكية، وحينًا بالحرية والديمقراطية، وأقنعة أخرى كثيرة، تخفي كلها نوايا مُنصِّر حثيث، ولص خبيث، وقاتل مستأصل، وسفاح مجتاح:

(كنا نفكر أن سيطرة الغربيين على بلادنا كانت مجرد غلب القوي على الضعيف، حتى صحونا من منامنا، أو استفقنا من بلاهتنا، فوجدنا الأوروبين الغزاة يطوون أفئدتهم على جميع المشاعر التي حركت أسلافهم الأقدمين، حين حاربوا باسم «الصليب» زهاء قرنين من الزمان.

إنهم هم هم، بغضاؤهم للإسلام لم تنقص، بل ظلت في نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضرامًا: كل ما أفادوه من تقدم علمي في إبان غفوتنا الأخيرة، أنهم غيروا الوسائل، وأضافوا إليها مقدارًا أكبر من الختل والخبث، وطوروا السلاح، ليجعلوه أشد فتكًا، وأوسع هلكًا، حشدوا كل ما لديهم ليجهزوا على الكتاب والسنة، أي على رسالة محمد عدوهم الألد! ثم ليمزقوا أمته شر ممزق، فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر في طلب النجاة دون جدوى)!

وعن قتاله الضاري للعلمنة، والتغريب، والحرب على الإسلام؛ تحت أقنعة الفكر والثقافة والأدب، يقول شيخي القرضاوي متع الله به:

ولعل أبرز المعارك التي خاضها الشيخ، وأطولها نَفَسًا، وأشرسها هجومًا، هي معركته مع «العلمانية» اللادينية، التي تعارض حاكمية الله لخلقه، وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل، وتَعُدّهم دعاة الرجعية وأعداء التطور.

وقف بقوة وحرارة في وجه العلمانيين الأصلاء في العلمانية، المبغضين علانية لشريعة الإسلام، المجاهرين بتحقير حكم الله ورسوله، الداعين إلى تغريب المجتمعات الإسلامية.

وكانت معارك الشيخ مع هؤلاء تتسم بشيء من الشدة والحدة بقدر نفور هؤلاء من الإسلام، وتنفيرهم منه، ومعاداتهم للدعاة إليه. وكلما أوغل هؤلاء في عداوة الدين والشريعة كان قلم الشيخ كأنما هو شعلة من نار، نار تكوي وتحرق، ولا يخبو لها لهيب، كما نرى ذلك واضحًا في تعقب الشيخ لسقطات محمد سعيد العشماوي، ونصر أبو زيد، وفرج فودة، الذين أظهرت كتاباتهم مبلغ كراهيتهم لدعوة الإسلام، وتحكيم شريعته.

والشيخ يقول عن هذا النوع من العلمانيين: لماذا لا نسمي هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقي لهؤلاء: المرتدون. فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، ولم يعد في قلوبهم توقير لله تعالى، ولا تعظيم لكتابه، ولا احترام لرسوله، ولا انقياد لشريعته.

ويعجب الشيخ من موقف هؤلاء المرتدين في حقيقة أمرهم، لماذا يحرصون على أن يحتفظوا باسم الإسلام، وأن يظلوا محسوبين على المسلمين، والإسلام منهم براء، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول المثقب العبدي:

فإما أن تكون أخي بصدق	فأعرف منك غثِّي من سَمِيني

وإلا فاطَّرِحْني.. واتخذني	عدوًّا أتقيك.. وتَتَّقيني

كان هؤلاء العلمانيون يظهرون في أثواب متباينة الأشكال: فقد يلبسون لبوس اليسار الثوري، وقد يلبسون لبوس اليمين الليبرالي، وقد يتحلون بعباءة القومية العربية، وقد يبدون في أثواب أخر، ولكنهم جميعًا شركاء في الجرأة على الله تباركت أسماؤه، وفي التعالُم عليه جل علاه، والاستدراك على شرعه! فهم يزعمون أنهم أعلم من الله بخلقه، وأبر منه بعباده، وأنه تعالى حين شرع لهم ما شرع لم يكن يدري ما يحدث لهم من تطورات، وما يجري عليهم من أحداث، فهم لذلك يرفضون حكمه وحكم رسوله، ولا يرتضون مرجعية الإسلام فيما شجر بينهم!

إنهم ورثة مسيلمة الكذاب، الذي زعم أنه نبي يوحى إليه، ولم يوح إليه شيء، وظن المغفل أنه يدرك المجد بهذا الدجل المكشوف، فلم يدرك إلا القاع، وبقي اسمه إلى الأبد رمزًا للكذب.

وتتابع الكذابون في عصور مضت، فإذا أناس لا أثر لهم في ميادين الفلسفة، ولا أثر لهم في مجالات العلم، ولا ثقة بعقولهم في شيء طائل يقتحمون ميدان الدين، ثم يزعم هذا أنه نبي بعد محمد! ويزعم أن الله قد حلّ فيه، وأنه مجلي لبهائه!

وظاهر أن الاستعمار العالمي أراد الكيد للإسلام، والنيل من تعاليمه، فاستغل هذه «المانيخوليا» عند أصحابها، وروج لها، وعدّ أصحابها مؤسسي أديان، ومحدثين عن الله، وساندهم بدهاء وإلحاح، فكان له ما أراد أو بعض ما أراد.

وعندما شرع المسلمون يفيقون من غفوتهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويدمغون الكهان الجدد، لاحقهم الاستعمار بنفر آخرين، هم امتداد للنبوات الكاذبة في العصور السابقة، بفرض هؤلاء أنفسهم على الإسلام، بغية الإجهاز عليه من داخله، ولا شيء لديهم من علم أو فلسفة إلا ما ورثوه عن مسيلمة وغلام أحمد وبهاء الله، مزيج من «المانيخوليا» والجراءة والكهانة والادعاء.

هذا دجال ظهر في السودان يأخذ القرآن المكي ويرفض القرآن المدني(1)، ويوفر له الأمن سنين عددًا! وهذا دجال ظهر في مصر يقبل الكتاب ولا يقبل السنة (2).

وكلا الشخصين لا يعتمد في مزاعمه على إسناد علمي، ولا ينجح في مقارعة حجة بحجة. ماذا تقول لمسيلمة أو لسجاح أو لطواغيت القاديانية والبهائية، أو لطلائع الغزو الثقافي الذين يقسمون الوحي قسمين، فيمسكون قسمًا، ويطرحون قسمًا؟

هناك منطق عقلي أو تجريبي يحكم المقولات الفلسفية والقضايا المادية، أما هؤلاء فمنزع آخر تسيِّره أمراض نفسية، واضطرابات ذهنية، ونوع من الجنون المقدس، أو عبادة الذات، وعلى الدهماء أن تسمع وتطيع!

وتعاليم الإسلام في هذه الأيام تهب عليها رياح صفراء من مصادر جديدة بالتفرُّس والحذر! وغايتها لا تخفى علينا: إنها الإطاحة برسالة محمد كلها؛ تحت عناوين مفتعلة: الاعتماد على القرآن وإطراح السنة! الاعتماد على القرآن المكي وترك القرآن المدني! تعطيل نصوص قائمة؛ قد تكون عبادية كشريعة الصيام، فيقال: الصيام يضرّ الإنتاج؛ فلنلغ رمضان! وقد تكون معاملات اجتماعية كأنواع الحدود والقصاص، فيقال: إقامة هذه العقوبات تكثر العاهات وتشيع البطالة؛ فلنتجاوزها إلى ما هو أعدل منها، وأرعى للصحة العامة!

يقول شيخي القرضاوي: كما هاجم الشيخ رحمه الله سلامة موسى، ولويس عوض، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وجورج حبش، وغيرهم من النصارى. وهاجم لطفي السيد، وساطع الحصري، وطه حسين، ونزار قباني، وعبد الرحمن الشرقاوي، وصلاح جاهين، وحسين أمين، وغيرهم من المسلمين، سواء منهم من تسربل برداء القومية أو الاشتراكية أو التحررية، أو أي رداء كان.

---

(1) يقصد: محمود محمد طه، الذي قضت المحكمة العليا في السودان بردته وبالدعوة إليها.

(2) يريد: حسين أحمد أمين، الذي كتب في مجلة «المصور» مقالات هاجم فيها الشريعة والسنة وفقهاء الأمة، والسلف الصالح وعمر بن عبد العزيز، ودافع عن طغيان الحجاج.

يقول الشيخ في كتابه «علل وأدوية» عن طه حسين: قرأت للدكتور طه حسين، واستمعت له، ودار بيني وبينه حوار قصير مرة أو مرتين، فصد عني، وصددت عنه!

أسلوب الرجل منساب رائق! وأداؤه جيد معجب، وهو بين أقرانه قد يدانيهم أو يساويهم، ويستحيل أن يتقدم عليهم! بل عندما أوازن بينه وبين العقاد من الناحية العلمية أجد العقاد أعمق فكرًا، وأغزر مادة، وأقوم قيلًا. وأكاد أقول: إن الموازنة المجردة تخدش قدر العقاد!

وأسلوب زكي مبارك أرشق عبارة وأنصع بيانًا من أسلوب الدكتور طه حسين، ولولا أن الرجل قتله الإدمان لكان له شأن أفضل.

ودون غمط لمكانة الدكتور الأدبية نقول: إنه واحد من الأدباء المشهورين في القرن الماضي، له وعليه... وحسبه هذا! بيد أنني لاحظت أن هناك إصرارًا على جعل الرجل عميد الأدب العربي، وإمام الفكر الجديد، وأنه زعيم النهضة الأدبية الحديثة.

ولم أبذل جهدًا مذكورًا لأدرك السبب! إن السبب لا يعود إلى الوزن الفني أو التقدير الشخصي! السبب يعود إلى دعم المبادئ التي حملها الرجل، وكلف بخدمتها طول عمره. إنه مات، بيد أن ما قاله يجب أن يبقى، وأن يدرس، وأن يكون معيار التقديم.

تدبر هذه العبارة للدكتور «العميد»:

«إن الدين الإسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي، لا كدين إلهي نزل يبين

الشرائع للبشر؛ فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية! أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين». ويمكن الرجوع لمثل كتابه: مستقبل الثقافة في مصر؛ لتجد أشباهًا لهذه العبارات السامة.

ويشاء القدر أن تقع عيني على هذه العبارة: وقد قررت «إسرائيل» وقف الطيران في «شركة العال» يوم السبت احترامًا لتعاليم اليهودية! إن الإسلام وحده هو الذي يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما الأديان الأخرى فلتقم باسمها دول، ولترسم على هداها سياسات. وظاهر أن الدكتور طه حسين كان ترجمانًا أمينًا لأهداف لم تعد خافية على أحد، عندما طالب بإقصاء الإسلام وأخلاقه وأحكامه، وعدم قبوله أساسًا تنطلق الأمة منه، وتحيا وفق شرائعه وشعائره.

قائل هذا الكلام يجب أن يكون عميد الأدب العربي في حياته وبعد مماته، وأن تشتغل الصحافة والمسارح بحديث طويل عن عبقريته، ليكون علمًا في رأسه نار، كما قال العرب قديمًا.

أما العقاد، وإسلامياته الكثيرة، فيجب دفنه، ودفنها معه. ومع أن الرجل حارب الشيوعية والنازية، وسائر النظم المستبدة، وساند «الديمقراطية» مساندة مخلصة جبارة، فإن العالم «الحر» ينبغي أن يهيل على ذكراه التراب، ليكون عبرة لكل من يتحدث في الإسلام، ولو بالقلم! فكيف إذا كان حديثًا بالفكر والشعور، والدعوة والسلوك، والمخاصمة والكفاح؟! هذا هو الخصم الجدير بالفناء والازدراء.

والقوى التي تعمل دائبة على تخليد ذكري الدكتور طه حسين، وتجديد فكره، وإعلاء شأنه معروفة لدينا، ونريد أن نكشف عنها؛ إذ لا معنى لبقائها في جحورها تلدغ ثم تستخفي، وتنال منا باسم حرية العلم، وهي لا تعرف من الحرية إلا لونًا وحيدًا: كيف تضرب الإسلام، وتطفئ جذوته، وتميت صحوته؟ ذلك، إلى أن الريح تعصف اليوم ضدنا أكثر مما كانت تعصف يوم ألّفَ الدكتور

طه ضد ديننا وتراثنا. لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح حاضرنا ومستقبلنا، وهي تربي النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية، وتَعُدّ المدرسة ثكنة عسكرية، والثكنة معبدًا دينيًّا، والتوراة دينًا ودولة» (*).

* «علل وأدوية» (ص:**62**، **63**)/ القرضاوي: الغزالي كما عرفته.

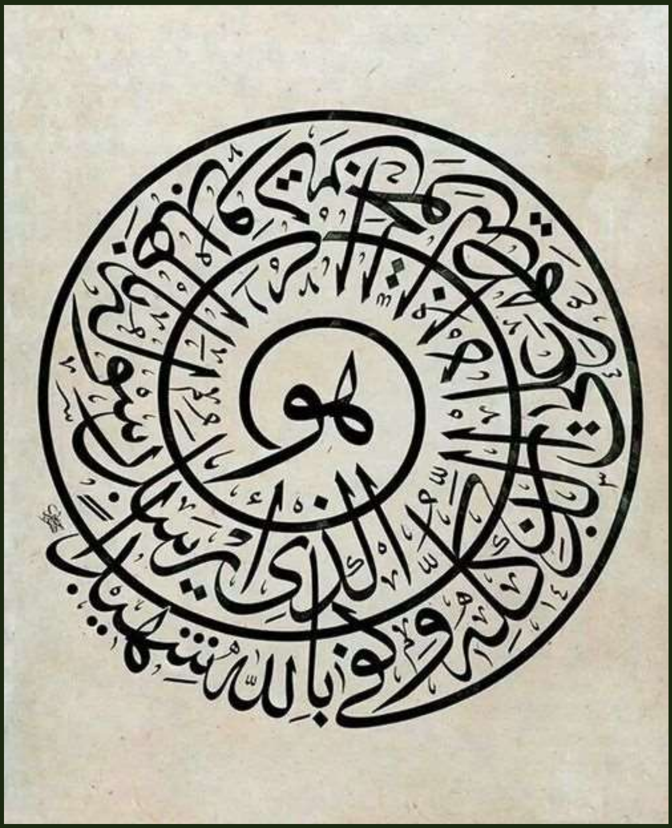

معاركه مع العلمانيين واليساريين:

معركته مع صلاح جاهين:

قد يخفى على كثيرين أن عبد الناصر أقام ترسانة هائلة، عديدة الطبقات، من الأبواق التي تسبح بحمده، وتشيد بذكره، وتجعله في أنظار المصريين والعرب الزعيم الملهم، القادر على كل شيء، بل جعلوه الزعيم النبي كما وصفه نزار: (قتلناك يا آخر الأنبياء/ قتلناك/ ليس جديدًا علينا اغتيال الصحابة والأولياء/ فكم من رسول قتلنا/ وكم من إمام ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء/ فتاريخنا كله محنة/ وأيامنا كلها كربلاء)!

وقد سخر عبد الناصر كل ما يستطيع لأداء هذه المهمة:

- ✓ المغنين الكبار: أم كلثوم، والأطرش، وشادية، وشريفة فاضل، وعبد الحليم، وعبد الوهاب، وفايدة كامل، وفايزة أحمد، ومحمد رشدي، ونجاة الصغيرة، ورتلًا طويلًا غيرهم!

(وقد غنى عبد الحليم وحده أكثر من 66 أغنية وطنية تعاون فيها مع أشهر الملحنين والكتاب، وأصبح مطرب (عبد الناصر) دون منازع، وتغنى باسمه: «ناصر يا حرية/ أبو خالد نوارة بلدي/ ريسنا ملاح ومعدينا عامل وفلاح من أهالينا/ ضربة كانت من معلم خلت الاستعمار يسلم/ مطالب الشعب/ صورة) وغيرها! التحرير/ حكايات 7 فنانين مع ثورة يوليو!

- ✓ والشعراء أحمد عبد المعطي حجازي، وصالح جودت، وصلاح عبد الصبور، وطاهر أبو فاشا، وعبد الرحمن شمس الدين، وعبد الفتاح مصطفى، ونجيب سرور، ورتلًا طويلًا غيرهم!

- ✓ والزجالين: أحمد فؤاد نجم، وصلاح جاهين، وفؤاد حداد، وعبد الرحمن الأبنودي، ورتلًا طويلًا غيرهم!
- ✓ والكتاب: توفيق الحكيم، ورشاد رشدي وعبد الرحمن الخميسي، ومحمود أمين العالم، ومحمود السعدني، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، ورتلًا طويلًا غيرهم!
- ✓ ورسامي الكاريكاتير بهجت عثمان، وجمعة فرحات، ورخا، وصاروخان، وصلاح جاهين، ومحمد حاكم، ومصطفى حسين، ورتلًا طويلًا غيرهم!
- ✓ وصحفًا ومجلات مثل الأخبار والأهرام والجمهورية، مجلات كآخر ساعة، والجيل وحواء وروز اليوسف وصباح الخير والكواكب والمصور!
- ✓ وصحفيين كإحسان عبد القدوس، وأحمد أبو الفتح، وأحمد بهاء الدين، وأحمد حمروش، وأنيس منصور، وجلال الدين الحمامصي، وعلي ومصطفى أمين، وفاروق العشري، وكمال الملاخ، وموسى صبري، ومحمود أمين العالم، ومكرم محمد أحمد، وهيكل، ورتلًا طويلًا غيرهم!
- ✓ ووظف السينما – خصوصًا الممثلات والراقصات والمخرجين – أحمد مظهر، واعتماد خورشيد، وبرلنتي، وسعاد حسني، وسمير الإسكندراني، وشريفة ماهر، وشكري سرحان، وصلاح ذو الفقار، وصلاح أبو سيف، ونجاة، ويوسف شاهين، ورتلًا طويلًا غيرهم!
- ✓ و(خصى) عبد الناصر الأزهر، ليعجزه عن المعاضة ويستصدر منه الدعم، (فلم تصدر من داخله أي مواقف أو تصريحات تعارض النظام الحاكم، لا من قريب ولا بعيد، بل بالعكس وقف إلى جانب جمال عبد الناصر في كل مواقفه، ومن ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – الفتوى التي أصدرها شيخ الأزهر يساند بها جمال عبدالناصر في صراعه مع محمد نجيب (الأهرام 17 فبراير 1954م)، والتأييد الذي قدمه الأزهر لنظام حكم جمال عبد الناصر؛ فيما يتعلق باتفاقية الجلاء (الأهرام 26 فبراير 1954م)، وكذلك المساندة التي قدمها الأزهر لنظام حكم جمال عبد الناصر إثر الأزمة مع إسرائيل التي سبقت هزيمة يونيو1967م بإعلان تأييده لجمال عبد الناصر

ومباركته لخطواته في صد عدوان الصهيونية والاستعمار (الأهرام 25 مايو 1967م).

وقد استمر الأزهر على هذا النهج مع خلفاء جمال عبد الناصر الرئيس السابق أنور السادات، وحسني مبارك (والسيسي) وقد أدى ذلك كله لإضعاف مكانة الأزهر في نفوس المسلمين وبالتالي تدهور دوره ومكانته كمرجعية عليا للدعوة الإسلامية والإفتاء لكل المسلمين، وبدأ الكثير من المسلمين يضعون ثقتهم في العديد من الناشطين الذين ينتمون للحركات الإسلامية). (خريطة الحركات الإسلامية في مصر http: //anhri.net/reports/islamic-map/map/03.shtml)

✓ كما وظف الطرق الصوفية فأيدوه بوضوح (في القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية والخارجية من البداية؛ فوقفت مشيخة الطرق الصوفية مع عبد الناصر في صراعه ضد الإخوان، وأصدر شيخ مشايخ الطرق الصوفية محمد علوان بيانًا في مولد الرفاعي عام 1965م. أبرز فيه هذا الموقف؛ كما أصدر المجلس الأعلى للطرق الصوفية بيانًا استنكر فيه ما أسماه المؤامرات الرجعية التي يدبرها الملك فيصل، وشاه إيران، والملك حسين، ورئيس تونس الحبيب بورقيبة (الأهرام 12ابريل 1967م)؛ وكذلك أصدر شيخ مشايخ الطرق الصوفية بيانًا يبرر فيه ويؤيد قرارات عبد الناصر بسحب قوات الطوارئ الدولية من سيناء في مايو 1967م (الأهرام 27مايو 1967م)؛ وفي ديسمبر 1967م سار أكبر موكب صوفي رسمي في مصر تأييدًا لعبد الناصر في أعقاب هزيمة يونيو). (عبد المنعم منيب/ عبد الناصر والإسلام (http: //iswy.co/e17ltv

وبلغ من جلَده في ذلك أن أحصت هدى عبد الناصر 1280 نشيدًا وأغنية كتبت في مدح أبيها والإشادة بها في ست عشرة سنة، هي سنوات حكمه (موقعها على الإنترنت).

ولا يزال منهج توظيف الإعلام في فرعنة الحاكم/ وقمع الشرفاء، وإرهاق الشعب (مع ترقيصه) سياسة متبعة، والناس لا يفطنون، ولا يتعظون!

ومن أشد الناصريين افتتانًا وترويجًا لعبد الناصر: صلاح جاهين، الذي استمات في الدفاع عنه، بكتاباته، وأزجاله، وكاريكاتيراته، وكرس نفسه للتسويق للعسر وزعيمهم، وقيل إنه صدم أواخر

حياته بعدما انكشفت له بعض الحقائق، فدخل في نوبة اكتئاب حتى توفاه الله تعالى!

المهم أن صلاح جاهين دخل في معركة مع الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى، استمرت خمسة وثلاثين يومًا، من أيام سنة ١٩٦٢م. قامت فيها الدنيا ولم تقعد على صفحات جريدة الأهرام الحكومية، التي انحازت لجاهين حتى تدخل كمال الدين حسين!

ولعل من اللطيف أن أورد قراءات مختلفة لهذه المعركة، ثم أورد ما قاله الشيخ عنها، وربما كانت وجهات النظر هذه –كلها – داخلة في سبب اشتعال المعركة:

*** القراءة الأولى كانت للشيخ العالم الودود اللطيف الفصيح عبد التواب هيكل، صديق الشيخ الغزالي، رحمهما الله تعالى، يقول فيها (بنصها): كان هو مدير مساجد وكنت أنا يومها مفتش مساجد، وكان هو يخطب في الأزهر، فتناول في خطبته حديثًا من أحاديث النبي الصحيحة وهو: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد! الخ الحديث.

فسخر صلاح جاهين من الشيخ، وكتب عنه كتابات فظيعة جدًّا، وقال: إن هذا المنبر يجب أن يختار له رجل فاضل، فأتيتم برجل قبيح الكلام، وأنا طول الليل ما نمت، وأنا أحط إيدي على قفاي، خايف إن العفاريت تكون على قفاي؛ يتهكم بحديث رسول الله! ورسم له كاريكاتير، فغضب الشيخ، وبعث الرد، فضاقت الصحف بأن تنشره!

وباعتباره مديرًا للمساجد عمد إلى طريقته الخاصة، فجمعنا، ونبه علينا أن ننبه على جميع الخطباء – في الجمهورية كلها – أن نتناول هذا الأمر! ونما إلى الرئيس هذه الخطبة فتحركوا لهذا، حتى بلغنا أنهم أرسلوا وفدًا، وخلوا صلاح جاهين يعتذر، وكان الشيخ يقول: أنا ما غضبت لشخصي؛ أنا غضبت لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتهكم عليه.

*** وثمة قراءة أخرى للواقعة ذكرها محمد طلبة: (صلاح جاهين والغزالي.. هكذا يختلف الكبار) هي أن الشيخ محمد الغزالي طالب الرئيس جمال عبد الناصر في عام 1962 بتحرير القانون المصري من أية تبعية أجنبية، كما طالب بضرورة المحافظة على احتشام المرأة، والمحافظة على طبيعتها الأنثوية، مؤكدًا أهمية ارتدائها الحجاب!

وفي اليوم التالي نشر الأهرام كاريكاتيرًا لصلاح جاهين، رسم فيه الشيخ الغزالي وهو يخطب في الجماهير ويقول: يجب أن نلغي من بلادنا كل القوانين الواردة من الخارج كالقانون المدني، وقانون الجاذبية الأرضية!

بعدها اشتعل الموقف وهاجم الغزالي جاهين، وأوضح أنه لم يهاجم القوانين العلمية الثابتة، وإنما يرفض أن يظل الشرق العربي محكومًا بالقانون الفرنسي!

وطالب الغزالي بأن تحترم الصحف السيارة نفسها، فما كان من الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام آنذاك إلا أن يقول إن الأهرام تقدس الدين وتحترمه، إلا أنها ترفض أن يتحول الخلاف بين جاهين والغزالي إلى خلاف ديني.

وعاد جاهين ليرسم كاريكاتيرًا آخر يظهر فيه مجموعة من المشردين، يسألون الغزالي: أين الكساء يا مُشرع الأزياء؟ لماذا لا تتكلم إلا عن ملابس النساء؟

فيرد الغزالي: ما باتكلمش عنكم يا جهلاء لأنكم ذكور، وما ظهر من جسمكم ليس عورة!

وفي عدد الجمعة من نفس الأسبوع نشر جاهين ستة رسوم كاريكاتيرية دفعة واحدة، ثم أتبعها بقصيدة، هاجم فيها الغزالي، قال فيها:

هنا يقول أبو زيد (الغزالي) سلامة

وعينيه ونضارته يطقّو شرار

أنا هازم الستات ملبسهم الطرح

أنا هادم السينما على الزوّار

أنا الشمس لو تطلع أقول إنها قمر

ولو حد عارض.. يبقى من الكفّار

ويا داهية دقي لما أقول ده فلان كفر

جزاؤه الوحيد الرجم بالأحجار

فأحسن لكم قولوا (آمين) بعد كلمتي

ولو قلت الجمبري ده خضار

يومها ألقى الشيخ الغزالي خطبة قوية، هاجم فيها صلاح جاهين؛ ودافع عن مكانة العالم، الأمر الذي دفع بالكثير من الحضور للتظاهر أمام مبنى الأهرام احتجاجًا على رسومات جاهين!

*** وجهة نظر ثالثة كتبتها الدستور في (2017/6/17) بتصرف واختصار – هكذا جعل جاهين الغزالي مكفرًا وإرهابيًّا، مخالفًا بذلك الصورة التي ظل الشيخ الغزالي – منذ ظهوره، وحتى وفاته – يرسمها لنفسه! وهى صورة الشيخ المتسامح الذي يصدر الإسلام الوسط للناس رحمة بهم!

وكان الغزالي يخطب الجمعة في الجامع الأزهر، فندد في خطبته بما فعله صلاح جاهين معه، ورفع رسوماته على المنبر، وكان أن خرج الناس من الجامع الأزهر في اتجاه جريدة الأهرام، هاتفين بحياة الشيخ الغزالي! وطالبوا بمعاقبة صلاح جاهين! ولم يكتفوا بذلك، بل ألقوا بالحجارة على مبنى الأهرام، رافضين بذلك ما يقوله جاهين عن الشيخ الغزالي، الذي كان مشاركًا في المظاهرة الحاشدة، حيث حمله المصلون على أعناقهم!

ولم تقف الأهرام مكتوفة الأيدي، وللمرة الثانية تنشر رأيها، ولم تقدر كلمتها باحترام الدين وتقديسه، فواصل صلاح جاهين رسوماته ضد الشيخ!

وفي رسمة جديدة وقف صلاح جاهين بنفسه هذه المرة أمام منصة القضاء، ووقف الشيخ الغزالي خلفه يضربه بخنجر في ظهره، وقد كتبت على نصله كلمة الإرهاب، وكان عنوان الرسمة: «الغزالي يتهمنى بالخروج عن الإسلام»!

أما التعليق فكان: (العبد لله)، ودلوقتي بعد ما الغزالي أبدى رأيه بطريقته الخاصة: نشرح له مرة أخرى أهداف الميثاق!

وأقلقت أصداء المعركة السلطة السياسية، التي كان لا بد لها أن تتدخل، فاتصل كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية بهيكل، رئيس تحرير الأهرام، لينهى المعركة التي طالت! وفي مكتبه بجريدة الأهرام جلس الشيخ الغزالي وصلاح جاهين لتقف بينهما الحرب المعلنة!

ورغم تقارب الطروح السابقة، فهي تعكس كيف يخرج الخبر من مصادر شتى مختلفًا، وفيها (تحابيش، وبهارات)! فماذا قال الشيخ نفسه – رحمه الله عن القضية:

في الحلقة 15 من مذكراته، بعنوان: في مؤتمر القوى الشعبية، قال الشيخ:

.....عرفت أن مؤتمرًا كبيرًا سوف ينعقد لمراجعة إقرار "الميثاق الوطني" الذي ستمضي البلاد على ضوئه في السنوات القادمة! وانعقد المؤتمر الكبير، وافتتحه الرئيس جمال عبد الناصر، وكان يعاونه السيد كمال الدين حسين، وينوب عنه في غيابه، وكان الأمين العام السيد أنور السادات.

وبعد الأعمال التمهيدية أخذ الأعضاء يسجلون أسماءهم، طالبين التحدث إلى الحضور؛ ليشرحوا وجهات نظرهم، وكنت من أوائل الذين طلبوا الكلمة، وقد حددت موضوعي بأناة، وقررت البعد عن التحدِّي والإسهاب!

قلت: أيها الإخوة: إن الشعار الذي رفعناه هو تحرير الوطن والمواطن؛ فهل يتحقق هذا الشعار إذا أخرجنا الإنجليز من أرضنا، وبقيت قوانينهم، وتقاليدهم، ولغتهم تحتلّ مجتمعنا وتسيّره؟ فيم كان الجهاد إذن؛ إذا كانت تبعيَّتُنا لهم ظاهرة، وولاؤنا لمخلَّفاتهم قائمًا؟

إن التحرير الحق هو أن نحيي تراثنا، ونقدِّم لغتنا وأدبنا، وننفِّذ شريعتنا، وننبذ هذه القوانين التي وضعها المستعمرون لنا، وسلخونا بها عن ديننا وتاريخنا!

ولننظر إلى مصلحتنا الاجتماعية، موازنين بين الربح والخسارة! آلاف من جرائم القتل تقع، والذين يعاقبون بالإعدام نفر قليل، ويحكم على الأكثرين بالسجن، ثم تمر الأعوام، ويخرج السجين القاتل، ويرى الإنسان قاتل أبيه أو أخيه في الطريق، فيقتله أخذًا بالثأر!

أيكفي في علاج هذه الحال تكليف بعض الوعاظ بمحاربة عادة الأخذ بالثأر؟ ما الذي يمنع من القصاص الذي كتبه الله لصيانة الحياة وتحقيق العدالة؟ فنرضي ربنا، ونحصِّن مجتمعنا!

وإني واحد من الذين يأبَون قطع جائع يسرق ليقوت نفسه أو أهله، والشريعة يستحيل أن تقطع هؤلاء البائسين؛ لكن إذا وجدنا من يسرق مثنى وثلاث ورباع ليعربد، وينفق عن سفهٍ ذات اليمين وذات الشمال، كيف نتركه؟ لماذا لا نحمي الكسب الحلال من عدوان أولئك المجرمين؟ إن يدًا واحدة تقطع ستقضي على العصابات التي احترفت اللصوصية!

ومضيت في شرح الحقائق الإسلامية الضائعة، مطالبًا بعودة المجتمع إليها! وبعد ربع ساعة تكلمت عن الملابس – في أقل من ثلاث دقائق – مطالبًا بتوحيد الزيِّ للرجال، وتوحيده كذلك للنساء خصوصًا الطالبات (!!! أستغرب هذا الرأي من الشيخ رحمه الله حقًّا)

ووضعتُ مواصفات سهلة: أن يكون رخيص السعر، وأن يكون من الإنتاج الوطني، وأن يلبسه الرئيس والوزراء، ويعد اللباس الرسمي في كل ديوان أو حفل!

وبالنسبة للنساء يكون ساترًا للجسم كله ما عدا الوجه والكفين، قلت: ولعل أقرب مثل له زيُّ الراهبات المسيحيَّات، أو الفلاحات المصريات!

وكنت في حديثي سهل العبارة، متوددًا إلى الجميع، وكنت قبل الحديث قد دعوت الله أن يلهمني الرشد، وأن يفتح لي القلوب!

ويظهر أن الله استجاب لي، فإن كلمتي – وإن عدّها البعض شرحًا ماكرًا لدعوة الإخوان المسلمين – بلغت أعماق النفوس، ولقيت ترحابًا واضحًا، وتصفيقًا شديدًا!

وكان بين أعضاء المؤتمر سبعون شيوعيًّا، أفزعهم هذا الجو الإسلامي، وزاد من ضيقهم أن جماعات ضخمة كانت تؤدي الصلوات في الأوقات، وتتحدث عن ضرورة التمسك بالإسلام.

وقد اتفقت كلمتهم على توجيه ضربة سيئة لي توقف نشاطي، فأوعزوا إلى الرسام الهزلي صلاح جاهين ألا يدع الكلمة التي ألقيتها تمرّ دون تعليق ساخر، يفقدها قيمتها! وظهرت صحيفة الأهرام في اليوم التالي، وقد صورتني عاري الرأس، ساقط العمامة على الأرض؛ لأن قوانين الجاذبية شدّتها، وفق التطور العلميّ!

ونظرت إلى الصورة وقد تملكني الغضب، فإن العمامة ليست لباسًا خاصًّا بي، وإنما هي رمز العلماء المسلمين! والرسام الشيوعي يريد الإيحاء بأن القوانين العلمية ستعصف بالإسلام! ورئيس تحرير الأهرام، فيما علمت، له دور في وضع الميثاق، وصلة الميثاق بالإسلام خافية أو حائلة!

قلت في نفسي: بدأ الهجوم! إنه بدأ في الأهرام، واستمر في الكلمات التي تتابعت بالردّ عليّ من شيوعيين آخرين داخل المؤتمر نفسه!

وطلبت التعقيب على ما وجّه إليّ من تساؤلات وتهم، وأُعطيتُ الكلمة، فقسمتها شطرين! الأول: هل لأعضاء المؤتمر حرية الكلام دون أن تهينهم الصحف أم لا؟ إن كان كل عضو هنا له

حق عرض رأيه، فهل هذا الحق مصون؟ أم أنه ما يكاد يتكلم حتى يناوشه النباح من هنا ومن هناك؟ إنني أترك لأعضاء المؤتمر أن يتخذوا قرارهم في هذا الموضوع المهم!

الثاني: لقد عرضت حقائق إسلامية كثيرة، عجز أعداء الإسلام عن مناقشتها، وأخذوا يوجهون سهامهم إلى قضية الملابس وحدها، وإلى ملابس النساء بالذات! فهل المطالبة بالاحتشام جريمة أو خروج عن القانون؟ ثم شرحت موقف الإسلام من المرأة، وبيّنت أخطار فصل قضية المرأة عن الدين، ثم حملت حملة شعواء على الإباحيين، وفاقدي الشعور الديني في بلادنا!

واقتربت مرة أخرى من نفوس الأعضاء الذين تضاعف حماسهم للإسلام، وظهر أن اتجاههم إلى تحكيمه قويّ!

ولا بد أن أقول هنا: إني وجدت تجاوبًا وترحابًا من السيد كمال الدين حسين، على حين كان غيره من المسؤولين يكاد يتميز من الغيظ!

لكني طالعت الصحف في اليوم التالي، فوجدت عدوى الضلال قد انتقلت إلى بقية الجرائد والمجلات، وأن الحملة عليّ اتسمت بالحدة والقسوة! وتحرك الشيوعيون داخل المؤتمر مرة أخرى، وسمعت هجاء كثيرًا، وتكلمت امرأة كانت وزيرة للشؤون الاجتماعية، فوصفتني بما أضحكني! ولم أتابعها؛ لأني وجدتُها تلغو بما لا يساوي سماعه (د. حكمت أبو زيد/ 1922-2011م)!

إن حدَّة عاطفتي تسيء إليّ كثيرًا، وقد حزنت لأني أصبحت مادة لكتاب تافهين، وتيقظت في دمي غرائز القتال، فشرعت أهاجم بضراوة، وأتحدث عن كبار وصغار باحتقار، وأرسل إليّ بعض المسؤولين يطلب مني التحفُّظ!

وشاء الله أن يشعر أعضاء المؤتمر بأنهم أهينوا في شخصي، فكتبوا طلبًا للرئيس عبد الناصر

أن أُعطي الكلمة مرة ثالثة لأُسكت هذا الضجيج!

حمل الطلب بعض الأعضاء من الصعيد، ومرّوا به بين الصفوف؛ ليأخذوا إمضاء أكبر عدد من الحضور، فإذا المئات يوافقون! وأحس الرئيس جمال عبد الناصر بالحركة، وكان متيقظًا لكل ما يحدث، وجاءه الطلب، ولم أعرف الرأي في قبوله!

وأخذ الأعضاء استراحة نحو نصف ساعة، ثم عادوا إلى مقاعدهم، وكنت يائسًا من أن أتكلم مرة ثالثة، فاخترت أن أجلس في مؤخرة الصفوف! وعندما التأم شمل الجلسة لاحظت أن الرئيس انصرف!

كنت أسترجع الماضي القريب! إنه من بضع سنين فقط كان رؤساء التحرير الذين سخروا صحفهم لشتمي من رجال القصر الملكي، وبغتة ركبوا عربة هذا الانقلاب المشؤوم، وزعموا أنفسهم طلائع الحرية!

وافتتح أنور السادات الجلسة، وقال: هناك طلب وقعه كثيرون بأن يعود الشيخ الغزالي إلى المنصة، فتعالى التصفيق، وغلبت صيحات الموافقة كل شيء! فقال السادات في هدوء: ليحضر العضو المحترم، وليتكلم!

كنت بعيدًا لأني في آخر صف، ولما دوّى التصفيق تذكرت كلمة لأبي يوسف الفقيه الحنفي: أيها الناس، أريدوا الله بعملكم، فوالله ما أردتُ غير الله بعمل إلا خُذلت، فطأطأتُ رأسي، وتذكرت ربي، وقلت: أجعلْتُ الوقفة له، فما أحب الخذلان، وإذا غرَّني هذا التصفيق المتتابع حَبط عملي، حتى لو نجحت في كلمتي، وأعجبت هؤلاء الأخوة، فلا قيمة لي بعد أن خسرت وجه الله!

وبدأت الحديث مع إخواني قائلًا: أهي جريمة لا تغتفر أن أقف إلى جانب الإسلام، وأن أشرح بعض تعاليمه؟ هل الحرية تكفل لكل من أراد نصرة مبدأ ما فإذا انتهي الأمر إلى الإسلام فلا حرية؟ أين كانت أصوات الشاغبين عليّ وأنا أحامي عن المستضعفين، أنشدُ لهم الكرامة، وعن الفقراء

أتطلّب لهم القوت؟

أين كان هؤلاء يوم ألّفت كتابي الإسلام والاستبداد السياسي، في ظل أزمات عصيبة أوقعها القصر بالشعب! إنني لم أسمع لواحد من هؤلاء الشجعان صوتًا، ولم أر لهم أثرًا! لقد اعتقلت عامًا في الطور، وهم يلهون ويلعبون!

ألأنا نتحدث عن الإسلام يستباح بهذا الأسلوب؟ يا عجبًا، إنه عندما كان الملك فاروق يبحث عن الشهوات كان أولئك المهاجمون لي من رجال الصحافة يشتغلون قوّادين للملك الماجن!

وانطلقت بعد ذلك أتناول موضوع النزاع، ولا أدري ما قلت بدقة! وإنما الذي أذكره أن الرئيس السادات حاول ثنْيَ زمامي، وتذكيري بأني تجاوزت الوقت، فرفضت السماع له، وشفيت مما نالني ونال المؤمنين معي!

وفي اليوم التالي، وكان يوم جمعة، نشرت الأهرام عشر صور هزلية في صفحة كانت فيما يبدو مخصصة للنيل مني، ولكني هذه المرة لم أكترث لهذا الهزل، ولم أعتبر نفسي مهزومًا!

وألقيتُ خطبة الجمعة في الأزهر مختارًا لها موضوعًا أبعد ما يكون عن قضية الساعة، وأحسست أن الزحام شديد جدًّا، وبعد الصلاة سكنت مكاني دقيقة واحدة، انفجر المسجد المكتظ بعدها بصياح اختلط فيه التكبير بالبكاء وبالهتاف، ورأيتني محمولًا فوق الرؤوس، لا أعرف ما أصنع!

وحاولت الإمساك بأي عمود يلقاني من أعمدة المسجد، وهيهات! فلما اقتربنا بعد لأي من الباب بذلت جهد اليأس في الإمساك به، وأعانني رجال الشرطة على النزول بالأرض، والاحتماء بإدارة الأزهر، وكان المصلون في المسجد يزيدون على عشرين ألفًا، انضم إليهم مثلهم من مسجد الحسين والمساجد القريبة، وانطلقت المظاهرة إلى جريدة الأهرام لتحرقها، وكلما قاربت هدفها تضاعف عددها، ولكن رجال الشرطة استدعوا نجدات كثيفة لحماية الجريدة، فدارَ الجمهور حول

نفسه في غضب رهيب، وقال كبير في الداخلية: لو كانت هذه المظاهرة منظمة أو مدبرة لأحرقت القاهرة!

عندما أقبل صباح الغد علمنا أن المظاهرات لم تكن مقصورة على القاهرة وحدها، بل إن بعض عواصم الأقاليم تحركت فيها الجماهير مناصرة للإسلام، وناقمة على النيل من علمائه!

ولذلك قرأنا ونحن نضحك ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل يوم السبت، من أن الشيخ الغزالي سيَّر لفيفًا من تلامذته لتهاجم الأهرام! إن الحشود التي سارت صوب الصحيفة المتجنّية، فوق المائة ألف، فهل أولئك جميعًا تلامذتي الذين أوعزت إليهم بما حدث؟

إن أمتنا تحب دينها، وتريد أن تحيا وتحكم وتوجَّه به وحده! وقد رَبَت ثقتنا في أنفسنا عندما استأنفنا جلسات المؤتمر، ولم نكترث لما كان يلوح على وجه جمال والسادات من ضيق مكتوم!

ولما تقرر تأليف لجنة لوضع التقرير المطلوب عن الميثاق المقترح، همستُ في أذن الشيخ سيد سابق أن العمل الحقيقي قد بدأ؛ فإن المهم أن يوضع تقرير تبرز فيه الصبغة الإسلامية لمصر، ويخسر هذا التيار اليساري المنكور!

والواقع أن الجهاد المضني بذل في لجنة التقرير، واستمات فيه الشيخ سيد سابق، مع عدد من أولي الإخلاص والغيرة، وأمكنهم تقليم أظافر الشيوعيين، ووضع التقرير المطلوب!

ومن الإنصاف أن نوضح هنا أن عملنا كله كان سيذهب سدىً، لولا صلابة الرجل المؤمن الصبور كمال الدين حسين، فقد أبى المداهنة والعبث، ووفر الحرية كاملة للأعضاء، وهم لا يبغون بالإسلام بديلًا!

ولذلك امحت الميوعة العقائدية التي تجعل الميثاق المقترح يصلح كما قلنا لدول أوربا الشرقية، ويجعل الشعب المصري مبتوت الصلة بدينه وشعائره!

وأثبتنا أننا على الإسلام نبني، ومنه نستمد، وجعلنا التقرير المحتفي بكتاب الله مهيمنًا على ما سواه، ولا بد من طبعه مع الميثاق؛ ليكون جزءًا متممًا له!

وقرئ التقرير، ونال موافقة شبه إجماعية! ولم تكن هذه النتيجة متوقعة، ولم يرض عنها جمال عبد الناصر!

والحق أن الخصومة التي وقعت بين كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر بدأت من ذلك اليوم، واتسعت الهوَّة على مرِّ الأيام، حتى أُبعد الرجل الذي استمسك بدينه، ودُمِّرت حياته المادية، وعاش بعيدًا عن أسباب السلطة!

لم يجد جمال صعوبة في طيّ التقرير وإهمال إرادة المؤتمر، وفرض ما يريده هو على المصريين!

أما أنور السادات فهو صوت سيده! كان أقلّ وأذلّ من أن ينأى عن هوى زعيمه قيد أنملة! بل كان معروفًا بأنه الرجل الذي يُسلّي ويُسرِّي، ويسارع في مرضاة سيده!

وعدت إلى عملي بوزارة الأوقاف، وقلبي مستريح لما بذلت، وإن كنت محزونًا لما تمّ!

شيء ثمين استفدته من هذه المعركة، أن الدعايات التي كانت يقوم بها بعض الإخوان ضدي توقفت، وخرست الألسنة التي استمرأت عرضي حينًا من الدهر! ولا أكتم أني كنت أهتاج إذا سمعت من يقول: انضمّ إلى الحكومة، أو باع دينه بعَرَضٍ من الدنيا!

ولا أزال أرى أن معاصي القلوب تفتك بإيمان بعض المنتمين إلى الدين! وأن التماسهم للبرآء العيب أمر يبطل طاعتهم!

وما أبرئ نفسي من التقصير، وإني لأعلم فقري المدقع إلى غفران الله، ولكني بعيد عما أشاعوه عني، وشاء الله في مواطن كثيرة أن يكشف كذبه من حيث لا أدري!

ولم يلحقني ضرٌّ عاجل من موقفي في المؤتمر، ويبدو أن القوم أمكر من ذلك، فقد تربصوا بي عدة شهور، ثم جاء وزير هبط بي من مدير للمساجد إلى مفتش بها، أي رجع بي القهقري خمسة عشر عامًا في سلّم الوظائف، ونقلني من مكتبي الخاص إلى مكتب به بعض الموظفين والموظفات!

مما كتبه جاهين في الكاريكاتير:

- تراهني يا أستاذ من جنيه لعشرة إني عمري ما جبت سيرة الحجر الأسود، وإن المسألة لو فيها حجر يبقى داخل راس سيادتك بس!؟
- وفي الثاني رسم إرهابيين مقنعين، ووراءهما قنابل وأسلحة، يملي أحدهما على الآخر: اكتب: السيد الأستاذ محمد الغزالي بالقاهرة: أما بعد. تعلمون سيادتكم أنا قد فقدنا زعيمنا الإرهابي الكبير الجنرال سالان.. ويسرنا بعد اطلاعنا على مواهبكم أن ندعوكم خلفًا له.. وشكرًا..

إمضاء: المنظمة الإرهابية بالجزائر

- وفي الثالث غطي وجهه كله بالعمامة: وهو يقول: أما الميثاق.. إني أرى.....
- وتحت عنوان: تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية، كتب:

- الغزالي: انت يا ست انتي: مين سمح لك تشتغلي!
- الغزالي: النهارده مفيش جلسة ميثاق.. أما أروح أشوش على مباراة الأهلي وبنفيكا!
- الغزالي يلفق للعبد لله أقوال باطلة عن الحجر الأسود!

تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية
« الغزالي واعتراضه على اشتغال المرأة »
— انتي يا ست انتي .. مين اللي سمح لك تشتغلي !
أهداف الميثاق :
• الخبز للجميع
• المسكن للجميع
• الكساء للجميع
• الدواء للجميع
• العمل للجميع
• الفرصة للجميع
• الثقافة للجميع
• التأمين للجميع
• الحكم للجميع
— اما عن الميثاق .. فانى ارى : ......
ابو زيد « الغزالى » بسلامه
OAS
OAS
الغــزالي يلفــق للعبـد لله
اقوال باطلة عن الحجر الاسود
— اكتب .. السيد الاستاذ محمد الغزالي .. بالقاهرة
.. بعد التحية نعلمون سيادتكم اننا قد فقدنا زعيمنا
الارهابي الكبير الجنرال سالان .. ويسرنا بعد اطلاعنا على
مواهبكم ان ندعوكم خلفا له وشكرا ..
امضاء .. المنظمة الارهابية بالجزائر ..
الغزالي — النهاردة مفيش جلسة ميثاق .. انا اروح الفوش على مباراة الاهلي وبنيفكا !..

موال

العبد لله يقول . . العبد لله قال
من حر قلبى اتلسعت نقعت بالسؤال
واحد وواحد يساوى اتنين مافيهش جدال
انا قريت الميثاق .. وآمنت به فى الحال
دخلنا فى الشغل والجد انفتح له مجال
يتفنن المؤتمر يرسم لنا المنوال
.. اتكلموا الفلاحين .. واتكلموا العمال
واساتذه متحرين .. وتلامذه م الاشبال
ودكاتره ومهندسين . . وامهات اطفال
الحكم ح يكون لمين .. وكتف مين شيال
وازاى ح يمشى العمل ، وازاى ح ييجى المال
وايه جزا المجتهد .. وايه جزا الاهمال
ومين رئيس مين ومين مسئول واى سؤال
والمجلس الشعبى والانتاج والف مثال
من مشروعات تنمية الى تنظيمات اعمال

رقص وسط ما المؤتمر حامى الوطيس شغال
من اجل قوت العيال اجيال ورا اجيال ...
صاحب الفضيلة «الغزالى» قام على حيله
قال لك ..
كمان الحريم ...
لازم يكونوا طوال !..

« ص . ج »

معركته مع خالد محمد خالد:

الأستاذ والمفكر الإسلامي الكبير خالد محمد خالد (15 يونيو 1920م/ 29 فبراير 1996م) كاتب إسلامي مصري معاصر، مؤلف كتاب رجال حول الرسول الذي كان سبب شهرته، كما ألف عدة كتب تتحدث عن السيرة النبوية، وأعلام الصحابة!

كان ذا أسلوب مبسط، تخرج من كلية الشريعة بالأزهر، وعمل مدرسًا، ثم عمل بوزارة الثقافة، وكان عضوًا بالمجلس الأعلى للآداب والفنون.

تسبب كتابه الأول "من هنا نبدأ" في ذيوع شهرته في مصر وخارجها أيضًا بشكل سريع، حتى إنه طبع ست طبعات في سنتين اثنتين، وترجم في نفس السنة التي صدر فيها إلى الإنجليزية في أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل، وأبحاث جامعية، ومقالات في أنحاء متفرقة من أوروبا وأمريكا!

لكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلتاه – فيما بعد – يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه، وظل يفكر فيما دعا إليه فيه من فصل الدين عن الدولة، ويقلبه في ذهنه؛ حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، فلم يخجل – وهو الكاتب الكبير – من أن يعلن أنه أخطأ! وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته؛ فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها: من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية! ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتابًا كاملًا أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، وجعل

شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة.. حق وقوة.. ثقافة وحضارة.. عبادة وسياسة"!

خلف خالد محمد خالد ثروة علمية تربو على ثلاثين كتابًا، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تجمع بعد... وقابلها الناس في أنحاء العالم بالقبول، وترجم بعضها إلى لغات مختلفة!

ومع صداقة الغزالي لخالد محمد خالد، فقد انتخى الغزالي، ورد عليه سريعًا بكتابه: (من هنا نعلم) ينقض فيه آراءه، ويرد بالحق الذي رجع إليه خالد محمد خالد سريعًا، ولم يفسد الخلاف ما بينهما، رحمهما الله تعالى!

تحت عنوان: الدولة الدينية بين الشيخين محمد الغزالي، وخالد محمد خالد، كتب أ. محمد السوسي:

إذا كان الاستعمار توجه أول ما توجه إلى أسلوب الحكم في الإسلام، وقام الشيخ علي عبد الرازق بتبني موقف في هذا الصدد، في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" فإن الذي أثار الشيخ الغزالي وحرك مكامن غضبه السياسي والفكري، هو ما كتبه الشيخ خالد محمد خالد في كتابه: (من هنا نبدأ) والشيخ خالد كان صديقًا ورفيقًا للغزالي؛ شاركا معًا في هموم ما يقاسيه الإسلام والمسلمون من لدن الغرب وأذنابه في البلاد الإسلامية؛ وفي مصر بالذات! بل إن العالمين الشابين اتفقا على طرح الإسلام وأنظمته بفكر جديد، وعقلية جديدة، ولم يكن خالد محمد خالد بعيدًا عن فكرة إصدار الغزالي لكتابيه "الإسلام وأوضاعنا القانونية" وكذلك "الإسلام والمناهج الاشتراكية".

وفي هذا يقول خالد محمد خالد ص:324، قصتي مع الحياة:

(....ويومها سألت نفسي: إذا كنا شديدي الاهتمام بـ"استقدام" الفكر الغربي، فأين اهتمامنا بـ"تقديم" الفكر الإسلامي والعربي؟ إن كلا الاهتمامين جليل ونبيل، وإن علماءنا الأقدمين، قد خلفوا تراثًا هائلًا لفكرهم الثر العظيم! لكن نحن! جيلنا نحن: ماذا أعطى العالم من فكره العربي والإسلامي، في عصر يمور مورًا بالقضايا الكبرى – كالديمقراطية، والاشتراكية، وبالقضايا الفلسفية،

والاجتماعية، والتربوية! لا بد أن نحمل تبعاتنا قدر إمكاناتنا وجهدنا!

وحملت خواطري هذه إلى أخي الكريم الشيخ محمد الغزالي، واتفقنا على أن يبادر أحدنا بإصدار كتاب في أي من موضوعات الساعة، وآثر الشيخ أن يكون الموضوع: "الإسلام والأوضاع الاقتصادية"، ثم يتلوه كتاب عن "الإسلام والمناهج الاشتراكية."

قلت: وإذن فأنت خير من يكتب هذين الكتابين، ويجلي فقه الإسلام في هذين الموضوعين! ومضى الشيخ في حماس وشوق يؤلف الكتاب الأول – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – فشهدت المكتبة الإسلامية – ربما لأول مرة – كتابًا في الاقتصاد محكم التأليف، قوي الحجة، ريق الكلمة، ممتع العبارة، حتى كأنك تطالع قصة حب، لا كتابًا فيه جفاف الاقتصاد كعلم له مصطلحاته العسرة، وأرقامه التي تتوه في بيدائها!

وأسلمنا الكتاب لإحدى شركات التوزيع، وانتظرنا، في شوق عجول، صباح الغد الذي سيبدأ فيه توزيعه. وإني لأسرع الخطى في أول بزوغ النهار، لأشتري نسخة من الكتاب! وإذا بائع الصحف الذي كنت أتعامل معه، يخبرني أنه صودر، وأنه منذ دقائق معدودات جاءه مخبران، وحملا النسخ التي جاءته مع الصحف لبيعها، وحذراه من المجيء بنسخ أخرى وبيعها، لأن الكتاب مصادر!

ورأيت دموع الفرح تثب من عيني: لقد أصبح لنا فكر يرهب، وكتب تصادر؟ أية بداية سعيدة هذه، وأي إرهاص، وأي انتصار؟!

ومضيت أقطع الأرض وثبًا إلى منزل الغزالي، فألفيته لم يعرف نبأ المصادرة بعد! وغادرنا منزله إلى الطريق، نستعرض باعة الصحف، فما وجدناه إلا عند واحد منهم، أنبأنا أنه استطاع إخفاء نسختين، فأخذناهما منه، وراح يسألنا: لماذا صودر؟ وماذا فيه؟ ومن مؤلفه – ومؤلفه واقف معه – وإذا كنتم تعرفون المؤلف فدلوني عليه؛ لأشتري منه مجموعات من الكتاب أقوم ببيعها؟

وبعد حين أفرج عن الكتاب، وشحذ الشيخ الغزالي قلمه ليكتب مؤلفه الثاني: (الإسلام

والمناهج الاشتراكية).

(ورغم هذه العلاقة بين الشيخين الثائرين فإن التوجهات الفكرية والمشاركة في الحياة العامة تختلف بالنسبة إليهما، فبينما كان الشيخ الغزالي عنصرًا نشيطًا في حركة الإخوان، فإن خالد محمد خالد، كان نشيطًا في الجمعية الشرعية، وإن كان مقر الإخوان هو الذي أتاح الفرصة للشيخين ليتعرف بعضهما على بعض، وجمع بينهما التقدير والاحترام للمرشد الشهيد (حسن البنا)!

على أي حال فإن الشيخين التقيا هناك، وافترقا في التوجه الذي يجب أن يركز عليه كلاهما في المجال الدعوي؛ وبالأخص في المجال السياسي، فحيث وقع خالد محمد خالد تحت تأثير مفروءاته في المجال السياسي الأوروبي، وبما كتبه الشيخ على عبد الرازق، فإن الغزالي كان متألقًا في الدعوة الإخوانية التي تدعو إلى استعادة الحكم الإسلامي، وبالأخص الدولة الإسلامية، وحتى إعادة بناء "الخلافة" التي من شانها أن تجمع شمل المسلمين، وإن يستظلوا بطلها وكلمتهم موحدة وجمعهم ملتئم واحد وصفهم متراض.

ومن هناك كان كتاب خالد محمد خالد: من هنا نبدأ، والجواب: من هنا نعلم؛ للشيخ الغزالي!

يقول الغزالي: اختار الشيخ خالد هذا العنوان، ليسرد تحته مثالب الحكم الديني، كما توهمها، وكأنه يصف طباع وحش مفترس الأظفار، مخضب الأنياب من دماء الضحايا. وكم يكون سروري كبيرًا لو أنه جعل العنوان: (غرائز الحكم الاستبدادي) مثلًا، ثم أبان بعد هذا الحكم عن الإسلام، وظلمه لدين الله، ودنيا الناس جميعًا.

إنه بهذا ينصف الدين من الأوغاد الذين استغلوه شر استغلال، وافتاتوا به على الحق المجرد، والمنفعة المنشودة للشعوب المظلومة. ثم هو بهذا لا يقع في تناقض مع نفسه، كهذا الذي وقع فيه، عندما كتب تحت العنوان "غرائز الحكومة الدينية" يقول:

هي بعيدة عن الدين كل البعد؛ فالحقيقة أن الحكومة الدينية – وإن ظفرت بهذه التسمية التي

توهم أن لها بالدين صلة – لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله؛ بل من نفسية الحاكمين، وأطماعهم، ومنافعهم الذاتية)! فلماذا إذن تسمى حكومة دينية؟ ما دام دستورها لا يمت بصلة إلى كتاب الله هي ضد طبيعته وشريعته؟

يطرح الشيخ الغزالي سؤالًا هو من صميم الأسئلة التي تطرح على هؤلاء الذين ابتلي بهم الإسلام في العقود الأخيرة فيقول: ولماذا لم يقترح الأستاذ خالد – بعدما تكلم عن طبيعة الإسلام – أن تلتزم الحكومة الدينية حدود هذه الطبيعة الواضحة، أو تجرد من لقب لا تستحقه، وتدمغ بالصفة التي تناسبها؟

على أن الأستاذ مضى في طريقه يحارب في غير عدو، ويحصى عيوبًا سبعة للحكومة، هي حيثيات إقصاء الدين عن السياسة، وطرده للأبد من الدواوين والمراسيم.

فلما أعوزته الأمثلة التي تشهد لهذه النتيجة قال: (وفي الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة؛ حتى إن حاكمًا دينيًّا واحدًا – وهو الحجاج – أباد البقية الكريمة من صحابة رسول الله).

ولأول مرة يقرع سمعي أن الحجاج حاكم ديني. وما أظن أن الحجاج نفسه طمح إلى هذا القلب، وما أظن أحدًا من المؤرخين أسبغ عليه هذا الوصف الغريب! لكن الأستاذ خالدًا فعلها، وانتقل منها إلى أن دينًا يحكم الحجاج باسمه لا يصح له أن يحكم!

قال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري لسليمان بن عبد الملك، يصف الحجاج: (يا أمير المؤمنين: كان عدو الله يتزين تزين المومسة، يصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة. وأكذبُ في حديثه من الدجال)!

وتاريخ الحجاج مثل صارخ لفسق الحكام عن أمر الله، واستهتارهم الفظيع بالدماء والحرمات. ولو لقى جزاءه في الدنيا لكان الشنق أهون عقاب ينزل به. ومع ذلك فقد أصبحت تصرفاته في

نظر خالد تفسيرًا للإسلام، وتؤخذ حجة على كتاب الله وسنة رسوله!

ويسخر الشيخ الغزالي من إطلاق لقب حاكم ديني على الحجاج، بإضافة نفس اللقب إلى نابليون فيقول: ونستطيع أن نضم إلى هذا الدليل أن نابليون بونابرت – رضي الله عنه – اعتنق الإسلام، ولبس عمامة التقى والصلاح على أيدي علماء الأزهر، ثم ارتكب بعد ذلك من الجرائم السياسية ما نعلم؛ مما لا يصح معه قط أن يعتبر الإسلام دينًا ودولة بعد تصرفات نابليون الشائنة؛ فإن طبيعة الحكام الدينيين القاسية تجري في دمه، وتنطق بخطورة تحكيم الدين في الشؤون العامة!

يزعم الشيخ خالد أن الحكم الديني يقوم على الاستبداد الأعمى، ويعد (الغرور المقدس) من شر غرائز الحكومة الدينية، وهي لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه؛ فضلًا عن المعارضة والنقد، فحرية النقد، وحرية المعارضة، وحرية الفكر؛ كل هذه المقدسات عملة زائفة في نظرها، لا تسمح بتداولها بين الناس أبدًا! وإن الحديث الذي قتل به الحسين لا يزال في انتظارك، إذا حاولت أن تنقد الحاكم الديني أو تخطئه)!

ونحن نتساءل: أصحيح أن الحكم الإسلامي يقوم في هذا الجو الخانق النكد؟

إننا إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وجدناه يخلق أمام كل حكومة معارضة جريئة يقظة، تتعقب كل خطأ بالنقد، وتزن كل فعل يصدر عن الحاكم بميزان لا يجور ولا يحيف.

فإذا فرط جيل من المسلمين في هذا الواجب – واجب توجيه الحاكم وإرشاده أو تأديبه وإصلاحه – فقد خرج على تعاليم الإسلام. وانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم فقد تودع منها).

ومجاهدة الحكومات الظالمة إلى الرمق الأخير هو– في نظر الإسلام – أعلى المراتب الشهادة في سبيل الله: (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله)!

ويحلل الغزالي علاقة الحاكمين بالمحكومين في الإسلام فيقول: فليس الإسلام هو الذي يخلق رعية جاهلة مستكينة، تعجز عن تأديب حكامها؛ بله أن تستنيم على ضيمهم، وتخضع لهم!

فإن يكن ذلك موقف الإسلام في تأليب الأمم على الحكام المستبدين، فللإسلام كذلك تعاليم محددة، تكشف عن موقف الحكومة من الشعب، وتضعه في إطار من العدالة والرحمة والانتصاح؛ لا يسمح بالافتيات والاستبداد. ولشرح هذا المعنى موضع آخر!

على أن الأمم قد تبتلى برجال مجرمين، يلون أمورها، ويقتلون بنيها؛ الأمم كلها: من مسلمين ونصارى، ممن لهم كتاب، وممن لا كتاب لهم، من العرب والعجم، ومن الماضي والحاضر!

فبالله لماذا يحمل الإسلام، ويحمل الحكم الإسلامي وحده أوزار هؤلاء الحكام المجرمين؟ لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (هلكة أمتي على يد أغيلمة من قريش)!

فهل تصرفات أولئك الأغيلمة هي التي يستقى منها الطعن على قواعد الحكم الديني؛ كما يفعل صاحبنا الأستاذ خالد؟

على أن الإسلام الذي اعتبر من شعائره العظمى نقد كل خطأ، وحرب كل منكر، سواء صدر من حاكم أو من سوقة، احتاط ضد الثورات الطائشة خشية عواقبها الوخيمة.

وهنا يجب أن نذكر أن حرية النقد شيء، وعملية الثورة المسلحة شيء آخر. وكلمة الخروج على الحاكم كانت قديمًا تعني شهر السلاح في وجهه. ولا أظن أحدًا ينتظر من الإسلام أن يبيح هذا الحق لمن يشاء متى يشاء.

وكل ما ذكره الإسلام في إطفاء بذور الحرب الأهلية قول الرسول: (ستكون هنات وهنات؛ فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة – وهي جميع – فاضربوه بالسيف؛ كائنًا من كان). وهذا حديث لا غبار عليه.

وأرقى الأمم الدستورية تعمل بوحيه في أيام حربها وسلامها، فإن حق الثورة المسلحة ليس كلأً مباحًا يرعاه كل غضبان! أما اعتبار المعارضة المشروعة خروجًا على الدين وحكومته، يقتل من أجلها المعارض؛ استدلالًا من الحديث السابق، فهو ما لا موضع له في أدمغة العلماء.

إن السفلة من الحكام قتلوا كثيرًا من الناس؛ جريًا على طبائع الاستبداد، لا اتباعًا لأحكام الله، فلا ينبغي الاعتذار للمجرمين بأنهم تأولوا آيات الكتاب، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فهم لا يعرفون لله حقًّا، ولا لرسوله حرمة، وقبيح بنا هذا الانتحال.

....وقد يظن أن الحكم الديني أعطانا معالم واضحة عن أهدافه وعن أساليبه؛ فيما نرى ونسمع في بعض الأماكن على وجه المعمورة. وعلة هذا الظن أن تلك الأقطار وحدها هي التي تقطع يد السارق، وتجلد الزاني، وتقيم حدود الله، أي إنها هي الحكومات المسلمة، التي بقيت مصرة على تنفيذ هذه الأحكام، في عصر قد جحدها، ونفر منها نفورًا شديدًا.

ونحن لا نمارى في أن الحدود من الإسلام، ولكننا نستغرب أن تحسب الإسلام كله!

ونحن نريد أن تقام الحدود لتحفظ الحقوق، ويوطد الأمن، وتحرس الفضائل؛ لا أن تقام الحدود لتقطع يد لص صغير سرق دريهمات، ثم يدرأ الحد، بل لا يفكر في إقامته أبدًا على لص القناطير المقنطرة من خزائن الدولة، ومن موارد الشعب!

وبعض الأقطار الإسلامية تعد من أفقر بلاد الله؛ إذا نظرنا إلى معيشة سكانها! وأخرى تعاني من تخلف شديد في جل جوانب الحياة، وأخرى تمتلأ بالكنازين وأصحاب يد طولى، وضمائر جانحة!

وعندما يكون لسان الحال الحاكم هو لسان المقال، الذي نطق بفرية فرعون الكبرى، عندما صرخ في أتباعه: (أنا ربكم الأعلى) فكيف يقال إن هناك قانونًا قائمًا، أو حدودًا محترمة؟

لقد كان بيت المال – أيام الخلافة الراشدة – للأمة، وللحاكم منه الفتات، الذي يمسك عليه

حياته فقط. أما في بعض الأقطار فبيت المال للحاكم، يأخذ منه – أولًا – نصيب الأسد، ثم يرمي بفضلاته للمصالح العامة؟ فكيف يقال إن هذه حكومات دينية، وإن حدود الله فيها أقيمت؟

إن هذه البلاد – للأسف البالغ – بحاجة ماسة إلى ما يحفظ عليها كيانها المجرد، فإن تم لها ذلك أمكن أن ترتفع إلى المستوى الذي يرسمه لها الإسلام. وقبل أن نصل إلى هذه المرتبة لا يجوز البتة أن يقال. هذه حكومات طبقت الإسلام دينا ودولة.

ويالله ما أجمل الطرح، وما أروع الفهم والانتقاد!

ومن لطيف ما يساق هنا: موقف الشيخ رحمه الله من الشيخ الكبير خالد محمد خالد، حين تدخل بعض صغار الهمم، مطالبين بتجريده من شهادة العالمية:

يقول شيخي القرضاوي متع الله به: لقد رد على الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه: «من هنا نبدأ»، ولكن عندما اقترح بعض الناس أن يجرده الأزهر من شهادة العالمية، استنكر الغزالي ذلك، ولم يقبل أن تدخل السلطة طرفًا في الموضوع، متكئة على الأزهر، وقال في مقدمة كتابه: «من هنا نعلم»: إن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ، وإعطاءه حق الحياة. وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى. والطريق التي نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة.

ونحن الذين نعمل للإسلام لا نهاب أي هجوم عليه؛ لأننا موقنون أنه سوف ينكسر على حدوده!

ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد، وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب: فإن الأزهر يكيل بكيلين، بل بعدة مكاييل في هذا الموضوع؛ فقد أصدر قرارًا ضد الشيخ على عبد الرازق – صاحب كتاب: «الإسلام وأصول الحكم» – ثم عاد فأبطله! واكتفى بنقل الشيخ عبد المتعال الصعيدي من الكليات إلى القسم العام – وقد زعم أن الأمر بالحدود المستقرة في الكتاب والسنة للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم!

إلخ... – وجرم خالد هو جرم هؤلاء الأشياخ!

وما أحسن ما فعل الشيخ رحمه الله، وقال! إنه خلق المبارز الشريف، أو قل: هو خلق المسلم، الذي لا يخرجه الغضب عن الحق، ولا يدخله الرضا في الباطل: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا، هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، وَاتَّقُوا اللَّهَ؛ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) المائدة: 8!

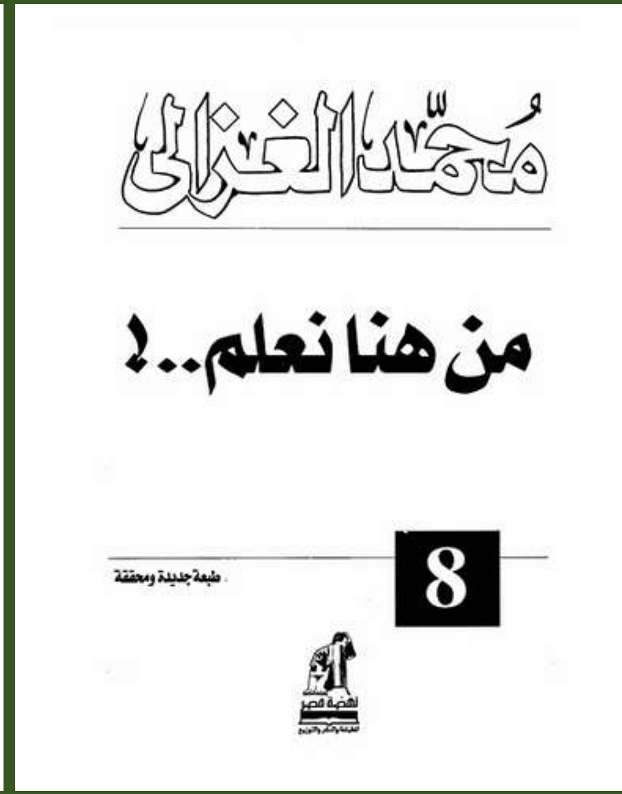

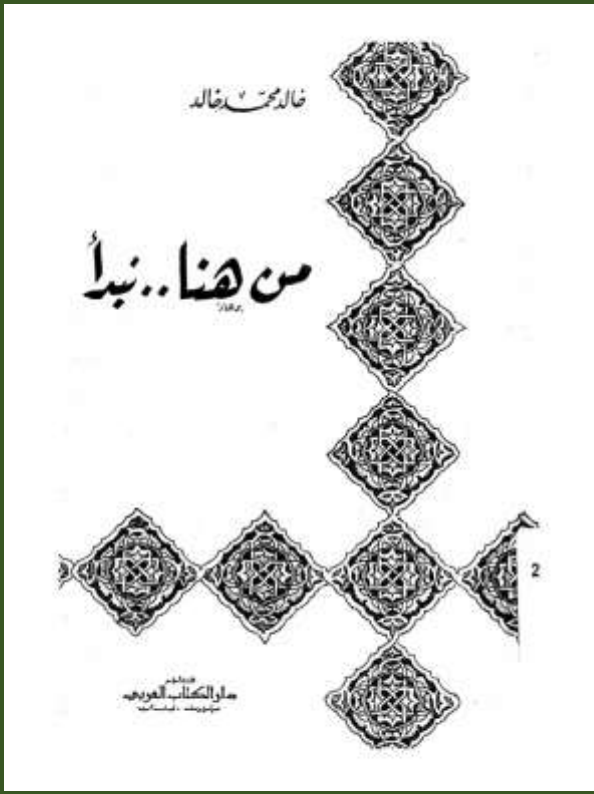

معركته مع عبد الرحمن الشرقاوي

عبد الرحمن الشرقاوى
يـــرفع قضية
على الشيخ الغـــزالى

قرر الكاتب عبد الرحمن الشرقاوى اقامة دعوى ضد الشيخ محمد الغزالى وجامعة قطر بسبب المحاضرة التى القاها الشيخ الغزالى بالجامعة هاجم فيها الشرقـاوى واتهمه بهدم الإسلام .. ثم نشرت جريدة (الراية) المقالة ..

وبين الغزالي والكاتب اليساري عبد الرحمن الشرقاوي قامت معركة عن الخلفاء رضي الله عنهم، بعد محاضرة ألقاها الغزالي بجامعة قطر في الرد على مسلسل (علي إمام المتقين) الذي كانت تنشره صحيفة الأهرام المصرية. وقد أدت إلى أن يرفع الشرقاوي دعوى على الشيخ أمام القضاء!

وكتب عن ذلك الإذاعي عمر بطيشة، في كتابة: عبد الرحمن الشرقاوي: شاهد على العصر، تحت عنوان: حقيقة الخلاف بين الشيخ محمد الغزالي وعبد الرحمن الشرقاوي.

كما كتبت هبة عبد الستار في الأهرام (27 نوفمبر 2015) أنه خاض معارك أخري مع رجال الدين، الذين كالوا له الاتهامات بأنه يسخر الإسلام لصالح الماركسية، ويرتكب تجاوزات وأخطاء في تفسير بعض الآيات القرآنية، وانتقدوا ما وصفوه بعدم توقيره للشخصيات والأحداث الإسلامية! ومن أبرز تلك المعارك كان الخلاف بين الشرقاوي والشيخ محمد الغزالي، الذي توسط لإنهائه الشيخ محمد حسن الباقوري؛ عبر ترتيبه للقاء بينهما، شهد توقيعًا علي بيان تصالح.

وعبد الرحمن الشرقاوي (1920 - 1987) شاعر وأديب، وصحافي، ومؤلف مسرحي، ومفكر

مصري. حاول أن يوفق بين التراث الإسلامي والفكر اليساري، تخرج من كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول عام 1943، وبدأ حياته العملية بالمحاماة، لكنه هجرها؛ لأنه أراد أن يصبح كاتبًا، فعمل في الصحافة! وكان بعد ثورة يوليو في صحيفة الشعب، ثم صحيفة الجمهورية، ثم شغل منصب رئيس تحرير روز اليوسف، ثم عمل بعدها في جريدة الأهرام، كما تولى عددًا من المناصب الأخرى، منها: سكرتارية منظمة التضامن الآسيوي الأفريقي، وأمانة المجلس الأعلى للفنون والآداب.

ومن رواياته: رواياته: الأرض، التي تحولت إلى فيلم سينمائي شهير بنفس الاسم، من إخراج يوسف شاهين عام 1970م./ وقلوب خالية/ الشوارع الخلفية/ الفلاح!

ومن أشهر أعماله: مسرحية الحسين ثائرًا، ومسرحية الحسين شهيدًا، ومأساة جميلة، ومسرحية الفتى مهران، والنسر الأحمر، وأحمد عرابي!

أما في مجال التراجم الإسلامية فقد كتب: محمد رسول الحرية، وعلى إمام المتقين، والفاروق عمر. كما شارك في سيناريو فيلم الرسالة بالاشتراك مع توفيق الحكيم، وعبد الحميد جودة السحار!

منحه الرئيس السادات جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1974، كما منحه معها وسام الآداب والفنون من الطبقة الأولى. ونفَسه اليساري في طرحه لا يخفى!

وقد ضمن الشيخ المحاضرة كتابه: علل وأدوية، بعنوان: الأمانة في نقل التراث، دفاعه الماتع عن الصحابة رضي الله عنهم، وحميته، وغيرته، وموضوعيته، وها هو ملخصًا، مركزًا:

......وقد عجبت لما رأيت الأستاذ الشرقاوي يقص أخبار الفتنة الكبرى، على نحو يحرك الحزازات، ويهيج جمهور أهل السنة: لقد جعل العشرة المبشرين بالجنة مبشرين بالنار؛ ما عدا علي ابن أبي طالب! حتى عمر بن الخطاب كاد يهلك لولا فضل علي عليه! أما البقية فأغنياء تكويهم ثرواتهم يوم القيامة!

هل يجد أعداء الإسلام أفضل من هذا الكلام في النيل من الإسلام: أن يوصف طلحة والزبير وعائشة وغيرهم بأنهم أشخاص متآمرون على السلطة الشرعية، ومندفعون بأحقاد شخصية! وأن طلحة والزبير نالا من عثمان أموالًا طائلة، بنيا بها القصور، واشتريا الإماء؛ حتى أصبح لكل منهما ألف أمة وألف فرس (!)، وأنهما خافا أن يستقر الأمر لعلي بن أبي طالب فينتزع ما بأيديهما، ويرده إلى بيت مال المسلمين، كما هي سياسته مع غيرهم من الأغنياء – هكذا يقول الأستاذ الشرقاوي – ومن أجل ذلك أثارا هذه الحرب المشؤومة، حفاظًا على أموالهما، وخشية على دنياهما، ثم توسلا إلى غرضهما بالتآمر مع عائشة، التي كانت تكره عليًّا؛ لموقف قديم منها!

أهذا كلام يقال أو ينقل؟ إنني أعرف من دراستي الأولى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمى الزبير بن العوام حواري رسول الله، ونقل ذلك البخاري ومسلم، فهل يكون الحواري حراميًّا على النحو الذي وصف الشرقاوي؟

وعدت إلى صحيح البخاري أتعرف ثروة الزبير؛ فوجدت هذه القصة، أنقلها بلغة العصر الحاضر؛ دون أن أميل قيد أنملة عن الوقائع المثبتة في صحيح أبي عبد الله وشروحه!

قبيل التقاء الفريقين في موقعة الجمل نادى الزبير ابنه عبد الله قائلًا: يا بني: أظنني سأقتل اليوم مظلومًا! إنها الساعة التي يشعر المرء فيها باقتراب أجله، والهم الثقيل الذي أشعر به هو ما على من ديون! ما أحسب ديوني تبقي من ثروتي شيئًا(!) بع كل ما أملك، واقض ما عليَّ من ديون؛ فإن بقي شيء فإني أوصي فيه بكذا وكذا!

وكان للزبير تسعة بنين، وتسع بنات. قال عبد الله: وجعل أبي يوصيني بقضاء ديونه، ويقول: يا بني: إن عجزت عن الوفاء لأحد من الدائنين فاستعن عليه مولاي(!) قال عبد الله: فما دريت قصده! أله مولًى أعتقه أمسى موسرًا؟ فسألته: يا أبت؛ من مولاك الذي أستعينه؟ قال الزبير: مولاي الله! واغتيل الزبير بمكان يسمى وادي السباع، قتله وغد يسمى ابن جرموز.

قال البخاري: لم يدع وراءه دينارًا ولا درهمًا؛ إلا أرضين منها قطعة ثمينة تسمى الغابة في عوالي المدينة!

وشرع عبد الله في سداد الديون المطلوبة بعدما قتل أبوه، فوجد ما عليه يبلغ ألفي ألف ومئتي ألف! وجاء الصحابي الجليل حكيم بن حزام، وهو من كبار التجار، فسأله: كم على أخي الزبير من الدين؟

قال عبد الله: فكتمته، وأردت أن أستبقيه سرًّا في نفسي، فقلت. مائة ألف! فقال حكيم: ما أظن أموالكم تسع هذا الدين! وإن عجزتم عن شيء، فاستعينوا بي!

ولكن عبد الله لم يستعن ببشر، لقد تذكر وصية أبيه أن يستعين بالله وحده، قال عبد الله: فوالله ما وقعت في كربة من دين أبي إلا قلت: يا مولى الزبير؛ اقض عن الزبير دينه! فيهون العسير.

ويبدو أن النجدة أتت من ارتفاع طرأ على سعر الأرض! جعل ثمنها يتضاعف! ومكن عبد الله من أن يوفي بكل درهم كان على أبيه، رافضًا معونات الناس، متوكلًا على مولى الزبير! الذي كان الزبير يثق فيه.

وذاك ما جعل البخاري يترجم لهذه القصة بعنوان (باب بركة الغازي في ماله)! وذكر الشراح أن الزبير – وهو من السابقين الأولين – لم يل منصبًا، ولا كان عاملًا على خراج: كان تاجرًا شريفًا، يعمل في الأسواق بجهده.

هذا الرجل الغنى الفقير، المهموم بديونه وهو على أبواب الآخرة، الواثق من أن الله سوف يؤدي عنه ما عليه من حقوق تجارية. هذا الرجل يقول فيه الشرقاوي إن لديه قصورًا على شواطئ البحار، وضفاف الأنهار، وقمم الجبال، وكل هذا الثراء الضخم مما كان يهبه له عثمان من بيت المال! وبتلك العبارات المسعورة يريد أن يهدم كرامة نفر من أكابر الصحابة، ومن العشرة المبشرين بالجنة!

إن المصادر المريبة التي يتعامل معها الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي حافلة بأعجب الأوهام: تأمل فيما يحكيه عن طلحة، إنه يملك ضياعًا في العراق خراجها ألف دينار ذهبًا في اليوم (!) وعلى مرابطه ألف فرس، وفي قصوره ألف أمة (!) وذلك كله مما نهبه من بيت المال أيام عثمان!

إن طلحة من أشراف الناس خلقًا وخلقًا، وقد شلت يده في معركة (أحد) وهو يحمي رسول الله صلى الله عليه وسلم من السهام المصوبة إليه، وجاء في إحدى الروايات عن الترمذي أنه "من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة"! وهو من السابقين الأولين، ومن العشرة المبشرين، ومن بناة الإسلام المتواضعين، فهل يتفق هو وعثمان بن عفان رضي الله عنهما على أكل أموال المسلمين بهذه الصورة المنكرة؟

بأي منطق تحشر هذه المفتريات في تاريخ الإسلام ورجاله؟

والأستاذ الشرقاوي قرأ حديث الإفك في كتب التفاسير، وفي كتب السنة؛ ففي أي مصدر محترم قرأ أن علي بن أبي طالب رشي الله عنه؛ لما رأى الرسول مهمومًا للشائعة المحقورة ضد زوجته قال له: هي شسع نعلكم، طلقها؛ فالنساء غيرها كثير!

هل علي وضيع الخلق فيصف امرأة مظلومة بهذا الوصف؟ ومن قال له: إن عائشة كانت ترهق الرسول وتسئمه وتضايقه؟

الصحيح الثابت في السيرة الشريفة أن عائشة كانت أحب أهله إليه، وكانت هي شديدة التعلق به، ولقد جاء في الصحاح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها: "أنا أعرف متى تكونين راضية، ومتى تكونين غاضبة! إذا كنت غاضبة قلت: ورب إبراهيم، وإذا كنت راضية قلت: ورب محمد"!

قالت: والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك، تعنى أنه في قلبها! فلماذا يجيء امرؤ متطفل، ثقيل الظل، بادي السخف؛ ليتدخل في شؤون لا تعنيه، ويزعم أن عائشة كانت متعبة للرسول، ثم ماذا؟ ثم إنها كانت تكره الأقباط في مصر، لأنها كانت تكره مارية!

وكأن الأستاذ الشرقاوي يريد أن يطبق عليها عقوبة إثارة الطائفية، وتهديد الوحدة الوطنية!

كل ذلك ليكون علي إمام المتقين! وعلي رضي الله عنه أكبر من هذه التفاهات!

إن أبا الحسن كرم الله وجهه لا يبنيه هدم الآخرين؛ فهو من السابقين الأولين، والخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، والشرقاوي يسيء إليه بهذا الأسلوب المنكر.

ثم ينعطف على عثمان ذي النورين بالإساءة:

يتهم الشرقاوي الخليفة الراشد عثمان بن عفان بأنه انحرف بنظام الخلافة، وحوله إلى ملك عضوض، وجعل أقاربه وعماله جبارين على رقاب الناس، وأعانهم على اتخاذ القصور والضياع من مال الأمة.. إلخ. ونحن نناقش هذه الدعاوى بهدوء، لافتين النظر أولًا إلى أمور:

(أ) إن الطريقة التي جاء بها عثمان إلى الحكم تشبه – ولعلها أوسع – من الطريقة التي جاء بها عمر! أي إن لونًا من الشورى كان يضبطها، فليست وراثة ملك، ولا ولاية عهد، وإنما هو بحث عن أقرب الناس سمتًا وهديًا وتأسيًا برسول الله عليه الصلاة والسلام، ورعاية لشؤون الناس!

(ب) إن الطعن في خلافة عثمان لم يكن بدعة محدثة، فإن بعض الفارغين الجالسين على المصاطب قال – لما استخلف أبو بكر عمر –: نعم، رشحه عام أول، فرد إليه الجميل بترشيحه هذا العام!

وقائلو هذا اللغو يحسبون الخلافة مصلحة شخصية، وما دروا أن أبا بكر وعمر خرجا منها وقد أعياهما حمل الأعباء، وتعريا من كل مال يملكانه! ورأى عمر ألا يرشح ابنه عبد الله لها، وقال: بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن المسلمين!

(ج) إن عثمان لما ولي الخلافة كان أحب إلى الناس من عمر؛ لليونته وسهولة نفسه؛ حتى كأن المرأة تدلل وليدها بهذا الكلمات:

أحبك، والرحمن! * حب قريش عثمان!**

وزعم الشرقاوي بأن عثمان أخذ الناس بسياسة الملك العضوض، باطل من أساسه!

- **ونحن نتساءل: هل وقعت مظالم اقتصادية جعلت الناس يثورون لما حل بهم من ضوائق؟**
- **هل وقعت اضطهادات سياسية جعلت الناس يضيقون لغياب الحريات وخنق الآراء؟**
- **هل كانت لعثمان خاصة ملكية جعلت الجماهير تغضب لما حصل عليه من ميزات على حسابهم؟**

إن شيئًا من هذا كله لم يقع، لقد كان الرخاء عامًّا، والمال وافرًا، والضروريات والمرفهات تملأ البيوت. وتدبر ما يقوله الحسن البصري في وصف الحالة الاقتصادية أيام عثمان رضي الله عنه:

(شهدت عثمان وهو يخطب، وأنا يومئذٍ قد راهقت الحلم، فما رأيت قط ذكرًا ولا أنثى أصبح وجهًا، ولا أحسن نضرة منه! سمعته يقول:

- ✓ **أيها الناس: اغدوا على أعطياتكم؟ فيأخذونها وافية!**
- ✓ **أيها الناس: اغدوا على كسوتكم! فيغدون فيجاء بالحلل فتقسم بينهم!**
- ✓ **حتى والله سمعت أذناي: يا معشر المسلمين.. اغدوا على السمن والعسل، فيغدون، فيقسم بينهم السمن والعسل.**
- ✓ **ثم يقول: يا معشر المسلمين: اغدوا على الطيب! فيغدون فيقسم بينهم الطيب والمسك والعنبر وغيره!**

والعدوان والله منفي، والأعطيات دارة، والخير كثير، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا)!

ما يريده الشعب أكثر من ذلك؟ ما الذي يغضب الجماهير من هذا العهد الخصيب المغدق؟

حتى العطور توزع على الناس! (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله)!

أكان عثمان حاكمًا مستبدًّا، يصد أصحاب الرأى أن يقولوا ما يرون؟ من الذي شكا من المفكرين العباقرة أن عثمان كبت فكرة؟ يقولون: رفض رأي أبي ذر ألا يملك مسلم فوق حاجته!

ونقول: ومن من المسلمين وافق أبا ذر على ما نسب إليه من رأي؟

إن مبدأ الملكية محترم في الإسلام، وإن كان مثقلًا بالحقوق، وإنكار الملكية الفردية ليس من الإسلام في شيء، وإنما الكلام في الحقوق التي ترتبط به! فهل جاع مسلم على عهد عثمان وأتخم آخر؟ أم إن الوفود المسيرة ضد الخليفة المفترى عليه كانت تسيرها مآرب أخرى؟ سنرى ذلك بعد حين.

وشرح الشيخ بعد ذلك جانبًا من سيرة عثمان ليري أهل الإنصاف: أكان الرجل حاكمًا مستغلًّا لمنصبه؛ أم كان رجلًا مترفعًا على الدنيا، ملتزمًا نهج الخلافة الراشدة؟ ثم قال:

لا بد من كلمة مستفيضة عن مصادر الأخبار التي تكون حكمًا على أمر ما، فقد رأيت الأعاجيب فيما سمعت ورأيت وقرأت هذه الأيام.

من مراسم الكهان القدامى أنهم يقولون فيسمع لهم! ويحكمون فلا يعترض عليهم! لماذا؟ لأنهم هم الذين قالوا وحكموا! حتى تعلمنا في أدب البحث والمناظرة هذه الكلمة الغالية: (فإن كنت ناقلًا فالصحة، أو قائلًا فالدليل) أي: لا يقبل من ناقل كلام إلا إذا بين لنا مصدره، فعرفنا أن كلامه عن طريق الثقات! كما لا يقبل من مدع رأي إلا إذا دعمه بالبرهان، فإن عجز سقط رأيه: (أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل هاتوا برهانكم)!

كتب الأستاذ الشرقاوي؛ على طريقته في تجريح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان طلحة والزبير يتطلعان إلى الخلافة) وهذا باطل، فإن الرجلين الكبيرين انسحبا من ترشيح نفسيهما في اجتماع لجنة الستة، التي كلفها عمر بن الخطاب باختيار الخليفة بعده، وقد أعطى الزبير صوته علي بن أبي طالب، وأعطى طلحة صوته عثمان بن عفان؛ فأين هذا التطلع؟

ثم مضى يقول: (وكانت عائشة تريد الخلافة لطلحة، وإنما هو الملك ما يطلبون) يعني عائشة وطلحة والزبير!

ومضى الأستاذ في طريقه مناجيًا علي بن أبي طالب: (إن أم المؤمنين قد صرحت من قبل بأنها تفضل أن ترى السماء تنطبق على الأرض، ولا تراك يا عليًّا أميرًا للمؤمنين) – يقصد يا علي، ولكن المطبعة نصبت المرفوع – ثم يمضي في تجريح عائشة، والافتراء عليها: (... هي تعرض مهج المؤمنين للسيف؛ لكي تنزع الأمر منك، وتعطيه طلحة! زوج أختها أم كلثوم).

ونقول من باب السخرية: ولماذا لا تعطيه زوج أختها أسماء؟ هذا النقل كله كذب، والتعليق عليه هزل، وعائشة لا تعطي أحدًا الخلافة ولا ما دونها، ولكنها الرغبة في تجريح الصحابة الكبار!

ونريد أن نذكر للأستاذ الشرقاوي تجربتين عرضتا له أخيرًا؛ ليعرف منهما قيمة المرويات المخطوفة، والاستنتاجات العجلى، فعندما أخذ عليه الأستاذ الشيخ عبد القادر العماري تفسيره المادي للتاريخ قال: والشيخ العماري مصري أزهري، يشغل أرفع المناصب الدينية في دولة قطر، ثم ألمح إلى أن دخله الكبير يجعله من المدافعين عن مصالحهم!

والشيخ الفاضل ليس مصريًّا، ولا أزهريًّا، ولا يحتل أرفع المناصب، ولا ينال أكبر الدخول! إنه قاض قطري، يحمد الله على نعمة الستر!

والتجربة الأخرى معي أنا، فعندما رفضت أحكامه على الصحابة، وطريقته في القصص قال:

والذي حاضر ضدي في جامعة قطر كان شاهد ملك في قضايا الإخوان المسلمين، أدخل من شاء السجون، ومن شاء القبور!

فلما علم أنه كاذب قال: لم أذكر الاسم المعني! وها أنذا أنشر التكذيب! حتى لا يتدخل القانون ضده!

لكن الافتراء على الصحابة لا يؤاخذ عليه قانون، فلننسب إلى عائشة ما نشاء، ونحن في حماية الفن القصصي، وغيبة الضمير النزيه!

من أين يستقي الكاتب الكبير أخباره؟ إن عائشة ليست كليوباترا، ولا إليصابات؛ حتى يتلقف تاريخها من الحكايات الطائرة، والخيالات الجائرة!

وأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ليسوا من دهماء الخلق، ولا سقط المتاع: إنهم أشرف أصحاب احتفوا بنبي أرسله الله من بدء الخليقة إلى انتهاء الوحي!

إنهم امتداد لكيان محمد صلى الله عليه وسلم الروحي، ومجلًى لإعجازه التاريخي، حملوا معه العبء وأحسنوا البلاغ، وكافحوا المظالم الراسية على الثرى قرونًا طويلة، وصانوا التراث السماوي؛ على حين بادت مواريث أخرى، وشانها التحريف والتشويه..

ثم هم هادمو الطواغيت في المشارق والمغارب، وناقلو الوحي من صحراء الجزيرة إلى أودية الحضارات، أي أنهم المنفذون العمليون لعالمية الرسالة، والدعائم المستخفية تحت طباق الوجود الإسلامي الحاضر!

إنهم كما قلت في كتاب لي: جزء من حياة محمد عليه الصلاة والسلام نفسه، فالنيل منهم نيل منه، والاستخفاف بهم استخفاف به نستعيذ بالله. وقد روى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الله الله في أصحابي! الله الله في أصحابي! لا تتخذوهم غرضًا بعدي! فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه."

وروى أصحاب السنن أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: "لا تسبوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل جبل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه".

وعن الترمذي: "إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي، فقولوا: لعنة الله على شركم"!

والأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي – كما قلنا – جرح العشرة المبشرين ما عدا عليًّا، ونسب إلى بعضهم تهمًا شائنة، وترك الآخرين يكتوون في النار بما خلفوا من أموال، لأنهم كانوا أغنياء كبارًا، وتلك جريمة كبرى!

والتحصن بعلي بن أبي طالب لضرب بقية الأصحاب خطة قديمة لضرب الإسلام ذاته، وتقويض قواعده الأولى، وإذا كانت هذه الخطة قد نجحت قديمًا فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

لقد ظهر القرامطة، واشتدت وطأتهم خلال القرنين الرابع والخامس، واستطاعوا – مع ضعف الدولة العباسية – أن يستولوا على أقطار كبيرة، بل لقد اقتلعوا الحجر الأسود من مكانه، بعدما ملؤوا الحرم المكي بالجثث، وظل في حوزتهم أكثر من ربع قرن!

والقرامطة نحلة فوضوية خبيثة تكره الإسلام، وتبيت له الويلات، بيد أنها أبطنت ذلك مظهرة الولاء لأهل البيت، والغلو في علي إمام الأئمة، والأسى لمصارع الطالبيين!

وقال قادتها: نستطيع هدم السلف كلهم تحت راية الولاء لعلي، والغضب لما أصابه وأصاب بنيه! ومع هدم السلف، وضياع كرامة الصحابة يبقى الإسلام بلا قاعدة يعتمد عليها، وبلا تاريخ يجدد مساره! وقد شرح أبو حامد الغزالي ذلك في كتابه (فضائح الباطنية)!

والغريب أن من العرب في هذا العصر من يغالي بالقرامطة، ويملأ فمه بالانتماء إليهم! ويعدهم طليعة اشتراكية محترمة، سبقت عصرها، وحمت مصالح الطبقات الكادحة من فلاحين وعمال!

ولا أظن الأستاذ الشرقاوي يجدد هذا المذهب؛ مهما كان خطه الفكري، لكني أحب أن أسأله: لقد أبرزت عمرو بن العاص طالب دنيا، زاهدًا في الدين، ألعبانًا ينافق ويداور! فما يكون دينك لو لم يفتح عمرو مصر؟

ومن تخدم عندما تستورد من الشائعات التاريخية ما يسقط مكانة عمرو، ويضيف إليه مثالب لا تحصى؟

ولحساب من تنفخ التراب عن هذه القضايا المطمورة، وتشغل الأمة بمآسيها القديمة؛ بدل أن تنشغل بتهويد فلسطين، وهدم المسجد الأقصى، واستيلاء الروس على أفغانستان؟

إن هذه المقالات المنشورة في الأهرام على حلقات متصلة، أساءت إلى ديننا وتراثنا، وودت لو شغل الكاتب نفسه بشيء آخر.

معركته مع د. فرج فودة

ومن المعارك التي لا تنسى، معركة الغزالي مع العلمانية، واشتباكه في معركة علنية مع فرج فوده، في مناظرة حية، على هامش معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٢، شارك فيها عن الجانب الإسلامي: الشيخ محمد الغزالي والمستشار محمد مأمون الهضيبي والدكتور محمد عمارة. وعن الجانب العلماني شارك الدكتور محمد خلف الله والدكتور فرج فودة، وشهدها جمع غفير من الناس، في نقابة الأطباء المصرية! ولا تزال جراحاتها تثعب دمًا من عقول العلمانيين، الذين اتهموه بإباحة دم فرج فوده، وبأنه تكفيري ظلامي! خصوصًا أنه جرى اغتيال فرج فودة بعدها، كما جاء في البوابة الإلكترونية (الأحد 02 أغسطس 2015 دون إيراد اسم للكاتب) وغيرها كثير!

وأثناء المحاكمة طلب دفاع المتهمين شهادة الشيخ الغزالي، وهناك أفتى بـ«جواز أن يقوم أفراد الأمة بإقامة الحدود عند تعطيلها. وإن كان هذا افتئاتًا على حق السلطة، ولكن ليس عليه عقوبة». وكان معنى ذلك واضحًا، أنه يرى أن فرج فودة مرتد! هذا أولًا، وثانيًا أنه يجوز تطبيق حد الردة عليه، وهو القتل؛ كما كتب د. أيمن الجندي في مقاله: لغز الغزالي/فرج فودة!

والدكتور فرج فوده فرج فوده كاتب ومفكر مصري علماني (1945-1992) حاصل على

دكتوراه الفلسفة في الاقتصاد الزراعي من جامعة عين شمس، وتم اغتياله على يد أفراد من الجماعة الإسلامية في 8 يونيو 1992 في القاهرة.

وقد أثارت كتابات د. فرج فودة جدلًا واسعًا بين المثقفين والمفكرين وعلماء الدين، وطالب بفصل الدين عن السياسة والدولة، وليس عن المجتمع.

أسس الجمعية المصرية للتنوير في شارع أسماء فهمي بمدينة نصر، وهي التي اغتيل أمامها. وهو من مدرسة تضم: محمد سعيد العشماوي، وفؤاد زكريا، وحسين أمين، ونوال السعداوي، ولويس عوض، وصبحي منصور، وعبد العظيم رمضان، وخليل عبد الكريم، وسيد القمني، ونور فرحات، ومكرم محمد أحمد، وأحمد بهاء الدين، وصلاح حافظ، ومحمود السعدني، ورفعت السعيد، وأحمد عبد المعطي حجازي)! ومواقف أولئكم من الإسلام معروفة مشتهرة!

وكان يرى أن أسس الدولة المدنية الحديثة تتلخص في:

- العلمانية: حيث نظام الحكم مدني، يستمد شرعيته من الدستور، الذي يساوي بين كل المواطنين، يكفل حرية العقيدة دون محاذير أو قيود.
- والمواطنة: فهي الأساس في الانتماء، بمعنى أننا جميعًا ننتمي إلى مصر بصفتنا مصريين، مسلمين كنا أم أقباطًا.
- والالتزام بميثاق حقوق الإنسان، بمضمونه الحضاري العام.
- وتحقيق العدل من خلال تطبيق القانون حيث تكون المصلحة العامة والخاصة هي أساس التشريع. وطرح فرج فودة هذه الأسس في كتابه الأول "الوفد والمستقبل" (1983)، والذي يعد (مانيفستو) لفكره السياسي الحداثي، ثم أسهب في شرحها فيما تلاه من أعمال، كما كتب في كتابه: حوار حول العلمانية. المحروسة، القاهرة. ط2- 1993.

وقد ارتأى الكثيرون ردة فرج فوده؛ بسبب طعنه في ثوابت الدين، ومما ذكره ممدوح إسماعيل في

ذلك – في مقاله: ذكرياتٌ مع قضية فرج فودة:http://iswy.co/e181ks

......ذهبت لعدد من العلماء، منهم من اعتذر (عن الشهادة في قضية مقتل فرج فودة) حتى وصلت للدكتور الشيخ محمود مزروعة عميد كلية أصول الدين سابقًا، وقد انبهرت من فيض علمه، وقوته في الحق، وتم الاتفاق معه ومع الشيخ الغزالي على الشهادة في المحكمة.

وفي المحكمة قال د. مزروعة بكل وضوحٍ: إن فرج فودة مرتد، وإنه أقيمت عليه الحجة عدة مرات من العلماء: صلاح أبو إسماعيل، والغزالي، وعشرات من العلماء، في مناظراتٍ وردودٍ واضحةٍ ولكنه أصر، وعن قتله قال: إنه من لم يرتد عن شره إلا بقتله، وجب قتله، واتفق معه الشيخ الغزالي؛ إلا أنه قال: إن من يقوم بالقتل من آحاد الناس يعزر لافتئاته على سلطة القاضي، ولكن لا يقام عليه حد القتل (جاءني تصحيح من شخصية تابعت كلام الغزالي أنه قال: لا أعلم عقوبةً على المفتئت)، وترك الإعلام الجريمة، وانشغلوا بالعلماء، وهاجموهم هجومًا شديدًا؛ فقد كانت شهادتهم مفاجأة للعالم كله. فرج فودة كان يسخر من القرآن ويستهزئ به وكما وصفه د. مزروعة في شهادته كان إذاعة للكفر.....والمصيبة أن بعض ولاة الأمر في بلاد المسلمين يدعمون الكفر، ويفرحون بالكافرين، ويقتلون الصالحين الداعين للخير؛ فهم ليسوا ولاة أمر المسلمين مطلقًا!

فماذا قال الشيخ الغزالي نفسه في القضية؟

اشتركتُ في مناظرة مع فرج فودة لأني كنت طامعًا – إذا شرحت له الحق، وبسطت أدلته – أن أعود بالرجل إلى الإيمان، ولكني وجدته يكره الإسلام ونظامه، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء. أي أنه يؤيد حكم الإعدام الذي أصدره الاستعمار على شريعتنا، وينحاز إلى أعدائنا بصراحة!

هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابًا، تضمن ما نسب إلى فرج فودة، من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه! وأقول أخيرًا: إنني رجل من الدعاة إلى الله، لا أتمنى إلا الحرية لي ولخصومي على السواء، وأكره العدوان والمشاكسة، ولكني أشكو من أن ديني يجار عليه، وينتقص

منه، ويحرم أهله ما يسمى في عصرنا بحقوق الإنسان، وأن المنتمين إلى هذا الدين في طور سيئ منتاريخه، وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة في مهب الرياح!

نص الشهادة في مقتل فرج فودة: (عن كتاب د. القرضاوي عن الإمام الغزالي):

ومن أخطر المواقف للشيخ، موقف «الشهادة» الأخيرة في محكمة أمن الدولة، في قضية مقتل الدكتور فرج فودة، تلك الشهادة التي أحدثت دويًّا، بل زلزالًا في دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد، ومنكر، ومتوقف.

لقد طلبت المحكمة حضور الشيخ بناءً على طلب دفاع المتهمين، ليجيب عن أسئلة معينة وجهها إليه الدفاع! والمحكمة استدعت الشاهد فسألته بالآتي، فأجاب:

اسمي محمد الغزالي أحمد السقا، وسني (76) سنة، وأعمل عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية، ومقيم بالدقي (10) ش قمبيز بميدان الدكتور سليمان – وحلف اليمين.

س: ما معلوماتك؟

ج: أنا مستدعًى من قبل الدفاع؛ بناءً على طلب المحكمة، استجابة لطلب الدفاع.

س: الدفاع: هل الإسلام دين ودولة؟ وما معنى هذه المقولة؟

ج: الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، وإيمان ونظام ودين ودولة! ومعنى هذه المقولة ذكرته الآية الشريفة: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ؛ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً، وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) النحل: 89، كما قال الله تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا؛ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا)

الأنعام: 114، فالإسلام دين شامل منذ بدأ من خمسة عشر قرنًا، وهو دين ودولة، لم تنفصل فيه السلطة الزمنية عن المعاني الروحية، وقد جاءت النصوص متشابهة في إيجابها لشتى الأركان، فمثلًا: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) البقرة: 183، (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) البقرة: 178، و(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ؛ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ) البقرة: 216. وجاءت هذه الأقوال في عبادة جنائية كالقصاص، وفي عبادة شخصية كالصيام، وفي عبادة دولية كالقتال.

فالعبارة واحدة؛ وإن اختلفت اتجاهات التشريع. ومعروف أن أطول آية في القرآن هي التي نزلت في الدَّين، وهي عبادة اقتصادية، والتي تبدأ آياتها: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) إلخ.. إن الإسلام دين للفرد والمجتمع والدولة، ما ترك شيئًا إلا وتحدث فيه؛ ما دام هذا الشيء يتصل بنظام الحياة وشؤون الناس.

س: الدفاع: هل تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة واجبة؟

ج: أدع الإجابة عن هذا السؤال للقرآن نفسه، فالله تعالى يقول لنبيه: (فَلَا وَرَبِّك لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوك فِيمَا شَجَرَ بَيْنهمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسهمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْت، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) النساء: 65، وقوله في آية أخرى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)!؟ المائدة: 50.

س: الدفاع: ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحودًا أو استهزاءً؟

ج: الشريعة الإسلامية كانت تحكم العالم العربي والإسلامي كله؛ حتى دخل الاستعمار العالمي الصليبي – وكرهه للإسلام واضح – فألغى أحكام الشريعة الإسلامية، وأنواع القصاص، وأنواع التعازير، وأنواع الحدود، وحكم الناس بالهوى فيما يشاؤون.

وقد صحب الاستعمار العسكري استعمار ثقافي، مهمته هي جعل الناس يطمئنون إلى ضياع

شريعتهم، وإلى تعطيل أحكام الله؛ دون أن يتبرموا! وأنا كأي مسلم أقرأ قوله تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) إلخ النور:2، أجد الآية مقلوبة في المجتمع، وأجد القانون يقول: إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فلا جريمة، وقد تسمى حبًّا، وتسمى عشقًا. ولكن نص الشريعة عُطل وروح الشريعة أزهقت! فكيف يقبل مسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع؟ وبالتالي كيف يسخرون مني إذا قلت: يجب إقامة الشريعة؟

أعرف أناسًا كثيرين يرون تعطيل الشريعة، ويجادلون في صلاحيتها، ويثبتون حكم الإعدام الذي أصدرته الحكومات الأجنبية أو الاستعمار العالمي على هذه الشريعة، التي شرفنا الله بها! إنهم يعدمونها إعدامًا، ويريدون تثبيت هذا الإعدام، ويجادلوننا باستهزاء أحيانًا في صلاحية الشريعة للتنفيذ! هذا كما قلت وكما قال الله تعالى!

وليس بمؤمن يقينًا من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحدًا أو استهزاءً، بل كما قال الله تعالى في وصف هؤلاء الناس في قوله تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) المائدة: 44، (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) المائدة: 47. ويعرف الإنسان أنه منافق من رفض حكم الله. وقد قال تعالى: (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ، وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ* وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ* وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ* أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ؟ أَمِ ارْتَابُوا؟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ؟! بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) إلى آخر الآيات في نفس الموضوع النور: 47 – 50.

س: الدفاع: ما حكم من يدعو إلى أن يستبدل بحكم الله شريعة وضعية تحل الحرام، وتحرم الحلال؟

ج: ليس هذا بمسلم يقينًا: يقول الله تعالى في هؤلاء: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ؛ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ – وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ – وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) النساء: 60.

س: هل يُعَدّ هذا العمل عملًا كفريًّا؛ يُخرِج صاحبه من الملة؟

ج: نعم، فمن رفض الحكم بما أنزل الله – جحدًا واستهزاءً – هو بلا شك يخرج من الملة.

س: الدفاع: فما حكم المسلم الذي يأتي هذا الفعل الكفري أو القول الكفري عن تعمد، وعلم بمعانيه ومراميه؟

ج: مهمتي الشخصية هي أن أشرح له – كعالِم – وأدحض شبهاته، وأبيّن له الحقيقة. وليست مهمتي كداعية إلى الله أن أتلمس العيوب للناس! ولست أفرح بإيقاع أقدامهم في الحبائل والشباك؛ وإنما أنا طبيب أعالج المرضى، وأريد أن أنقذهم من الجراثيم التي تفتك بهم.

فإذا كان عنيدًا يرفض كل ما أقول، ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله، فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن.

س: الدفاع: هل يصح لإنسان نطق بالشهادتين الادعاء بالإسلام؛ مع المجاهرة ورفض تطبيق الشريعة الإسلامية، والدعوى إلى أن يستبدل بشرع الله شرائع الطواغيت من البشر؟

ج: أولًا يقول الله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ؛ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) البقرة: 8، بل إن بعض الناس كان يحلف إنه مؤمن، ولكن ميله للكفار وجبنه عن مقاتلتهم، والدفاع عن

الإسلام نفى الدين عنه، قال تعالى: (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ، وَمَا هُم مِّنكُمْ؛ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا؛ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) التوبة: 56، 57. ومعنى الآية أن قولهم: مؤمنون – مع تكذيب أعمالهم لهم – لا يقبل، والإيمان باتفاق العلماء: قول وعقيدة وعمل. ثم ألفت النظر إلى أن ديننا اسمه الإسلام؛ أي الخضوع لله، ومعنى

ذلك أن إبليس كان يعلم أن الله حق ويجادله! فرفضُ الأمر والنهي يخرج الإنسان عن الملة.

س: الدفاع: هل يُعَدّ من يأتي هذه الأفعال الكفرية، والأقوال الكفرية، مبدلًا لدينه، مفارقًا للجماعة؟

ج: نعم، يُعَدّ مرتدًّا عن الإسلام.

س: الدفاع: ما حكم هذا المرتد شرعًا؟

ج: حكم المرتد في الشريعة واضح، وأنا لي رأي خاص؛ فالرأي العام في الإسلام أنه مخطئ، وأن الارتداد قد تكون له أسباب، فيمكن أن يكون لإنسان شُبهة ولا يحسن فهم الدليل، فأنا مهمتي كشف الشبهة وبيان الدليل. وقد يرى الحاكم بدل أن يقتل أن يسجن سجنًا مؤبدًا لأمر ما. وعندما كان الجدال بين النبي وزعماء مكة في صلح الحديبية فقد عرض أمر على الرسول. وقد انتهى الرسول إلى أن من ترك المدينة وجاء لمكة لا يمنعه الرسول، ومن ترك مكة وذهب إلى المدينة يمنعه الرسول، وقد سأل الصحابة الرسول في ذلك فقال لهم: «شر وأريد أن أبعده عنكم». ورأيي الخاص لو أن واحدًا من الناس ارتد لا أتعقبه، ولكن بقاءه في المجتمع جرثومة: ينفث سمومه، ويحض الناس على ترك الإسلام، فيجب على الحاكم أن يقتله.

س: الدفاع: قررتم فضيلتكم أنه قد يكون صاحب القولة الكفرية لديه شبهة، أو لم تبلغه الحجة، فماذا إذا بلغته الحجة؟

ج: هذا ككفر الفراعنة: جحدوا وجود الله، وعصوا موسى، وهذا يكون ارتدادًا صريحًا حاسمًا.

س: الدفاع: من الذي يملك إيقاع الحد على المرتد المستوجب قتله؟

ج: المفروض أن جهاز القضاء هو الذي يقوم بهذه المهمة، فهو الذي يقيم الحدود، ويقيم التعازير، ويحكم بالقصاص، ولا يكون ذلك لآحاد الناس حتى لا تكون فوضى.

س: الدفاع: فماذا لو كان القاضي لا يعاقب على الردة، والقضاء لا يوقع الحدود؟

ج: هذا عيب القضاء، وعيب المسؤولين عنه، والقانون معيب.

س: الدفاع: ماذا لو أن القانون المطبق لا يعاقب: هل يبقى الحد على أصله من وجوب الإيقاع؟

ج: حكم الله لا يلغيه أحد، والحد واجب الإيقاع.

س: الدفاع: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الأمة، هل يُعَدّ مرتكبًا جريمة، أو مفتئتًا على السلطة؟

ج: يُعَدّ مفتئتًا على السلطة، وأدى ما يجب أن تقوم به السلطة.

س: الدفاع: هل هذا المفتئت على السلطة – بفرض أن السلطة توقع حدًّا– هل له عقوبة في الإسلام؟

ج: أنا لا أذكر أن له عقوبة في الإسلام.

س: من المحكمة: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: لا.

تمت أقواله. ووقع «محمد الغزالي».

أثر شهادة الشيخ في الحياة العامة:

يقول شيخي القرضاوي: زلزلت الأرض زلزالها بعد شهادة الشيخ؛ لمكانته المرموقة في مصر والعالم العربي، والعالم الإسلامي، والعالم كله، وثارت ثائرة خصوم الفكر الإسلامي، وأعداء الحل الإسلامي، وكل الحاقدين على الإسلام، والخائفين منه، والمبغضين له، وتكالبت الأقلام المسعورة والمأجورة على الشيخ الجليل، وانتهزها الشيوعيون المهزومون، والمغتربون المقهورون، والعلمانيون الموتورون، انتهزوها فرصة لينهشوا من لحم الشيخ، ناسين أن لحمه سم زعاف.

وسالت أنهار الصحف بالكلام عن الشهادة والشاهد، ولم يعبأ الشيخ بما قيل ويقال.

حتى بعض الأقباط دخل في المعركة*، وهاجم الشيخ بوقاحة وسلاطة، مع أنهم كانوا من قبل لا يجترئون على أن يمسوا بكلمة علماء الإسلام!

وذهب وزير مسؤول إلى الشيخ في بيته ملحًّا في الضغط عليه، ليصدر تصريحًا أو بيانًا، أو يكتب كلمة – أو نحو ذلك مما يروق له – يفسر به موقفه بما يشبه التراجع عما قاله في الشهادة. ولكن الشيخ أبى إلا أن يثبت على موقفه، وظل كالصخرة العاتية، التي تحطمت عليها كل المحاولات، ولم تجد فتيلًا.

ولما ألح هذا المسؤول على الشيخ، وكرر عليه القول مرة بعد مرة، قال له في صراحة وجلاء: أنا لم أكتب مقالًا في صحيفة، ولا ألقيت خطبة في جامع، ولا محاضرة في جمعية، ولكني استدعيت للشهادة أمام محكمة، فشهدت بما أعتقد أنه الحق، الذي أدين الله به، وألقاه عليه؛ فإذا كان في شهادتي بعض الغموض، فلتدعني المحكمة مرة أخرى، وأنا أشرح لها موقفي.

وبهذا حسم الأمر، ولم يعد هناك مجال للقيل والقال.

---

(1) غالي شكري، في مجلة له في مقال طويل عن الشيخ الغزالي.

معركته مع فؤاد زكريا

من معارك الغزالي التي شارك فيها أيضًا مع العلمانية: معركته والشيخ القرضاوي مع د. فؤاد زكريا، الذي رفع شعار: العلمانية هي الحل، في مواجهة الشيخين اللذين كان شعارهما: الإسلام هو الحل! يقول رضا غنيم في: (أشهر المناظرات بين العلمانيين والإسلاميين العرب):

في (أواسط) الثمانينيات، عُقدت مناظرة في دار الحكمة وسط القاهرة، بعنوان "الإسلام والعلمانية"، أبطالها أستاذ الفلسفة فؤاد زكريا، والشيخ يوسف القرضاوي، والمفكر الإسلامي محمد الغزالي.

بدأ زكريا الحديث بالتحفظ على عنوان المناظرة، وقال إنه فُهم أن المقصود وضع نوع من التضاد بين الإسلام والعلمانية، وهذا معناه أنه خسر المعركة قبل أن تبدأ، موضحًا أنه لا يصح وضع الإسلام في كفة، والعلمانية في كفة أخرى.

وسرد زكريا تاريخ العلمانية، وقال إنها ظهرت في عصر النهضة بأوروبا، حينما ثار المواطنون على الكنيسة التي كانت تتدخل في كل شيء، في الفلسفة والسياسة والعلم، وكانت تنصب محاكم تفتيش للمخالفين لها، موضحًا أن العلمانية في أوروبا هي ردة فعل في التفكير ضد الكنيسة.

وأشار إلى أن تبني أوروبا للعلمانية ليس معناه أنها تخلت عن الدين، وأصبحت كافرة، بل تبنت أسلوبًا في التفكير، هدفه تحييد الدين في المجتمع، وهو ما نريده في العالم الإسلامي، بحيث لا

يستخدم الحاكم الدين كمبرر لقمع المخالفين، أو لاضطهاد الأقليات.

وفي المقابل، رفض يوسف القرضاوي العلمانية، وقال إنها مضادة للدين الإسلامي، لأن الشريعة هي التي تنظم بأحكامها الحياة، وتضع لها الضوابط، سواء فيما يتعلق بالأحوال الشخصية أو المجتمع، أو الدولة، وبهذا تناصب العلمانية العداء للدين.

وأضاف أن العلمانية هي دعوة للعودة إلى الجاهلية، أي إلى الحكم بما وضع الناس، لا بما أنزل الله، كأنها تقول لله: (نحن أعلم بما يصلح لنا منك)!

واتفق معه في الرأي محمد الغزالي، الذي اعتبر أن العلمانية مستوردة من الغرب الاستعماري، ولا تصلح في بلاد المسلمين، كما أنها ضد الدستور الذي يستمد قوانينه من الشريعة الإسلامية، وضد إرادة الشعب الذي يلجأ لتحكيم الإله)!

وقد قسم الشيخ الغزالي – بعد تمهيد عن الواقع الزري للأمة – العلمانيين قسمين:

- **قسمًا له مقترحات حسنة للإصلاح، لكنه لا يعرف الشريعة الإسلامية، ولا حقيقة الدين الذين ينتمي إليه. فهو يظن أن ما يقترحه بعيد عن الإسلام، أو ليس من الإسلام، أو مما يضيق به الإسلام! ولو كان واسع الأفق لأدرك أن ما يقترحه هو من الإسلام.......!**
- **نوع آخر لا يدري فعلًا ولا يعرف الإسلام غير مجموعة مفاهيم خطأ، ووراثات غير صحيحة؛ فهو لا يدري؛ ومنهم بعض الذين تبعوا الخواجات!**
- **لكن هناك صنفًا آخر، وجدته جريئًا على الله تعالى، كارهًا للإسلام، ضائقًا بالكتاب والسنة: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ: سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ***

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ؛ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ* ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ؛ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) محمد:26-28، هذا النوع من الناس لا بد أن أقف منه موقفًا فيه حسم! .....فإذا تركت ديني تعبث به الأهواء، وأمتي تلعب بها الأهواء، ويتربص بها كل عدو، كان يخافها قديمًا، لا يعرف من دين الله، ولا من الدنيا شيئًا؛ فإنني سأكون خائنًا لهذا الدين، وخائنًا لهذه الأمة! ولذلك فإننا نرفض رفضًا باتًّا كل من يقف بعيدًا، ينبح قافلة الإسلام، ويؤذي الله ورسوله، ويتحدث بصفاقة غريبة عن الحكم الإسلامي، وعن رجعيته، وتأخره، وهبوطه.....

وسأل الشيخ (ما معناه): ألم تجد العلمانية (هفية) لها غير الإسلام؟ رأيت ألمانيا يحكمها الحزب الديمقراطي المسيحي، إيطاليا يحكمها الحزب الديمقراطي المسيحي، فرنسا حكمها اليمينيون، والآن يطاردون الاشتراكيين، المحافظون في إنجلترا ملكتهم هي رئيسة الكنيسة البروتستانتية، لو قلت هناك الديمقراطي المسيحي لا حرج، أما قلت الديمقراطي الإسلامي يقول: اخرس! الإسلام لأ.........

وقد اعتبر كل طرف نفسه منتصرًا في المناظرة على الآخر، فقال د. فؤاد زكريا في مقابلة مع صحيفة الشرق الأوسط، في فبراير 2010: أنا أعتقد أن ما كتبه الشيخ يوسف القرضاوي عن هذه المناظرة كان به تشويه كبير لما حدث فيها، لكي يظهر نفسه ويعلن أنه هو المنتصر في هذه المناظرة، ويظهرني على أنني كنت متهافتًا. وما حدث في تلك المناظرة كان عكس ما تم الترويج له تمامًا، أنا أعتقد أنني استطعت الدفاع عن العلمانية والتنوير في تلك المناظرة، بطريقة سببت الحرج الشديد لمناظريَّ الشيخين الغزالي والقرضاوي!

وجمع الدكتور القرضاوي مادة المناظرة في كتابه: الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه في هذا الكتاب من خلال حوار أداره د.يوسف القرضاوي، حول جملة أمور أساسية:

1-تحديد المواقع أو الهويات لكل من الطرفين المسلمين والعلمانيين المتحاورين، أين هو وما هو؟ من أول الأمر، وأين يقف كل منهما؟

2–تحديد المفاهيم الرئيسية في الحوار، وخصوصًا المفهومين الكبيرين الإسلام والعلمانية.

3–تحديد المعايير التي يرجع إليها عند الخلاف ويرتضيها الطرفان حكمًا بينهما.

4–تحرير مواضع النزاع بين الفريقين، بحيث يعرف المتفق عليه، والمختلف فيه.

5–تتبع الشبهات المهمة التي أثارها د.فؤاد زكريا خاصة، والعلمانيون عامة، لتفنيدها والرد عليها، وخصوصًا فيما يتعلق بمعركة التحرير الحقيقي للعالم الإسلامي اليوم، وهو التحرر من كل ألوان الاستعمار، وفي مقدمته الاستعمال الثقافي والتشريعي. وقد خصص لمعركة تطبيق الشريعة مزيدًا من الحديث، كما أنه أفرد حديثًا عن "الصحوة الإسلامية" وموقف الاستعار والصهيونية منها، ورد مزاعم د.زكريا حولها.

ورمى د.القرضاوي من وراء هذا الحوار إلى إيضاح مفاهيم التبست حقائقها على الناس، من خلال محاولات دعاة العلمانية إثارة شبهات بين الناس. وقد توصل في نهاية الحوار إلى عدة نقاط مهمة: بأنه لا مكان للعلمانية لا في مصر، ولا في ديار العروبة والإسلام، بأي منطق أو بأي معيار، لا بمعيار الدين، ولا بمعيار المصلحة، ولا بمعيار الديموقراطية، ولا بمعيار الأصالة، وأن الشبهات التي أثارها العلمانيون، لا تقوم على ساق ولا قدم! https://www.muslim-library.com/arabic/الإسلام–والعلمانية–وجها–لوجه/...

فيديو لجزء من المناظرة: https://www.videotop.info/watch/watch/B3vlWad5Dp4

https://www.videotop.info/watch/watch/dAXIs2yI4vQ

آخر معاركه، ووفاته رحمه الله تعالى

حسن الختام أمر ولا شك معتبر، وباب للتفاؤل في نظر السنة النبوية، وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن بعض علائم حسن الخاتمة، ومنها أن يموت المسلم على عمل صالح، كمن مات في عمرة، أو وهو يقرأ القرآن، أو يلقى ربه الرحمن ساجدًا في المسجد، أو في الجهاد، أو نحو ذلك!

وقد صح في الترمذي وغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة عن سيدي أنس رضي الله عنه مرفوعًا: (إذا أراد الله بعبده خيرًا استعمله) قالوا: كيف يستعمله؟ قال: (يوفقه لعمل صالح قبل موته)، وفي مسند أحمد وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ! قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ)!

ولعل ميتة الشيخ رحمه الله تعالى كانت من هذا الباب، باب الجهاد والدفاع عن الدين، وكانت (عسلًا) له، وقبضًا على عمل صالح: ففي الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي مرفوعًا: (من قتل دون ما له فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد)، ولعل ميتته من عاجل بشرى المؤمن، ولعل ميتته أيضًا بالسكتة تعد من داء البطن، وهي شهادة، وكثرة من صلوا عليه بالحرم النبوي الشريف، بجانب دفنه في مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبالبقيع، بين علمين من أعلام الإسلام، وصلاة عشرات الألوف عليه، ودموع الملايين، بجانب شيبته في الإسلام، وعيشه وموته مدافعًا عنه، لعل ذلك من علائم حسن الخاتمة، أحسبه والله حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحدًا!

يقول الدكتور وليد كساب: ظل الشيخ رحمه الله يدعو الله بأن يقبض في المدينة؛ حبًّا لرسول الله – وكان أهل بيته وتلامذته يستغربون ويرون ذلك صعبًا للغاية – حتى جاء العام الذي قبض فيه، فتلقى دعوة لمؤتمر الجنادرية بالمملكة العربية السعودية! ويبدو أن أحد الغوغاء قد استطال في تعليق له على الشيخ أثناء إحدى المحاضرات؛ متهمًا إياه بمعاداة السنة بسبب كتابه: (السنة النبوية

بين أهل الفقه وأهل الحديث)! فانفعل الشيخ، وعلا صوته وهو يدافع عن موقفه من السنة المشرفة! وكان آخر كلامه: (نريد أن نحقق في الأرض لا إله إلا الله) وأصيب بذبحة صدرية، وخر ميتًا، رحمه الله تعالى!

حدثني الدكتور رأفت غنيمي الشيخ – العميد الأسبق لآداب الزقازيق – قال: بعث الشيخ بورقة للمنصة يطلب التعليق على بعض الكلمات، فقال رئيس الجلسة: سنشرف بتعليق شيخنا الغزالي في نهاية الجلسة؛ ليكون خير ختام!

وجلس الشيخ منتظرًا، لكنه غط في نوم عميق حتى سمعوا له صوتًا، يقول الدكتور رأفت: وجاء دور الشيخ في التعليق فحاولنا إيقاظه غير أنه لم يستيقظ!

وبأمر من الأمير عبد الله – ولي العهد – وبتوصية من الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز مفتي المملكة نقل جثمان الشيخ إلى المدينة المنورة.

وكتب نواف القيسي في الذكرى الـ21 لرحيله: الشيخ «الغزالي» فارس حمى دينه لآخر أنفاسه/ http: //thenewkhalij.org/node/61511

....وفي جيب الشيخ وجدوا الشاهد على محبة الله له في الدنيا، رحمه الله وغفر له، إذ إن الشيخ الغزالي كتب: إن مت هاهنا فلا تعيدوني إلى مصر، وادفنوني في البقيع!

وبكى تلاميذ الشيخ لمعرفتهم بدعائه من قبل أن يدفن في مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهاهو يموت فيها؛ رغم أن عقولهم لم تكن تتخيل أن يحدث الأمر على هذا النحو؛ ليموت هذه الميتة المشرفة، وهو يعد وصيته لذلك، وكأن قلبه الرقيق كان يستشعر هذه النهاية.

يقول الدكتور زغلول النجار حفظه الله: لما حضر جثمان الشيخ للمدينة فوجئنا أن هناك طائرات خاصة، أتت من جميع أنحاء العالم، تقل ناسًا كثيرين؛ أتوا للصلاة على الشيخ الغزالي في

المسجد النبوي، وازدحم المسجد عن آخره، وخرجنا بالجثمان إلى البقيع، وكنا ندفنه، وما يزال الناس بالمسجد من كثرتهم!

ويقول الرجل الذي يتولى دفن الأموات بالبقيع: إن صاحبكم هذا أمره غريب؛ كلما شرعت في حفر حفرة أجد الأرض لا تلين معي، حتى جئت هنا، ولانت معي الأرض بين قبري نافع مولى عبد الله ابن عمر، ومالك بن أنس صاحب المذهب المالكي! بين أهل الفقه وأهل الحديث، بين صحابي ملازم للمصطفى صلى الله عليه وسلم، مشهود له، وتابعي من خير القرون، كان إمام أهل المدينة خاصة، وإمام الأمة عامة!

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة!

ختامًا:

- اللهم ارحمنا ووالدينا برحمتك التي وسعت كل شيء. وارحم عبدك محمد الغزالي، واجمعنا به في فردوسك الأعلى مع مالك بن أنس ونافع وأهل البقيع، في فردوسك الأعلى يا منان يا جواد!
- اللهم إن هذه شهادتي على الشيخ، ولا أزكيه عليك – تباركت وتعاليت – ولا أزكي أحدًا غير من زكيت! فإن كنت مصيبًا فأسألك من فضلك العظيم، وإن قصرت أو تجاوزت فأنت سبحانك أهل التقوى وأهل المغفرة!
- اللهم إنك تعلم أنني ما تحريت إلا حقًّا، وما أردت إلا خيرًا، فما كذبت في شهادتي، وما جاملت، ولا غلوت، فاجعلها ذخرًا لي يوم القيامة!
- اللهم اكتب لهذه الورقات القبول، والأجر، والدوام، واغفر لي ولقارئها ووالدينا وأستاذينا ومن نحب، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم..

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وصل وسلم على سيدي المصطفى وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

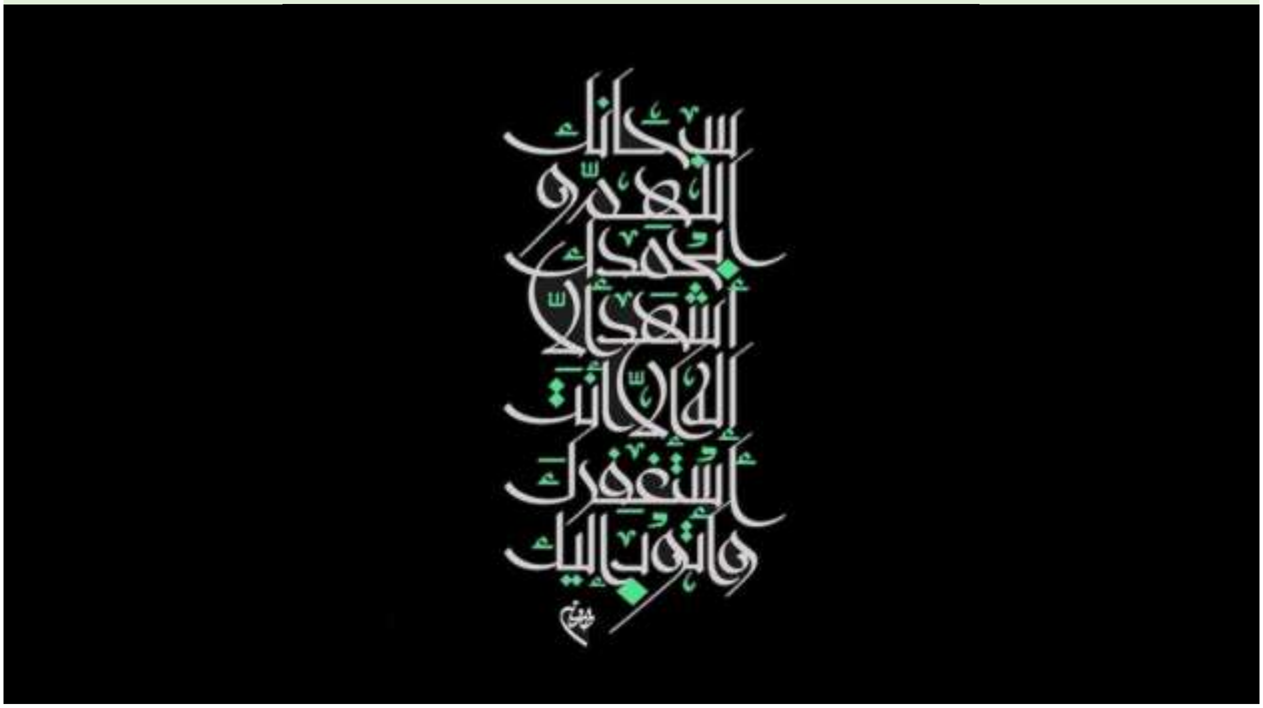

الفهرس

الصفحة	الموضوع
4	مقدمة
9	الغزالي مقدرًا مرتضًى
13	الغزالي ممدوحًا ومقدوحًا فيه
15	أولًا: من الجانب اليساري، والعلماني القادح
18	ثانيًا: من وجهة نظر بعض الإسلاميين الناقمين على منهجه ورؤيته
21	ثالثًا: من وجهة نظر كبار علماء الأمة
31	الغزالي ربانيًّا
41	الغزالي عاطفيًّا
46	الغزالي رفيقًا
51	الغزالي بسيطًا متواضعًا
62	الغزالي محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
66	الغزالي ظريفًا
76	الغزالي شاعرًا
82	الغزالي أديب الدعوة
88	الغزالي داعية
98	الغزالي وحسن البنا والإخوان
109	الغزالي معتزًّا بنفسه معتدًّا
114	الغزالي ثوريًّا
120	الغزالي مقاتلًا
125	معاركه مع الحكومات ورموزها
129	معاركه مع عبد الناصر وفي عهده
149	تقرير يفضح دور عبد الناصر ورجاله في الحرب الاستئصالية للإسلام
158	معاركه مع الرئيس السادات

الغزالي وحسني مبارك	166
الغزالي وواقع الأمة، وحكومات المسلمين، والفساد السياسي	167
معارك الشيخ رحمه الله تعالى على الجبهة الفلسطينية	176
معاركه على الجبهة الصهيونية	186
على جبهة التنصير	194
التقرير الرهيب عما تريده الكنيسة الأرثوذكسية المتطرفة في مصر	197
الغزالي والشيعة والباطنية	203
على جبهة المرأة والتغيير	206
الأنوثة ومكانة المرأة وحقوقها	207
الرجولة والذكورة	218
الغزالي والدور العلمي والحضاري للمرأة	227
معارك الشيخ على مستوى الفكر الإسلامي	231
معاركه مع أغبياء التدين	238
اشتباكاته مع السلفيين المعاصرين	248
معاركه مع العلمانيين واليساريين	258
معركته مع صلاح جاهين معركته مع العلمانية الجاحدة	264
معركته مع خالد محمد خالد	281
معركته مع عبد الرحمن الشرقاوي	291
معركته مع د. فرج فودة	303
معركته مع فؤاد زكريا	313
آخر معاركه، ووفاته رحمه الله تعالى	317
ختامًا	320

كتب للمؤلف

وتشمل كتبًا أكاديمية، وكتبًا ثقافية منوعة (في الشريعة، والفكر، والفن، والأدب، والمجتمع) وكتبًا ساخرة وكتبًا (ألبومات) وكتبًا شعرية، ومسرحية! ومنها؛ أبجديًا:

1. أحمد ياسين مسرحية.. رؤية بالعامية المصرية
2. أزمة الغرب الإسلام هو الحل/ مراد هوفمان/ ترجمة
3. أسباب سقوط الحضارات
4. اسكن فؤادي أو فجن
5. اسم واحد وخطاطون شتى
6. أطول لوحة في العالم
7. اقتلوا يوسف مسرحية
8. الأب رؤية قرآنية ونبوية
9. الأخوة الإنسانية
10. الإسلام الصورة الأصلية
11. الأعظم مسرحية
12. الإعلام الإسلامي
13. الإفك والتزوير في العالم المعاصر
14. الأقصى.. عرض المسلمين
15. الألوهية في العقائد الشعبية
16. الأنبياء عليهم السلام

17. الأندلسي
18. الانعتاق فرض عين
19. الإيثار في عالم نذل
20. الجمال–ج–**1**
21. الجمال/ **2**
22. الجمال/**3**
23. الحج.. والحجر الأسود
24. الحجاب في البوذية والسيخية وأوربا القديمة
25. الحجاب في اليهودية والنصرانية
26. الحراني مسرحية
27. الحرب على الإسلام.. مستلة
28. الحرباء مسرحية
29. الخطاطات المعاصرات
30. الدكتور حسن المعايرجي
31. الذئبة التائبة
32. الذين لا خوف عليهم
33. الرق وما ملكت اليمين
34. الرؤساء
35. الروم/ الغرب في الرؤية النبوية
36. الزهدي العظيم

37. السلفية المعاصرة
38. العدالة الفريضة الذبيحة
39. العفة وأهل العفاف
40. العلامة عبد العظيم الديب
41. الغزو المصطلحي
42. الغيرة خلق المسلم النبيل
43. القرضاوي رجل الهم والهمة
44. القرضاوي: السهرة القرضاوية (لوحات مسرحية)
45. القرضاوي شاعرًا
46. القرضاوي عالميًّا
47. القرضاوي– المقامة القرضاوية
48. الكذب المقدس
49. الله تعالى في منظور الأديان
50. المرأة في الإسلام
51. المعارضات لقصيدة البردة
52. المهتدون
53. النخبة الأليطة
54. بالشقلوب
55. تجربتي في التصحيح اللغوي
56. جن الحجر

57. حبوط الأعمال وضياع ثوابها

58. حرام عليكم يا إسلاميون

59. حريص عليكم

60. حقك وفوقه شوطة

61. خطاطون معاصرون رواد

62. خطبة حجة الوداع

63. خطيب الجمعة

64. دعاؤنا: لماذا لا يجاب

65. دعاة ومشاهير عرفتهم

66. ديوان إبراهيم عزت

67. رجل اسمه نرجس

68. رحلتي إلى غزة

69. رمضان في تاريخ المستعين بالله البسيوني

70. زفتا التي في خاطري النشأة (**1**)

71. زفتا التي في خاطري الإيراق/**2**

72. زفتا التي في خاطري/ رحلتي إلى طيبة الطيبة (**3**)

73. زفتا التي في خاطري/ الوجع (**4**)

74. زفتا التي في خاطري/ اللافتات (**5**)

75. زهرة/ ديوان شعر

76. سائح رغم أنفه

77. سبحان ربي الأعلى (للمهتدين الجدد وغير المسلمين)

78. سيدنا النجاشي رضي الله عنه

79. سيدنا إبراهيم الخليل

80. شجرة الحرية

81. شعراء نصارى مدحوا النبي صلى الله عليه وسلم

82. شلال الإبداع علاء اللقطة

83. صيامكم مقبول

84. ضيعة العم هارون

85. عبقرية الغزالي

86. عرض دورة دعوية لغير العرب

87. عمالكم أعمالكم

88. فقه السيرة للغزالي قراءة وتدقيق

89. في ظل عرش الرحمن تبارك وتعالى

90. لله يا زمري

91. ليل الصب/ معارضات شعرية

92. ليلة القدر: مفاهيم منسية ورؤًى عصرية

93. ليلى حلمي/ مونودراما مسرحية

94. ماذا نريد من المرأة

95. ماذا يريدون من المرأة

96. محمد صلى الله عليه وسلم في الذاكرة الأوربية

97. مدهشات من الدولة العلية العثمانية ومساجدها

98. مساجد علقوا عليها الصليب

99. مطوية عن النبي صلى الله عليه وسلم

100. معرض فنون الخط العربي

101. مفاهيم إسلامية حول المسنين

102. مقامات وجيع الزمان الزفتاني

103. مقدمة ديوان إبراهيم عزت

104. من حكايات الكرام

105. من صور الحرب على الإسلام

106. من محاسن الإسلام

107. مواقف الحسرة يوم القيامة

108. نساء عديمات الأنوثة

109. نونية القرضاوي

110. هدية الجمعة لوحات خطية

111. هل حجزت لنفسك بيتًا في الجنة

112. هل يعبد المسلمون الحجر الأسود (ألبوم مصور)

113. ودخلت مقر القذافي في باب العزيزية

114. وقال نسوة

115. وهل في الإسلام حرية للرأي

116. يا دوحة رايتك بيضا/ نبلاء كرام/ **1**

117. يا دوحة رايتك بيضا/ الثقافة والفن/ **2**

118. يحكى أن

119. وكتب أخرى كثيرة!

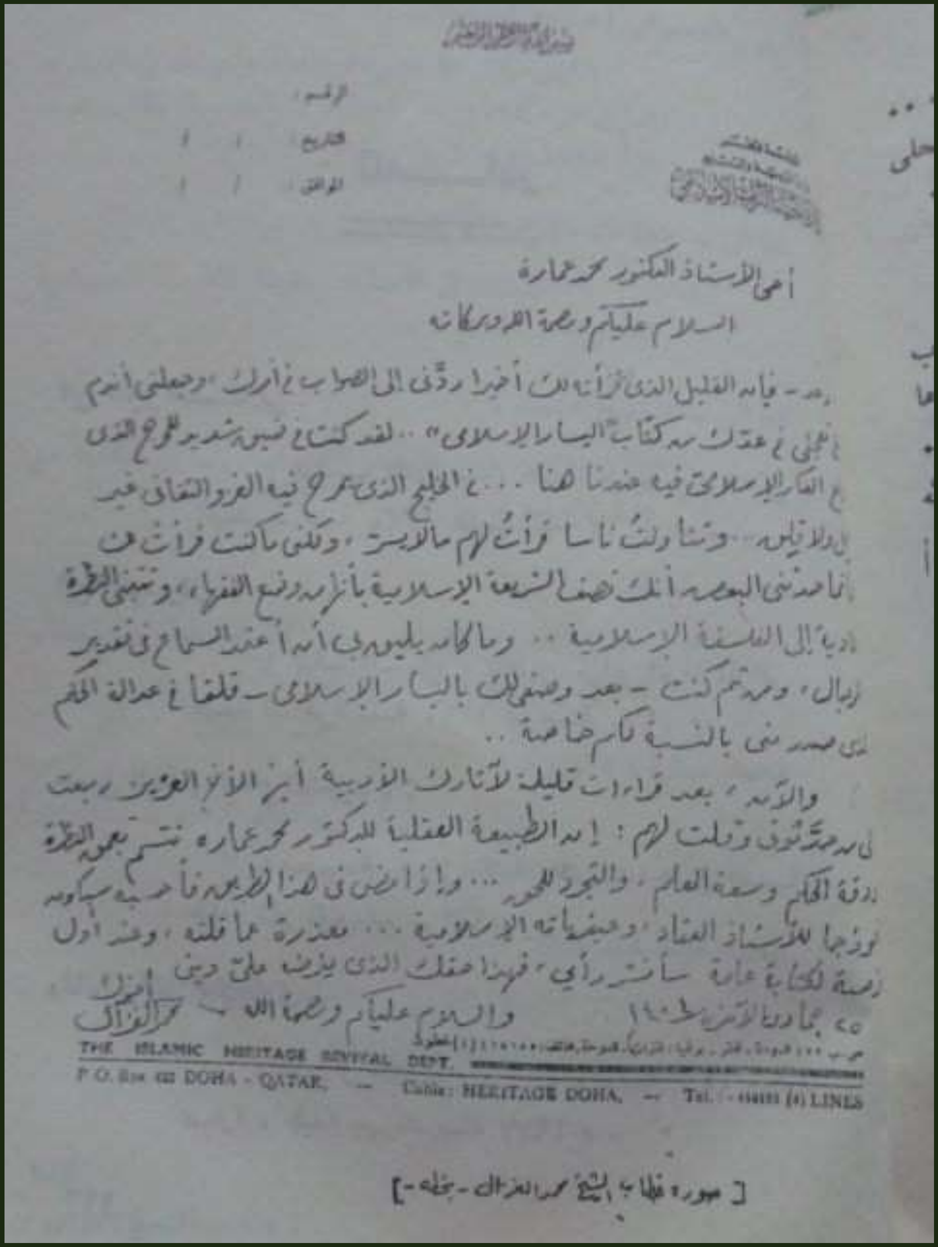

أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[illegible]عد - فإن القليل الذي قرأته لك أخيرًا ردّني إلى الصواب في أمرك، وجعلني أندم [illegible] في عتبك من كتاب "اليسار الإسلامي".. لقد كنت في ضيق شديد للموج الذي [illegible] الفكر الإسلامي فيه عندنا هنا... في الخليج الذي عربد فيه الغزو الثقافي غير [illegible] ... وشاركت ناسًا قرأت لهم ما لا يسر، ولكني ما كنت قرأت عن[illegible] ناجدتني البعض أنك تصف الشريعة الإسلامية بأنها من وضع الفقهاء، وتنتمي الحركة [illegible] إلى الفلسفة الإسلامية.. وما كان يليق بي أن أعتمد السماع في تقدير [illegible] ومن ثم كنت - بعد وصفك باليسار الإسلامي - قلقًا في عدالة الحكم [illegible] صدر مني بالنسبة لكم خاصة..

والآن، بعد قراءات قليلة لآثارك الأدبية أبرز الأخ العزيز [illegible] وقلت لهم: إن الطبيعة العقلية للدكتور محمد عمارة تتسم بعمق النظرة [illegible] دقة الحكم وسعة العلم، والتجرد للحق... وإذا مضى في هذا الطريق فأحسبه سيكون [illegible] للأستاذ العقاد، وعبقرياته الإسلامية... معذرة عما قلته، وعند أول [illegible] للكتابة عامة سأنشر رأيي، فهذا حقك الذي يفرض على ديني

٢٥ جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ — والسلام عليكم ورحمة الله — أخوك محمد الغزالي

THE ISLAMIC HERITAGE REVIVAL DEPT.

P.O. Box [illegible] DOHA - QATAR. — Cable: HERITAGE DOHA, — Tel. [illegible] (4) LINES

[صورة خطاب الشيخ محمد الغزالي - بخطه -]

رسالة بخط العلامة الشيخ الغزالي عليه رحمات الله ورضوانه